

الحياة في القرن العاشر

تأليف

هـ . ج . ويلز

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام

الدكتور / سمير سرعان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

مدير التحرير

هزن عبد العزيز

مكتبة التحرير

هلياء أبو شادي

المعرف الفني العام

محسنة عطية

موجز تاريخ العالم

تأليف

ه. ج. ويلز

ترجمة

عبد العزيز توفيق جابري

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

محتويات الكتاب

ط	كلمة المترجم
٣	الفصل الأول : العالم والفضاء
٦	الفصل الثاني : العالم والزمان
٩	الفصل الثالث : بدايات الحياة
١٢	الفصل الرابع : عصر الأسماك
١٥	الفصل الخامس : عصر مستنقعات الفحم
١٩	الفصل السادس : عصر الزواحف
٢١	الفصل السابع : الطيور الأولى والثدييات الأولى
٢٧	الفصل الثامن : عصر الثدييات
٣١	الفصل التاسع : القروود والقردة العليا وأشباه الإنسان
٣٦	الفصل العاشر : الإنسان النياندرتالي والروديسي
٤١	الفصل الحادي عشر : الإنسان الحقيقي الأول
٤٥	الفصل الثاني عشر : الفكر البدائي
٤٩	الفصل الثالث عشر : بدايات الزراعة
٥٤	الفصل الرابع عشر : حضارات العصر الحجري الحديث البدائية
٦٠	الفصل الخامس عشر : سومر ومصر في العصور الأولى ونشأة الكتابة
٦٤	الفصل السادس عشر : الشعوب للترحلة البدائية
٦٨	الفصل السابع عشر : أول الشعوب البحرية
٧٣	الفصل الثامن عشر : مصر وبابل وآشور
٧٩	الفصل التاسع عشر : الآربون الداثون

- ٨٣ الفصل العشرون : الإمبراطورية البابلية الأخيرة وإمبراطورية دارا الأول
- ٨٩ الفصل الحادى والعشرون : تاريخ اليهود القديم
- ٩٥ الفصل الثانى والعشرون : كهان وأنبياء فى بلاد اليهودية
- ٩٩ الفصل الثالث والعشرون : الإغريق
- ١٠٥ الفصل الرابع والعشرون : الحرب بين الإغريق والفرس
- ١٠٩ الفصل الخامس والعشرون : بلاد الإغريق إبان مجدها
- ١١٢ الفصل السادس والعشرون : إمبراطورية الإسكندر الأكبر
- ١١٦ الفصل السابع والعشرون : متحف الإسكندرية ومكتبتها
- ١٢١ الفصل الثامن والعشرون : حياة جوتاما بوذا
- ١٢٦ الفصل التاسع والعشرون : الملك آسوكا
- ١٢٨ الفصل الثلاثون : كونفوشيوس ولاهوتسى
- ١٣٣ الفصل الحادى والثلاثون : ظهور روما على مسرح التاريخ
- ١٣٨ الفصل الثانى والثلاثون : بين روما وقرطاجنة
- ١٤٣ الفصل الثالث والثلاثون : نمو الإمبراطورية الرومانية
- ١٥٤ الفصل الرابع والثلاثون : بين روما والصين
- ١٦٠ الفصل الخامس والثلاثون : حياة الرجل العادى فى عهد الإمبراطورية والرومانية القديمة
- ١٦٦ الفصل السادس والثلاثون : التطورات الدينية فى خلال الإمبراطورية الرومانية
- ١٧٢ الفصل السابع والثلاثون : تعاليم يسوع
- ١٧٧ الفصل الثامن والثلاثون : تطور المسيحية المذهبية
- ١٨٢ الفصل التاسع والثلاثون : البرابرة يشطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرقى وغربى
- ١٨٧ الفصل الأربعون : الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية
- ١٩٢ الفصل الحادى والأربعون : الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية
- ١٩٧ الفصل الثانى والأربعون : أسرتا « سوى ، وتانج » بالصين
- ٢٠٠ الفصل الثالث والأربعون : محمد والإسلام

- ٢٠٤ الفصل الرابع والأربعون : عهد عظمة العرب
- ٢١٠ الفصل السادس والأربعون : الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية
- ٢٨٢ الفصل السابع والأربعون : الأمراء للمارضون والصدع الأعظم
- ٢٣٦ الفصل الثامن والأربعون : فتوح المغول
- ٢٤١ الفصل التاسع والأربعون : النهضة الفكرية للأوروبيين
- ٢٥٠ الفصل العاشر : إصلاح الكنيسة اللاتينية
- ٢٥٤ الفصل الحادي والعشرون : الإمبراطور شارل الخامس
- ٢٦٢ الفصل الثاني والعشرون : عصر تجارب سياسية وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا
- ٢٧٥ الفصل الثالث والعشرون : إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار .
- ٢٨٠ الفصل الرابع والعشرون : حرب استقلال أمريكا
- ٢٨٦ الفصل الخامس والعشرون : الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا
- ٢٩٣ الفصل السادس والعشرون : السلم الأوربي للقليل بعد سقوط نابليون
- ٢٩٨ الفصل السابع والعشرون : نمو العرفان للمادى
- ٣٠٧ الفصل الثامن والعشرون : الانقلاب الصناعى
- ٣١١ الفصل التاسع والعشرون : تطور الآراء السياسية والاجتماعية المعاصرة
- ٣٢٣ الفصل العشرون : امتداد رقعة الولايات المتحدة
- ٣٣١ الفصل الحادي والعشرون : ألمانيا تصبح دولة عظمى
- ٣٣٤ الفصل الثاني والعشرون : الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية
- ٣٤٠ الفصل الثالث والعشرون : العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان
- ٣٤٥ الفصل الرابع والعشرون : الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤
- ٣٤٨ الفصل الخامس والعشرون : عصر التسليح في أوربا والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨
- ٣٥٤ الفصل السادس والعشرون : النظام الجديد بالروسيا
- ٣٦٢ الفصل السابع والعشرون : عصبة الأمم

- و -

صفحة

٣٦٧	الفصل الثامن والستون : إخفاق عصبة الأمم
٣٧٩	الفصل التاسع والستون : الحرب العالمية الثانية
٣٩٣	الفصل السبعون : أزمة التكيف البشرى
٣٧٩	الفصل الحادى والسبعون : من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ العقل البشرى فى أقصى توتره
٤١٤	جدول تاريخى زمنى
٤٢٨	فهرس أبجدى للكتاب

كلمة المُترجم

كان طبيعياً وقد ترجمت « العالم » أن يتجه الفكر إلى شقيقه « الموجد » . ذلك أن « العالم » ليس سفرًا يسجل التاريخ ويدون أحداثه فحسب بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صنائع التاريخ ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من بنات أفكار مؤلفه ، يعد من الصور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب . وبحسب القارىء ، ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا ، وتووير لمن أحاطت به سدفة الظلمات ، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذى عليه نعيش ، تعده إقليماً واحداً بل قطراً واحداً ، استغفر الله بل قرية واحدة ، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتعاطف ما يقوم فى كل ريف ، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ما يبنى أن يزول من الريف السعيد الذى ترفرف عليه ألوية الوئام . وبحسب القارىء أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تتمهم المساواة والإخاء والصفاء ، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أحممر ولا استعماري ولا مستعمر ولا استغلالي ولا مستغل ، بل الكل فى حفظ الحياة سواء . والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع ، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى .

كان طبيعياً وقد ترجم العالم بما حوى من ذم لدول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا ونعى على سوء تديرها ، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطباع البشر وسوء استغلالهم للموارد البشرية ، أقول كان طبيعياً أن يتجه الفكر إلى هذا الموجد الذى تجده بين يديك عسى أن يفيد به من لم يقع كتاب العالم فى يده .

كان هذا الموجد عندي مذكنت طالباً بمدرسة المعلمين العليا وادنى نفسى على ترجمته وتأبى ظروفى إلا أن تحول دون ذلك . بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله . وإن ألمت به فى بعض ما تيسر لى من وقت الفراغ إلحاقات وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التى اتصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

ترجعت للعالم ، غالطت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت من مهجة اللحم والدم ، وإذا
هى قطعة من حياتى الفكرية . وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حياتى الإيمان
بالمجلس النيابية الدستورية . وجرى فى العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية
والحرية العامة ، وذلك فضلا عما كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليز
الذى كان منذ حدثنا يقتصب السلطان فى هذا البلد المسكين ، فضلا عما لهجت به
النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستئثار الأجنبي والاستغلال :
استغلال الأجنبي للمصرى واستغلال الثنى للفقير واستغلال الإقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . و . بعد انقطاع الصلة به
فترة ما بين العالم والشروع فى نقل الموجز ، وزاد من شعور السعادة إحساسى بأنى
أقرب للقارىء منهلا جديداً إن عز عليه فى العالم ارتياده لعظم سعة ، لقد سهل عليه
فى الموجز وروده ، وسرني أنى وجدت آراء الرجل فى الكثير من الأمور ، مبثوثة
فى الصغير ، فعلت أنى أقدم لقارىء العرية أفكار الرجل نفسها فى ثوب موجز أنيق
يستطيع تناوّلها منه ماعن له وقت فراغ فى ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب
المتناول ، ولا يغرنك قوله فى مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للعالم . إذ الواقع
الذى لا مرية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا فقيم طرب المؤلف
الجليل فى الكتاين كليهما بنشوء الحضارات وإشادته بالبدايات التى أثرت فى الثقافة
والفكر الإنسانى ؟ وانظر إليه فى الكتاين كليهما وهو يدق البشائر فرحا بالكتابة
وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي يونان ، وصمود منار العلم البطلمى
بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكتم تحزنه الحروب ويشقيه
ما تعود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم ، وإذا أهانج
النصر نتاقل أثنائها حتى لتردد فى الآذان رنات المرائى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف فى الكتاين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل
مضيق لجهود البشرية مبدد لها فى أنون الحديد والنار . فإن كان القارىء المصرى
الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب ان يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى
دعا إليها الإسلام فى أوج مجده ألاوهى الحضارة ومسيرة ركب التقدم والحرية ودعت
إليها انتفاضة مصر فى عهد ثورتها الفنية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسى وغاية ما أرجو .

— ك —

وفي الكتاب آراء المؤلف قد تخالف رأينا ولكننا أبقيناها في موضعها عملاً بحرية
الرأى ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد
أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام في هذه القصة فمعروف
لا يحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها فصلا
عن الحرب العظمى الثانية (أكلنا ما ينقصه من حلقات) وضمنه أمانيه الخالصة للبشرية
محرراً إياها عواقب أخطائها وموضعا لها سبيل النجاة ؟

عبد العزيز نوفلي جابري

مصر الجديدة في ١٤ يونيه ١٩٥٨

موجز تاريخ العالم

(٢ - تاريخ العالم)

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال براءً يتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث في العالم قبل ذلك فكان أمراً تضرب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير ، وكان الناس في شطر كبير من العالم المتحضر ، يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بفتة في عام ٣٠٠٤ ق.م ، وإن اختلف الثقات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث في خريف تلك السنة أو ربيعها ١١ وقد قام هذا الوهم الخاطئ العجيب في دقة تحديده على البالغة في تأويل « العهد القديم » العبراني ، تأويلاً حرفياً أو بالأحرى على افتراضات وتفسيرات لاهوتية رأدها النصف ، ولقد تخلى مصلو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان - فيما توحى به جميع الظواهر - موجوداً طوال حقبة هائلة من الزمان ، ربما لم تكن لها بداية ، ومن البديهي أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من الخداع والتضليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التي تراءى لنا عن حجرة وضعت بها مرآيا متقابلة في كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماماً .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروي ، أي أنها كرة مضغوطة قليلاً على نمط البرتقالة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريباً . وكان شكلها الكروي معروفاً لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس ، منذ قرابة ٢٥٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون في شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الذي هو أقصر من قطرها الاستوائى بأربعة وعشرين ميلاً تقريباً) مرة في كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب في تعاقب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة في كل

عام في مدار يضاوى منحرف قليلا ومتغير تغيراً بسيطاً . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال في أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجماً ، هي القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩.٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٣٦ ، ٢٧ من ملايين الأميال ؛ وفيها وراء مدار الأرض وبنفس النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجماً ، هي السيارات الصغرى (الكويكبات) Planetoids ، يوجد المريح والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ ، ٢٧٩٣ مليون ميل على التعاقب ، ولا شك أن من العسير على الأنفهام تصور هذه الأرقام المقدرة بملايين الأميال . وربما يسر الأمر على خيال القارئ تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فلذا نأخذ على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام وعلى مبعده ٢٣٣ ياردة ، أى بما يقارب خمس ميل تستغرق أربعاً أو خمساً من الدقائق مشياً على الأقدام ، وعند ذلك يكون القمر في حجم حمصة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتى بين الأرض والشمس الكوكبان الداخليان ، عطارد والزهرة ، على بعد ١٢٥ ياردة ، ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينهض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى يبلغ المريح وهو وراء الشمس بـ ٤٩٠ ياردة ، والمشتري وهو على ما يدانى الليل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يجيء زحل وهو أصغر قليلاً وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتى اللابثية والعدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متتقلة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا المقياس نفسه على بعد ٥.٠٠٠ ميل .

وربما أعانقتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الحواء الذريع الذى يعم الفضاء ، الذى فيه تتوالى مسرحية الحياة .

ذلك أننا فى كل هذا الحواء الذريع الذى يعم الفضاء لا نعلم يقيناً بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التي لا نفوس في باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التي تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تعلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما بقى بعد ذلك من فضاء لا حد له ولا نهاية يتكون — حسبما يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغه القوس في أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . . حقا إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالناطيد ، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاما ذريعة . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صفار الطيور والحشرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شتى ومتممة في تقدير عمر الأرض وأصلها . ولنا ندعى هنا أننا سندلى بموجز لتلك الآراء ، وذلك لانطوائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية ، والحق أن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بعداً يجعل كل ما بذل في مضارها مجرد افتراضات تخمينية . والانجاء العام للعلماء ينجح كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض . وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين (٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) من السنين . وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيراً ، ولكنها مدة يعجز الخيال تماماً عن تصورها .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السحابة من وجودها المنفصل دوامة هائلة من المادة المنتشرة في الفضاء . ويكشف لنا الرقب (التلسكوب) في أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولبية منيرة من المادة ، هي السدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز . وبظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوماً أحدث تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالي ، وتواصل ذلك التحول التركيزي دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقرها مميزين في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق ، الذي ترجمناه بالأرقام ، وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتيهما الحالية ، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل ؛ لذلك كانا يسبعان حولها بسرعة أشد ، ولطهما كانا عند ذلك متوهجين أو منصهرين السطح ، وكانت الشمس نفسها شعلة في السماء أكبر كثيراً مما هي عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نحترق آماد ذلك الزمان السرمدي ، لنرى الأرض في تلك المرحلة المسكرة من تاريخها لشهدنا منظراً أشبه بياضن أتون الصهر ، أو سطح

دافق من اللافا^(١) للنصهرة قبل أن تبرد وتصلب — منه بأى مشهد آخر معاصر . ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استعال إلى بخار مستعر في جو عاصف من الأبخرة الكبريتية واللعدنية . ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بجرأ متطلعا من المواد الحجرية للنصهرة . وإن وهج الشمس والقمر لير مارقا كسهم من لافح الذهب عبر جو من سحب نارية .

وبتعاقب السنين مليوناً في إثر مليون يأخذ ذلك المشهد الناري البركاني في فقدان لظاه المتأجج يبطء تدريجياً وتنساب أبخرة البهاء إلى الأرض مطراً فيقل تركزها في الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر النصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة في التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليعل محلها كتل أخرى طافية . وتندفع الشمس والقمر عبر السموات في سرعة متضائلة وقد أخذوا يزدادان بعداً ويصفران حجماً . وعند ذلك تكون حرارة القمر — نظراً لصغر حجمه — قد بردت بالفعل إلى ما دون التوهج ، ثم يأخذ على التوالى يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويعكسه إليها في سلسلة متعاقبة من الكسوف والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء التدريج في خلال الزمن السرمدي أخذت الأرض تزداد قرباً من حالها التي نعيش عليها اليوم ، حتى جاء في النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف سحبا في الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول المطر محدثاً نشيشا^(٢) على ما تحته من الصخور الأولى . وتنقضى آلاف لا حصر لها من السنوات يظل أثناءها الجزء الأكبر من مياه الأرض بجاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التي تنساب على الصخور الآخذة في التباور من تحتها ، كما توجد البرك والبعيرات التي تحمل تلك التيارات إليها حتاتة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها «إنسان» أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ماحوله ويعيش على ظهرها ، ولو أنه قدر لنا أن نزور الأرض في تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه «باللافا» دون أن نعثر على أى أثر للتربة أو أية بقية للنبات ، في جو مكهر بالزوابع .

(١) اللافا (Lava) هي المادة الذائبة التي تنفذها البراكين من فوهاتها .
(٢) الشيش : صوت الغليان ، وذلك لأن المطر عند ما يلتقي بالصخور الساخنة يتبخر على الفور .

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من العواصف
الموجاء ، ولفجأتنا من المطر انهيارات لا تتأني اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأشد
بطشا ، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا عكراً بمحطام الصخور ويلتقي
بعضه ببعض في سيول جارفة تنحت الحوانق الغائرة والوديان وهي مندفعة إلى البحار
الأولى لتودعها رواسبها .

ولا بد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر
السما ، كما كنا نشهد في أعقابها حين تمر وفي أعقاب القمر حركة مدبومى قوامها
الزلازل والارتفاعات والتقيبات فى القشرة الأرضية . ولا بد أن القمر الذى يطل
الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً كاشفاً الوجه
الذى يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ،
وبطؤت سرعة القمر فى السما ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد الماء فى
البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذى أصبح منذ ذلك الحين دثارا للكوكبنا .
ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خلوا من الأحياء ،
والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذى نستقى منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجبرى والرمل كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفواكه وآثار الأقدام والحدوش وما إليها ومعها آثار المد والجزر منذ أقدم العصور ، والحدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلذة بعد فلذة بطريق الفحص المضى عن هذا السجل الجبرى . وذلك أمر يهد اليوم من المعلومات العادية ولكن الصخور الطباقية (الرسوية) لا ترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أنيق ؛ بل إنها تعضت والتوت وتبعثرت وتموجت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مرارا وتكرارا بالنهب والحريق ، ولذا فلم يقسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر المدى الزمانى الكامل الذى يمثله سجل الصخور بليون وستائة مليون سنة — ١٩٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سنة .

والجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الآزوية Azotic » ، أى التى لا يبدو فيها أى أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الآزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . وإنى لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تميز اليابس والماء لأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أى أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخذشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأى كائن حى .

فإذا سعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة الماسية وأخذ عددها يزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار الغابرة باسم الزمن الباليوزوى Palaeozoic السفلى .

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة وديئة نسبيا ؛ مثل أصداف أسماك محارية صغيرة وجذوع لحيوانات نباتية^(١) ، وروءوس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لها . وتظهر منذ زمن مبكر جدا مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبيت أى الثلاثة الفصوص^(٢) . وبعد ذلك ببضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من المقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حتى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم نخط أية واحدة من هذه المخلوقات بضخامة الحجم وأكبرها صنف من المقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام ، وليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات فقارية . وجميع النباتات والكائنات التى تخلفت لنا بقاياها عن تلك المدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه المناطق التى يتعاورها المد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شيئا لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى (الباليوزوى) السفلى العتيق ، لو وجدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا فى الحجم فى قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية أو حفرة مزبدة آسنة ، ثم تنفصصها تحت الميكروسكوب (المجهر) ، فنانجد هناك من القشريات والسمك الهامرى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبه أخذ بتلك الأصناف الأولى الفيضجة . الأكبر حجما التى كانت فى يوم من الأيام اسمى ما بلغت الحياة على « كوكبنا » الأرض . ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الباليوزوى السفلى قد لا تزودنا بشيء ما يمثل أو بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للمخلوق عظام

(١) مثل ذلك الإسفنج والرجان واسمها العلمى الريمجات Zoophytes .

(٢) التنتة الفصوص Trilobite هى حفريات من العصر الباليوزوى السفلى العتيق لحيوانات

ذات فصوص ثلاث وبدون فقار وهى من فصيلة العناكب Arachnida .

أو أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكتسباً بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف وثقل كاف لطبيع على الطين آثاراً بارزة للأقدام والدروب المطروقة ، فمن غير المحتمل تخلف آثاراً حفرة بعده تدل على وجوده . ويوجد في العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من الخلوقات الصغيرة الهشة الأجسام التي لا يتصور عقل إمكان تركها أى أثر يطوع لجيولوجى ، الغد العثور عليه . ولعل الماضى السحيق لهذا العالم كان يعج بملايين الملايين من أنواع تلك الخلوقات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها . وربما كانت مياه البحار والبحيرات الدفينة الضحلة في ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى Azoic ، زاخرة بهينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية ، والمجردة من الأصداف والعظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق الصخور والشواطئ للعرضة للدد والجزر والمعمورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل الصخرى للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله في ذلك مثل دفاتر أحد المصارف من حيث عدم وفائها بمحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف . ولا يتيسر لأى نوع من الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جذع متكلس^(١) ، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك التي تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت الذى يسمى عادة باسم الرصاص الأسود — صورة من الكربون غير المركب ، ويرى بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوى لكائنات حية مجهولة .

(١) الكلس : هو المادة الجيرية التي تتكون منها العظام والحار .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان المظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهائية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هي عليه الآن تماماً ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندما شرع الناس ينقبون في سجل الصخور ويدرسونه أن تزعم هذا الاعتقاد بسبب الاشتباه في أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم نمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقاداً بما يسمى النشوء العضوي والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، ينحدر بعمليات تغير بطيء دائب ، من صورة سلفية غاية في البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الآزوية .

وقد بما كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوي هذه ، مثار مجادلات ألحمة كثيرة بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بعمر الأرض ، حتى لقد آتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد فى النشوء والارتقاء العضوي Organic Evolution لا يستقيم — لعله لا نعلمها — وتعالم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكاً بالعقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لا يتخرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والأتمثل القائل بأن جميع الكائنات الحية أصلاً مشتركاً . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر القبراء . بل إن الحياة قد نمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان بكل الخيال دون تصورها ، والحياة تتطور من مجرد هزة فى الصلصال المخضلى بمياه الد والجزر إلى مجبوحة الحرية والقوة والإدراك .

تسكون الحياة من أفراد ، وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يماثلون البلورات غير المحددة وغير المتحركة المكونة من المادة

غير الحية ، ثم إن لهم خاصيتين مميزتين لا تشاركهم فيهما أية مادة في عالم الجماد ، ذلك أنهم يستطيعون أن يتمثلوا في أنفسهم مادة أخرى ويحولونها إلى جزء منهم كما أنهم يستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفا : فهم يأكلون وهم يتناسلون وهم يستطيعون أن ينشئوا أفرادا آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما . وإن هناك لمشابهة نوعية وعائلية بين الفرد ونسله ، كما أن هناك فارقا فرديا بين كل والد وكل مولود له ، وهذا صحيح في كل نوع من الأنواع وفي كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذى يوجب على النسل أن يشابه والديه وما الذى يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولكن نظراً لأن الذرية مجتمع فيها الشبه والاختلاف في وقت واحد ، فإن من المقبول وإن لم يثبت علمياً أنه إذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة . ومرد ذلك أن أى جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تهيء لهم فوارقهم الفردية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التى لا بد للنوع أن يعيش فيها ، (وعدد آخر) فوارقه الفردية تجعل من العسير عليه نوعا ما أن يعيش . والقسم الأول يكون أطول في الجملة عمرا وأكثر نسلا من القسم الثانى ؛ وهكذا يتطور مستوى النوع جيلا بعد آخر في الاتجاه للأمام . وهذه العملية التى يطلق عليها « الانتخاب الطبيعى » ليست نظرية علمية بقدر ما هى نتيجة حتمية لحقائق التوالد والفوارق الفردية . قد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها في تبديل النوع أو إباده أو صيائه ، دون أن يقنعه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى . ومع ذلك فالرجل الذى يتأنى له أن ينسك سريان عملية الاختيار الطبيعى هذه في الحياة منذ بدايتها ، لا بد أن يكون إما جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتفكير العادى .

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالبا ما تكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولكن أحدا منهم لم يصل إلى أية معلومات بانه محددة ولا فرض علمى يركن إليه عن الصورة التى بدأت بها الحياة . على أن جميع الثقافت يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفئة الضحلة القليلة الملوحة والمعرضة لنور الشمس . وأنها امتدت على السواحل حتى بلغت منطقة تعاقب المد والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه المكشوفة .

كان ذلك العالم الغابر عالم مدوجزر وتيارات قوية ولا بد أن إبادة الأفراد لم تكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطئ ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه في غور لا تصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجنود والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتكوين قشرة خارجية وغلاف يقي الفرد المتخلف على الشاطئ شر الجفاف المفاجئ . ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يحجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلمة في أعماق البحر ومجاهاه أو إلى التلوى فرارا من التوهج الشديد في الأضغال^(١) الخطرة .

ولعل أول المحارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لا من أعدائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظافر تظهر في حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم القرب المائية الأولى . وانقضت عصور طويلة ومثل هذه المخلوقات هي صاحبة السيطرة في الحياة . ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلورى Silurian ، (الذى يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالأعين والأسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقري ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات المعروفة .

(١) الأضغال : جمع ضحل وهو الماء القليل الفور .

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن شوامخ الصخور والأراضي الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح في أشعة الشمس ومياه المطر ، أما التربة بمناها الصحيح فلم تسكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزيئات الصخور وتحولها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أثر مطلقاً لطحلب أو عشب بحرى . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخري الأجرد عوامل تغيرات عظيمة في المناخ . وأسباب هذه التغيرات المناخية في غابة التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والترحزح التدريجي في ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضاً ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات ، لعل هذه الأسباب مجتمعة قد تصافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دفيء أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلاحظ أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطني العظيم ، فترادفت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركاني والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجيال ارتفاعا ، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تصافر فيها الصقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من الغرين لئلا أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقعتها مع زيادة ضحلة البحر وانتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكمن عصر في تاريخ العالم اجتمع فيه « الارتفاع والعمق » أو تجاوز فيه « الانخفاض والاستواء » . ويجب أن يبعد القارئ عن ذهنه كل فكرة توحي بأن سطح الأرض ظل يرد باطراد منذ أن تجمدت قشرتها فبعد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثارا لفترات تكاثر أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظيمة ، وهى « العصور الجليدية » التى حدثت حتى فى العصر الآزوى نفسه (مع شدة قدمه) . ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقاً إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك ، فى فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأتلاط الأول من الأشكال التى بدأت عندئذ فى الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفياً إبان عشرات ملايين من السنوات ولكن ها قد وافت الآن فرصها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية فى غزوها هذا لليابسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقت خطى النبات فى هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هى مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خوصاته^(١) Fronds التى يدفع بها نحو ضياء الشمس عندما تنسحب المياه التى يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هى صعوبة الحصول على الماء — الذى لم يعد آنذاك قريباً فى متناول اليد — من الأرض. اللوحة فى أسفل إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التى صلب بها عود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بفترة يكتظ سجل الصخور بأضرب جمّة من النباتات الخشبية للمستنقعات ، كان الكثير منها ضخّم الحجم ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأمسوخ^(٢) الهائلة وما أشبهها وسأيرت زحف هذه النباتات من الماء عصرا بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذو الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قريية الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك الكبوريا^(٣) King-Crab والعقارب البحرية التى تحولت إلى أقدم العناكب والعقارب الأرضية ، وسرعان ما وجدت حيوانات فقارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيراً جداً . فهناك رعاشات^(٤) (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحها تسعا وعشرين بوصة .

(١) الخوصات Fronds وتسمى أيضاً الفروئات هى نباتات بدائية لم يمايز فيها الساق من الورق فهى سيقان ورقية أو متورقة .

(٢) الأمسوخ هو ما يسمى بذيل الفرس .

(٣) هو عنكبوت جبرى عجيب له درع على شكل حدود الحصان وهو آخر من تبقى من فصيلته

(٤) وتسمى بالسمران أيضا وهى حشرة زاهية الألوان ذات إشعاع شفافة الجناحين .

وقد استطاعت هذه الرتب (orders) والأجناس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تنفس الهواء الذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعاً مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تكتسب ، بطرائق متنوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماماً لا منحة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يتكون للخياشيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية البحر ، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة للتنفس تندس في صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الخياشيم القديمة التي كان السمك الذي يعد سلفا للأسلحة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة للتنفس على البر . وقد حدث في هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن مثانة العوم هي التي أصبحت عضواً جديداً متصلاً بالتنفس هو الرئة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات ، وهي الضفادع وسندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها في الماء ، وتنفس بالخياشيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تتطور على نفس النمط الذي يحمل بمثانات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو في الزور شبيه بالكيس ، فيبرز الحيوان إلى الأرض ، وتضمحل الخياشيم وتحقن شقوق الخياشيم (تحقن جميعاً إلا تنوءاً في شق واحد من شقوق الخياشيم ، يصبح فتحة الأذن وطلبتها) وعندئذ يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء ، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكي يبيض بيضه وينتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات المتفلسة للهواء في هذا العصر عصر المستنقعات والنباتات تنسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريباً أشكال ذات قربي بسندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقا إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش في الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرى منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية هي الأخرى مثل حيوانه تماماً ، ولم يكن شيء منها قد أنتج حتى ذلك الحين ثمراً ولا جاً يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والطر . إذ لم يكن أمامها فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores^(١) في الماء إن قدر لها أن تتوالد .

(١) البوغ : Spore جسم أو (بذرة) مفرد الغلية منتج بغير نشاط جنسي .
موجز تاريخ العالم -

ومن أمتع نواحي ذلك العلم الجليل « التشريح المقارن » اهتمامه بتعقب التكيفات المعقدة المدهشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش في الهواء لجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هي قبل كل شيء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يعلو الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا في تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الرحم قبل الميلاد ، في مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تمنحها قبل خروج الجنين .

والعين التي هي في السمكة عارضة متصلة بالماء ، يمنعها من الجفاف في الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفرز الرطوبة . وتموجات الصوت الخافتة في الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وإنك لتلاحظ في كل عضو من أعضاء الجسم تقريبا تعديلات وتكيفات مماثلة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أي عصر البرمائيات عصر حياة في المستنقعات والبرك ، وعلى الشواطئ المنخفضة في تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار بلفته الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماما مبركة حياة ... لقد تلمست الحياة أن تنفس الهواء ، ولكن كانت لا تزال متأصلة في الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتتوالد وتنتج سلالة نوعها .

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكوين الطبقات الفحمية ، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ويمثلها في سجل الصخور رواسب سمكة من الحجر الرملي وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تقلب تقلباً شديداً فثمة آماد طويلة من الزمهرير الفارس ، ترتب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات للسنتفات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتحميد^(١) التي منحت العالم معظم رواسب الفحم في هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التعديلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تتلقى أئمن ماتنظم من دروس إبان الحن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متأصلة . ووجدنا في السجل بقايا حيوانات فقارية تبيض بيضاً ، لايتفتح عن أبي ذنبيات نحتاج إلى العيش فترة ما في الماء ، بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه قربا يستطيع الصغير معه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي يفصل فيها ويستقل بوجوده . لقد ذهب الحياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذنبيات هي الزواحف . وصحب تطورها تطور للأشجار الحاملة للبذور ، والتي كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل وكثير من أشجار الحروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب .

(١) التمدن أو المعدنة أو التفلز : اكتساب الأشياء غير المعدنية خصائص المعادن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك في ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لاشك أن اللعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوهرية لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور المترامية من العسر والشدة . ولم يكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف المواتمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرًا بعد عصر ومع كثير من التقلبات . وتكاثفت حركات القشرة الأرضية التي لم تريح تتعاقب بغير حصر ، وتغيرت مدار الأرض وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المدار والمحور زيادة وتقصاناً ، وراحت تعمل جميعها على إيجاد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق . ويرى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتي مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن لليزوزوى ، تفريقاً لها عن الزمنين الآزوى والبالوزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماماً في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتميزاً لها أيضاً عن الزمن الكاينوزوى (أى فترة الحياة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن ، كما أنها تسمى أيضاً باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يبعث على الدهشة وقد انتهت ذلك العصر منذ حوالى ثمانين مليوناً من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبياً في العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعاً من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التي كانت صاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب الفحمية . إذ لا يزال لدينا الثعابين والترسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكى (Alligator) والغاميسح العادية والسحالي^(١) ، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهي لا تستطيع أن تتحمل التعرض للبرد ، والراجع أن جميع زواحف الزمن لليزوزوى قد كابدت الأحوال لنفس هذا السبب . كانت حيوانات مما ينمو في البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات مما يربى في تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تكن تتحمل

(١) السحالي : Lizards دويبة لمساء تمشى مشياً سريعاً ثم تقف وتسمى أيضاً العظاية والعظاءة وجمها عظام وعظايا وعظايات (النجم) .

صقيما . ولكن العالم كان قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيقي ، والمختلف تماما عن حيوان ونبات الطين والمستنقعات في العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً في تلك العصور ، فهناك ترسات وسلاحف كبيرة ، وغماسيح ضخمة وكثير من السحالي والثعابين ، ولكن كان هناك عدا ذلك عدد من عائلات من المخوقات العجيبة التي اختفت الآن تماما من هذه الأرض . فثم أنواع جملة من كائنات تسمى الدناصير : [العظايا المهولة] . وكان النبات قد شرع في الانتشار حينئذ فوق مافي العالم من المستويات المنخفضة . فكثرت القصب (البوص) وآجام السرخس وما مائلها ؛ وفي هذه الوفرة من الحبرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف الفتانة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى ، وأخذ حجمها يزايد باطراد كلما تقدم الزمن الميزوزوي إلى ذروته ومن هذه الوحوش ماتفوق في حجمه على كل حيوان يرى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهي تضارع الحيتان في حجمها فكانت العظاءة مزدوجة العائق (الديلودوكس كارنيجاي *Diporodus Carnegii*) مثلما تمتد أربعة وثمانين قدما من البوز إلى الذيل ؛ كما أن العظاءة للماردة (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها مئة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش حشد من العظايا المهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorous) التناسبة معها حجما . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظاية الجبارة (الترانصور) وتصفه بأنه قد بلغ الغاية في شناعة الزواحف .

وبينا كانت هذه المخوقات الضخمة ترعى وتتغلب بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Fronds) والنباتات الدائمة الخضرة للآجام الميزوزوجية ، إذ اقيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب — ولا وجود لها الآن — تتأثر الحشرات وتتغلب بعضها البعض ، بادئة بالوثب والمهبط ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيقانها الورقية وتلك هي التيرودا كنيل (أى ذو الأصبع الممنح) (١) . وهو أول الكائنات الطائرة ذات العمود الفقري ؛ ووجوده يشير إلى فوز جديداً حرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

(١) وهي إحدى المفريات : زاحفة طائرة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطير وغشاء للطيران يتصل بالأصبع الخامس الطويل .

وفضلاً عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت في العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة . عادت إلى استجماع البحر الذى خرجت منه أسلافها ؛ هي عظاما نهر الوز (الموسصور) وأشباه العظايا (البليصور) وعظايا البحر النذرة (الإخثيصور) . وبعض هذه يقارب في حجمه حيتاننا الراهنة ، ويلوح أن الإخثيصور كان حيواناً تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البليصور طراز من حيوان ليس له الآن ما يماثله . جسمه كان يدينا ضخماً له مجاذيف عريضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف في المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبياً فمضوبة فوق رقبة كالثعبان هائلة لانكاد تدانها رقبة البجعة . والظاهر أن البليصور كان يعم ويبحث عن الطعام تحت الماء ويغذى كما تفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هي أهم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن الميزوزوى . فهي تعتبر - بمقاييسنا البشرية - تقدماً فاق كل شيء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجماً وأوسع انتشاراً وأعظم قوة ونشاطاً ، وأحفل بالحياة (كما يقول الناس) من أى شيء شهدته العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت في البحار الضحلة أضرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الجبرذات محار مقسم إلى تجاويف معظمها حاوئى ، وهي العمونى^(١) بأنواعه ، وللعمنى أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوى . ولكن ها قد حل الآن عصر مجده . غير أنه اقترض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثل ، وأدى الكائنات شها به في الوقت الحاضر هو النوتى الأولوى^(٢) ، الذى يعيش في المياه المدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر تسلاً وأشد تكاثراً وذى قشور أخف وأرق من تلك الأغشية الشبيهة بالدرقات والشبيهة بالأسنان . التى كانت منتشرة حتى آنذاك نأصبح هو النوع السائد في البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

(١) العمونى *Ammonites* صدف حفرى منسوب للاله عمون .

(٢) النوتى الأولوى *Nautilus* صنف من الحيوانات البحرية جبل الصدف .

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الحاشدة التي كانت تفرح في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعنى الزمن لليرزوى . وبينما كانت الدناصير تسود ذلك العصر في مراعى السلفاس وسهول المستنقعات الحارة ، واليرودا اكتيل يملأ سماء الغابات برفرة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونقيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزل بعد مجردة من الزهر ، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحرز قوى خاصة وتتعلم دروساً معينة من الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذى شرعت فيه الشمس والأرض تضنان بسباحتهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهى مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ، قد أكرهتها المنافسة وتعقب الأعداء لها على المفاصلة بين أمرين : إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفى هذه القبائل التى ابتليت بالحن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنايب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنايب وأصبحت بدايات فجوة للريش . وكانت هذه القشورة الشبيهة بأنايب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافاً حافظاً للحرارة أكثر من أى غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أناحت لها أن تنزوا المناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صعب تلك التغيرات زيادة فى اهتمام هذه المخلوقات ببيضها فمن الجلى أن معظم الزواحف لاتعنى ببيضها أقل عناية ، بل تركه لتتولى قفسه الشمس والوقت المناسب ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد من شجرة الحياة أخذت تكتسب عادة حراسة بويضها والحفاظ على دئته بواسطة حرارة أجسامها .

وفضلاً عن هذه التكيفات وفق البرودة، كانت تجري تكيفات باطنية أخرى جعلت هذه الحفوفات - وهي الطيور البدائية - دفيئة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء . ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاذيف تكاد تشبه ما يوجد في طائر البطريق . (البنجوين) وإذا نظرت إلى طائر الكيوى النيوزيلندي ذلك الطير البدائي المعن في بدايته وجدت له ريشاً ذا طراز بسيط جداً ، ورأيت لا يطير ولا يبدو عليه أنه يتعذر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر في عملية تطور الطير قبل الأجنحة . ولكن ما كاد الريش يتطور ، حتى أصبح من المحتم أن يؤدي إمكان انتشاره انتشاراً خفيفاً إلى ظهور الجناح ، وإنا نعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له في فكها أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مرأه أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيرودا كيتل في الزمن الميزوزوى . ومع هذا فالطيور لم تكن المتنوعة ولا الوفيرة في الأزمنة الميزوزوية فلو تها الإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوى نموذجي ، لسا رأينا كثيرة دون أن يرى شيئاً يسمى بالطير أو يسمع له صوتاً ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كيتل والخشرات بين السيقان الورقية والقصب .

وتم شيء آخر لعل عينه لاتقنع على أى أثر له هو الثدييات . والراجع أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الصغر والضآلة والازواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد .

والثدييات الأولى - شأن الطيور الأولى - مخلوقات دفعها المنافسة والطاردة إلى تحشم حياة حافلة بالشدائد والتكيف مع البرد . وفيها أيضاً اتخذ القشر شكل قصبه الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم ألت بها أيضاً بعض تعديلات ، تمشى في نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت في التفاصيل ، وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء . فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر ، وبدلاً من حراسة بيضها واحتضانه ، كانت تحتفظ به دافئاً مصوناً باستبقائه داخل أجسامها حتى يقارب النضج . وأصبح معظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنيا حتى بعد ميلاد صغارها ظلت تخرج إلى الارتباط بها ارتباطاً يقوم على الوقاية والتغذية

وجل الثدييات اليوم ، إن لم تكن كلها ، ذات أئداء وترضع صغارها . ولا يزال هناك حيوانان ثدييان بيضان البيض وليس لهما أئداء بالمعنى الصحيح ، وإن غديا صغارها بإفراز مغذي يخرج من تحت جلدهما ، وهما البلاتيب البطي المقار والإخيدنا^(١) . والحيوان الأخير بيض يضا يشبه الجلد ، ثم يضعه في كيس أسفل بطنه ، وبذلك يحمله أينما ذهب وهو في دفاء وأمان حتى يفقس .

وكما أن الزائر للعالم الميزوزوى ربما بحث أياما وأسابيع قبل العثور على طائر ، فرما اضطر أيضاً إلى البحث عن آثار الحيوان الثديي دون جدوى ، ما لم يكن يعرف بالضبط أين يبحث عنه . ولا شك أن كلامن الطيور والثدييات كانت تبدو في العصر الميزوزوى مخلوقات غريبة الأطوار ثانوية الدرجة غير ذات أهمية .

ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثمانين مليون سنة ، فلو فرض أن كائنا أوتي ذكاء الإنسان وعقله لبث يرقب العالم طوال ذلك الأمد البعيد الذي لا يكاد يتصوره عقل ، فكيف كانت الوفرة والحيرات وضياء الشمس تلوح له عند ذلك أبدية راسخة القدم .. وكم كان ذلك الرغد الذي يترغ فيه الدينوصور وتلك الكثرة الوفيرة التي بلغت العظايا الطائرة يبدوان مطمئين إلى الأيام ! ثم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الخفية المتوارة والقوى المتجمعة في العالم تقلب ظهر المحن لذلك الاستقرار شبه الأبدى ذلك أن الحظ أخذ يدير ظهره للحياة . ففي عصر بعد عصر وفي آحاد من السنين بعد آحاد ، مع فترات من التوقف لاجرم ، وفترات من النكوص والتدهور ، أعجبه العالم صوب تغير حافل بالشدائد والتطرف ، فتبدل مستوى سطح الأرض تبديلاً عظيماً وتعدل توزيع الجبال والبحار تعديلاً شاملاً . وشاهد ذلك كله أننا نجد في سجل الصخور أثناء فترة إدار الزمن الميزوزوى الطويل الكثير الوفرة والنجاء ، شيئاً له مغزاه الواضح في التغيرات المتواصلة للظروف ، وهو حدوث تقلب عنيف في أشكال الكائنات الحية وظهور أنواع جديدة وغريبة . فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخذت تظهر إزاء الخطر المهدق بنوعها المهدد بإبادتها أقصى مالدتها من قدرة على التغير والتكيف . فقواقع الهمومى مثلاً أنتجت في هذه الصفحات الأخيرة من الزمن الميزوزوى عدداً غفيراً من الأشكال العجيبة . والظروف السقرة لا تدعو إلى مثل ذلك الاستحداث ؛ فالمستحدثات

(١) الإخيدنا Echidna ويسمى الصلول وهو حيوان من الثدييات المسلكية يسكن أستراليا

لا تتطور في ظلها ، بل تتوقف ؛ إذ أن أحسن الأنواع تكيفاً يكون موجوداً بالفعل .
فإذا وافقت ظروف جديدة فالطراز العادى هو الذى يقاسى ، والشئ المستحدث هو
الذى ربما أتيت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تيجىء فترة انقطاع فى سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات .
والواقع أن هناك متاراً مسدلاً يحجب كل شئ حتى معالم تاريخ الحياة نفسها . فإذا
ارتفع ذلك الستار ثانية إذا بعصر الزواحف قد ولى ، وإذا بالدينصور والبليصور
والإيختيصور والثيروداكسيل ، وجميع أجناس العمودى وأنواعها التى لا يحصرها عد
قد اختفت تماماً . لقد بادت جميعاً - على أضرابها الدهشة الوفرة - ولم تخلف أى أثر
بعدها . فقد قضى البرد عليها جميعاً . ولم يبق عنها شيئاً أقصى ما استحدثته بنفسها من
تغييرات لعدم كفايته ؛ فهى لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر فى دور من
المناسخ المتطرف يتجاوز قوة احتمالها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة اليزوزوية ،
وهنا نشهد أماناً منظرًا جديداً ، إذا استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأما
ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة .

وإنه لمشهد لا يزال به أثر الزمهرير والجدب ذلك الذى يفتح به هذا المجلد الجديد
من سفر الحياة . فإن الحزازيات والخروطيات^(١) الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير
أشجار تنفض أوراقها توقياً للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات
أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع مزايمة من الطيور والثدييات تستولى على تراث
كثرة عظيمة من الزواحف .

الفصل الثامن

عصر الثدييات

كان مطلع الزمن الكاينوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلا بالارتفاعات فى القشرة الأرضية والنشاط البركانى الشديد . وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والمهلايا ، كما رفعت سلاسل جبال روكى والأنديز التى يشبهونها بالعمود الفقرى ، وذلك أيضا هو الأوان الذى ظهرت فيه للعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة ، وفى ذلك الأوان أيضا تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه وتقدر المدة التى تفصل عصرنا وأوائل الزمن الكاينوزوى بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليونا من السنين .

كان مناخ العالم صارما قاسيا عند بداية الزمن الكاينوزوى ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل فى دور جديد من أدوار الوفرة والثناء الغزير ، مالبت أن تحول بعده إلى دور جديد من العصر والإحمال ؛ ومرت الأرض فى سلسلة من الدورات المفرطة البرودة ، هى العصور الجليدية التى يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات المناخية ليست فى الوقت الحاضر من الكفاية بحيث يمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات فى الأحوال المناخية التى ينجسها لنا القدر . وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضيء الشمس ، أو نتكس نحو زهمرير عصر جليدى آخر ؛ وربما كان النشاط البركانى ورفع الكتل الجبلية آخذاً فى الزيادة وربما فى التقصان ، فلسنا ندرى عن ذلك شيئا ، إذ يعوزنا القدر الكافى من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعها ، ويظهر المرعى فى العالم لأول مرة ، وبالكمال تطور النوع الثديى الذى كان مغمورا فها سلف ، يظهر عدد من

الحيوانات الشائقة الآكلة للشعب ، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط ، عن الزواحف الآكلة للشعب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بصورة ودهور ثم بادت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر اللدود الثاني من أعصر الدفء والوفرة ، الذي شرع يبدأ آنذ ، إنما كانت فقط تكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للشعب واللحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير على التيرودا كتيل وهكذا . على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهى ولا يقف عند حد ، فهو يتقدم تقدماً أبدياً ، والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً ، وليس هناك أية متماثلات تطابق صورها بالضبط تماماً . والفروق بين صورتى الحياة في الزمن الميزوزوى وشقيقه الكاينوزوى أعمق كثيراً من أوجه التشابه .

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للثنتين . وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد ، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف ، والرواحف - باستثناء القليل النادر منها - ترك يضها بنفس وحده . فالزاحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة ، وحياته العقلية - كما هو الواقع - تبدأ وتنتهى بخبراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أى اتصال ، وهو لا يقلدها أبداً ، ولا يتعلم منها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأى جهد مشترك معها . لحياته حياة فرد منعزل . ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلها - وهما من مميزات السلالتين الجديديتين ، الثدييات والطيور - حالة جديدة هي إمكان التعلم بالحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأعمال الجمعية ، والهيمنة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

والبح عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوى لا يفوق في الحجم إلا قليلاً من الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كلما قلنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث . وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ الخي^(١) في كل قبيل وسلالة من

(١) سعة الفراغ هي حجم اللع ومدى اتساع المجموعة من الداخل .

سلالات الحيوانات الثديية . مثال ذلك ، أننا نلاحظ في مرحلة مبكرة نسيان وجود وحوش تشبه الكركدن . فإننا نجد في أبكر عهود تلك الفترة مخلوقا هو التيناوثيروم ؟ الراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن العصري في عاداته وحاجاته ، ولكن فراغ مخه لم يصل إلى عشر ما خلفه الحي .

ويحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفرق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار والكبار عظيمة جدا ، لذا لانبث أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان ورعلان وهي تلتصق بعضها بعضاً ، وتقلد بعضها بعضاً وتلقى التعذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسماك قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مرد ذلك أنها فقست بكميات وعملت الظروف للمتشابهة على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدعمه دافع داخلي وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدفة في نفس الأماكن في نفس الأوقات . بل هي تحب بعضها بعضاً ولذلك فهي تتواجد معاً .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لانستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . ولنا بمسطين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ؛ فدوافعنا موازنات وتناجج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تصف بكبح للنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، وتجاوب اجتماعي : أي ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته فإنه شبيه بما نحن عليه . ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشئ العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأتت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلة أليفة نفهمنا ونعزينا ونعزها . وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تستأنس وتعلم .

إن ذلك النمو غير الاعتيادى للفخ ، الذى هو أهم حقائق الزمن الكاينوزوى يسجل وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتاد بعضهم على بعض . كما أنه البشر الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذى سنحدثك به من قورنا .

وكما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن الكاينوزوى تزايدت درجة الشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الوينتاثيرات (Uintatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت ؛ وهى وحوش ضخمة قبيحة ليس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشعة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجملة وحصانه وفيلته وطيائه وكلابه وأسوده وبيوره^(١) . أما الحصان فنشوء وتطوره نقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص فى صفحات السجل الجيولوجى . فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ فى بكور الزمن الكاينوزوى بسلف صغير يشبه التاير^(٢) . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها فى شيء من الضبط ، هى سلسلة اللاما والجلل .

(١) البير وجهه البور Tiger : ضرب من الأسد مخطط وليس هو النمر كما نسميه العامة
(٢) التاير Tapir أحد الثدييات آكلة الشب يشبه الفخير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية
وجزائر الهند الشرقية .

الفصل التاسع

القروء والقردة العليا^(١) وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويعملون على رأس هذه رتب الثدييات العليا التي تحتوى على الليمور والقروء والقردة العليا والإنسان . والأصل فى ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأى صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا فى السجل الجيولوجى . ذلك أنها فى الغالب حيوانات تقطن الغابة كالليمور (المبار) أو القردة التي تقيم فى الأماكن الصخرية الجرداء كالبايون (الرياح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولكننا نعلم أنه حدث فى عهد مبكر من الزمن الكينوزوى ، أى منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى ، وكانت أصغر حجماً وأدنى تخصصاً من أخلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمى العظيم الذى ساد الدنيا فى الزمن الكينوزوى الأوسط . وكان مصيره مصير الصيفين العظيمين الآخرين فى تاريخ الحياة : صيف مستنقعات الفحم ، والصيف الهائل الذى هو عصر الزواحف ، وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدى . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تتلج مرة ثانية وكانت أفراس البحر ترتفع فى الماضى الدفء بين نباتات غضة شبه مدارية ، وكان بير هائل له ناب مثل السيف هو الير المسيف ، يتصيد فرائسه فى المنطقة التي يذرعها

(١) القردة العليا هي أرقى أنواع القروء التي تتبع الإنسان ولا ذيل لها أو تكاد .

الصعفيون اليوم ذهاباً وجيئة في شارع فليت بلندن^(١) . ثم جاء عصر مكفر قارس فعصور أشد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غزبة^(٢) كثير من الأنواع وإبادة كثير غيرها ، وظهر في المشهد خرتيت صوفي مكيف للمناخ البارد ، كما ظهر الماموث وهو ابن عم ضخمة لفقيل ذو صوف غزير ، وظهر ثور للسك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبح الموت الثلجي في العصر الجليدي زحف نحو الجنوب قرناً بعد قرن فامتد في إنجلترا حتى داني منطقة التاميز ، ووصل في أمريكا إلى نهر الأهيو : ثم جاءت آماد أكثر دفئاً ذرعها بضع آلاف من السنين ، ولكن أعقبتها ارتكاسات نحو البرد للرر .

وبطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدي الأول والثاني والثالث والرابع . كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور « بين الجليدية » ... ونحن إنما نعيش اليوم في عالم لا يزال يئن من آثار الجذب والجراح التي خلفها ذلك الشتاء الرهيب . والعصر الجليدي الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة ؛ على حين بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى زمهريره الررر منذ خمسين ألف سنة تقريباً . وفي هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن الكاينوزوي الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ، ذات خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق ، ولكننا لانعثر على أية آثار للخلوقات نستطيع أن نعتها بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر المتقنون في أوروبا ، في رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام ، على ظرائن وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذي مهارة يدوية يريد أن يطرُق أو ينحُدش أو يقاتل بالحد المشعوز .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eoliths) . وليس في .

(١) هوحى الصحافة بالماصمة البريطانية .

(٢) الغزبة : التنقية وإزالة ما لا خير فيه .

أوربا أية عظام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذى صنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب . ومهما يكن قدر ما نخالجه من يقين أو شك فى شأنه ، فلهذه لم يكن إلا قروداً غير إنسانى تماماً ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل Trinit » بجزيرة جاوة ، وبين ركام يعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء غنى^(١) أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا المخلوق الآن بسم الإنسان القردى للتصنيف القامة (*Pithecanthropus erectus*) ، كما أن هذا للقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيالنا من المون حتى الآن فى تصويره لصنع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لا تثر بعد ذلك فى السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما تبلغ رمالاً يقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا فى مطالعة صفحات السجل . فهى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هى أدوات حسنة للنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قيحة الصورة ، مجردة من اللقن تجزئاً تاماً ، وهى أقدم كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حقاً ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجع منه أن لسان صاحبها لم يكن يستطيع أن يتحرك فى فيه بالطرق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وخشاً ضيقاً كالإنسان تقريباً ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى بسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أحد الأشياء استثارة لرغبتنا فى الاستطلاع . وكأنى بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة معيكة ، والحصول بواسطتها

(١) القوام الخفى (Brain Case) هو الجمجمة ، ويسمى فى علم الأحياء بالقفص ، ويسمى أنساعها من الداخل بالقفص الخفى .

على لمحة واحدة منقشة محيرة لتلك المخلوق ، وهو يدلف متاقلاً خلال البرية الباردة للوحشة ، ويتسلق للارتفاعات ليتجنب البير السيف ، ويرقب الكركدن الصوفى فى القابات . وإذا بالوحش يحتفى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نحصه . ومع ذلك فإن تربة الأرض مملوءة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلل التى نحتتها لينتفع بها .

وثمة بقايا أخرى أعدت فنتة وغموضاً ، وجدت فى « بلنداون » بمقاطعة ساسكس فى طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفاً من السنين ، وإن جنح بعض الثقة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيراً من جمجمة أية قردة عليها موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، ربما كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل المضرب ، تتجلى فيها العناية فى الصنع ، وقد ثقب فيها ثقب واضح لاشك فيه . وهناك أيضاً عظمة غذا الغزال عليها قطوع وحزوز كالتى توجد على قائم العد^(١) . ثم لا شئ بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذى كان يجلس ويثقب العظام ؟ ١ ؟

لقد سماه رجال العلم باسم إنسان الفجر (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن ذوى قرابه ، فهو مخلوق مختلف جداً عن المخلوق الهيدلبرجى ، وعن أى قرد راق آخر يعيش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحساب والرواسب التى انقضت عليها مئة ألف سنة فصاعداً تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلات الطيران وما شابهه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات جبرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار (الأركيولوجيون) أن يتبينوا فيها : المكاشط والمخاريز ، والساكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية .

(١) قائم المد أو عصا الحساب : Tally ، قطعة من الخشب تخدم فيها خدوش للدلالة على الأرقام .

فنحن إنما ندنو كثيرا من الإنسان . وسنصف لك في الفصل التالى أعجب هذه الأنواع المؤذنة بظهور البشر ، وهم التياندرتاليون ، القوم الذين كانوا تقريرا - وليسوا تماما - أناسا حقيقيين .

ولكن لعل من الخير أن نذكر هنا بمنتهى الوضوح ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هذين المخلوقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان الفجر ، هو السلف المباشر للإنسان العصري ، وإنما هما - مهما دنت قرابتهما - أشكال تمت إليه بالتقريب .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالي والروديسي

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه ، مخلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكية ضخمة من الآلات الكبيرة التي كان يصنعها ويستخدمها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلتجئ إلى الكهوف أثناء البرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزاً خشناً ثم يرتديها . كان يسرا يستعمل عظامه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تسكن من الإنسان الحق في شيء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك ثقيلة بارزة وجباه منخفضة جدا وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إبهامهم مما يتقابل والأصابع كإبهام الإنسان ، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن ينفخوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولطهم كانوا يمشون في استرخاء ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل منتعنة إلى الأمام . وعظام فكاكهم العديدة الدقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تخالف فكاك الإنسان عخالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأسنان البشرية بون جيد . فإن أضراسهم أشد تعقيدا من أضراسنا ومن عجب أنها أشد تعقيدا من أسناننا وليست تدونها في التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسنان الطويلة التي لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشباه الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التي للكائن الإنساني العادي . على أن سعة جماجمهم إنسانية تماما ، ولكن للتح أ كبر في المؤخرة وأخفض في القدم من للتح الإنساني . وكان لقدراتهم وملكاتهم العقلية ترتيب آخر مغاير . فهم ليسوا أسلافا للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأرومة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجسدية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال وبضع

اماكن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس الصيغ من الإنسان الأول اسم إنسان نياندرتال ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلاف من السنين .

وفي ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جدا عما هما عليه في الزمن الحاضر . فكانت أوروبا مثلا مغطاة بجليد يمتد جنوبا حتى نهر التاميز ، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزى (بحر اللانش) يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما احتوت أجزاءهما الأكثر انخفضاً على مجموعة من البحيرات كما أن بحرا داخليا عظيما كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر الروسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل ما لا يخطيه الجليد فضلا من أجزاء أوروبا - تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مناخها أشد قسوة من مناخ ليرادور ، ولم يكن الإنسان ليجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقية الشمالية .

وكانت تنتقل عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية بما حوت من نبات قطبي متناثر ، مخلوقات شديدة العمل للبرد من أمثال اللاموث الصوفى والحريث الصوفى والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مراء تتغلب النبات نحو الشمال في الربيع ونحو الجنوب في الخريف .

ذلك هو للشهد الذى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرانيه ، متلقفاً من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتياً في معظم أمره يعض الصاليج والجذور . ذلك أن أسنانه السطحة المحسكة توحي بغذاء يظلب فيه النبات . ولكنها ترى في كهوفه أيضاً عظاما نخاعية طويلة لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن البديهي أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدوى في القتال مع الوحوش الضخمة وجهاً لوجه ، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراش عند العابر الصعبة للأشجار ، بل حتى يحفر لها الحفائر ليوقها . ويحتمل أنه كان يتغلب القطعان ويفترس أى فرد منها يموت في القتال، ولعله قام بدور ابن آوى إزاء البهر المسيف الذى كان لا يزال حياً في أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح في أثناء محن العصر الجليدى وشدائده المريرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات .

ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالى . وأكبر الظن أنه كان غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقاً . بل إننا لفي شك من أنه كان يسير منتصب القامة . ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لمحل جسمه . والراجح أنه كان يضرب في الأرض بمفرده أو في جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فكك على عدم قدرته على الكلام بالصورة التي تفهمها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ما شهدت القارة الأوربية من حيوان ؟ ثم حدث منذ حوالي ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلاً أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تمت إليهم بالقربى ، ولكنه أكثر ذكاءً وأوسع معرفة ، ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض - فطردوا الجنس النياندرتالى من كهوفه ومستجمعاته ، وصيدوا نفس الطعام الذي كان يأكله ، ولعلمهم قد قاتلوا سابقهم هؤلاء البشعير وأعملوا فيهم القناء . هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم في الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس دمنا وجنسنا ، وهم الإنسان الأول الحق . وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أعماخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم هي من الناحية التشريحية نفس ما لدينا . وقد عثر الباحثون في كهف عند كرومانيون وفي آخر قرب جرمالدى على عدد من الهياكل العظيمة ، هي أقدم ما نعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جلسنا في سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية .

في تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بعالمنا وإن بقي المناخ شديداً قاسياً . وقد أخذت ثلاثات العصر الجليدى في التراجع بأوروبا ؛ وسرعان ما أخلت غزلان الرنة بفرنسا وإسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الحیول كلما تكاثرت الكلاب على السهوب ، وأخذ اللاموت يزداد ندرة في جنوب أوروبا حتى تراجع في النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقاً . .

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقي أولاً ، ولكن حدث في صيف ١٩٣١ ، أن اكتشفت جمجمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمى قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية ، جمجمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان ، وسط في خواصه المميزة



(خريطة رقم ١)

بين النياندرتالى والكائن الإنسانى الحق ، ويدل الوعاء الحى على أن عنه أكبر فى القدم وأصغر فى اللؤخرة من مخ النياندرتالى ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقرى على شاكلة إنسانية تماماً . وكذلك الأسنان والعظام فلها إنسانية بحتة ، أما الوجه فالراجع أنه كان شبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة . أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الرودىس أوثق شياً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالى .

والراجع أن هذه الجمجمة الرودىسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكتشفات قد تكون منها فى النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض فى الفترة الزمنية الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدى وبين ظهور الإنسان الحق ورثها جميعاً ، ولعله أيضاً ميدها جميعاً ، وربما لم تكن الجمجمة الرودىسية نفسها مفرطة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسانى يعيش فى إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جداً .

الفصل الحادى عشر

الإنسان الحقيقى الأول

إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لا يتطرق الشك إلى قرباتهم لدوات أنفسنا، عثر عليه فى أوروبا الغربية وخاصة فرنسا وإسبانيا. فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور، ترجع قبا يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر. وإسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين.

ومن البديهي أن مالدنيا فى الوقت الحاضر من مجموعت من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى يتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من النقيين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ؛ ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيفحصونها فى شئ من التفصيل . فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم ييسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب بهم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتداد ، وعلى ذلك يبنى لنا أن نحرص الحرس كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول اختزلت به أوروبا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة .

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها اليوم البحر ، على روائس تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عدداً وأقدم عهداً من أى شئ عثر عليه حتى يومنا هذا . إن أنسلكم عن آسيا وإفريقيا . ولا أذكر أمريكا ، إذ لم يثر فيها - عدا سن واحدة - على أى شئ يعود إلى الحيوانات العليا ، سواء أكانت من القرود العليا أو أشباه الإنسان أو النياندرتالين ، أو الإنسان الأول الحقيقى . ذلك أن هذا التطور الذى تتلوه الحياة ، يلوح أنه شئ اقتصر أمره على العالم القديم وحده تقريباً ، والظاهر أن مكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضى الذى يمتدّ الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجري القديم .

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التى نعرفها فى أوربا ، كانت تنسب بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماماً أحدهما عن الآخر . وكان أحد هذين العنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير اللخ . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها الخي فراغ مخ الرجل المتوسط فى هذه الأيام . كما أن أحد هياكل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولاً . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سمى هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون الذى وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق .

فأما العنصر الثانى الذى عثر على بقاياه فى غار جرمالدى ، فكان عنصراً ذا قسما شبة زنجية (نيجريدية)^(١) لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بحضوب إفريقيا . ولعله مما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلاً منذ ابتداء قصة الإنسان المعروفة إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؛ وقد يجمع الرء منا إلى أن يفترض بغير أساس علمى أن العنصر الأول كان على الأرجح أسمر أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثانى كان أميل إلى السواد منه إلى السمر ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة ببلغ من اتصافهم بالسبات البشرية أنهم كانوا يشقون الودع ليصنعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون التماثيل من الحجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف للنساء ، وعلى سطوح الصخور التى تعجبهم رسوماً للحيوان وما شابهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تتم فى الغالب على مقدرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعاً كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنفاً مما كان للرجل

(١) التجريدى Negroid هو العنصر الذى يشابه الزنوج فى الشكل والقسما وإن لم يكن زنجياً بحتاً . (الترجم)

النياندر تالى. وبمناخنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وتماميهم الصغيرة ، وما خلفوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء التوحشين صيادين ، أهم ما يتصيدونه الحصان البرى ، وهو السيسى الصغير اللتعى الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتقبوناه فى مسيره وراء المرعى وكذلك كانوا يتقبون الجاموس البرى « البيزون » . وقد عرفوا الماموث ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لذلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقعونه فى الجبال ويقتولونه .

وكانوا يصطادون بالعرا بالثقف بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنما لى شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان كآنى بهما يمثلان حصاناً ملجأ ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الخيول الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلاً ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . وما نشك فيه ولا نرجحه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لا وجود له البتة . وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئاً ، ولا شيئاً عن أى نوع من أنواع صنع السلال أو القماش المنسوج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء ، لجاز لنا أن نقول إنهم من التوحشين العراة المنقوشى البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوروبا للنبسطة دهرًا لعله مائة قرن ، ثم أخذت تضررات المناخ تفعل فيهم فعلها وتبدل من أحوالهم . فإن مناخ أوروبا أخذ يتحول قرناً بعد قرن ، ويصبح أكثر اعتدالاً ومطراً فراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وحلت الغابات محل السهوب ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها تثير صعب هذا التغير فى استعمالها ، وبات الصيد من الأنهار

والبعيرات ذا أهمية كبرى للإنسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة . يقول دى مورتليه : « إن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيراً من التأخرة عنها في الزمن ، حتى ما كان منها في الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلاً إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب أسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جداً ، رسمها على سطوح الصخور المكشوفة . هذا الشعب هو الأزيلون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Masd' Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرسمون رسوما مشرقة ، ولصكهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية - فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أقصيين أو ثلاثة - وفي ذلك ما فيه من تلويح بيزوغ فكرة الكتابة . وكثيراً ما نجد بإزاء رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالتي على قلمم العد ، وثم رسم يمثل رجلين يطردان النحل من خليته بالدخان .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم بالبايوليثيين أهل العصر الحجري القديم لمجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ في أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثني عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لا أن يصنع الآلات الحجرية فحسب بل أن يصقلها ويشحذها ، كما أنه شرع في الزراعة ، وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليثي) .

وقد يشوق القارئ أن يعلم أنه كان هناك منذ أقل من قرن مضى في صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تسبانيا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجنائي والعقلي أخفض من أى من هذه الأجناس البشرية الأولى التي تركت آثارها في أوروبا . لقد قطع هذا الشعب التسباني عن بقية الجنس البشرى منذ آماد طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوامل التنبيه والتحسن . ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا وارتقوا وعندما اكتشفهم السكتشفون الأوربيون ، وجدوهم يعيشون عيشاً خفيضاً متذنين بالمحار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل متعجات ، ولا شك أنهم رجال حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تعوزهم المهارة البدوية واللواهب الفنية التي كان الإنسان الحق الأول يتعلل بها .

الفصل الثاني عشر

الفكر البدائي

لنطلق الآن لأفكارنا الضال لتجول في عالم الخيال بضع جولات ممتعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للفاخرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيهم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سفلت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؛ تلك أيام تسبق زمن مديد كل سجل مكتوب بدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، قد لا ليس أماننا الآن من سيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرها في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلي البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، متنوعة جداً . ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد أتى قدراً عظيماً من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكف المواقف الأنانية والعاطفية في الطفل . أو تعديل أو تغطية بأشياء أخرى ، حتى يتيسر تكيفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية^(١) ؛ وثمة مصدر آخر للاستنتاج داني القطوف ، هو دراسة أفكار وعادات التوحشين القديين لايزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التحفر^(٢) والجمود العقلي نجده في الفولكلور (الأدب الشعبي) وفي الحزبيلات والتحيزات غير للعقولة العميقة الرسوخ في النفوس والتي لازال موجودة بين الشعوب العصرية للتمدنة . ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها مما يكثر عدداً ويزيد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً له وجديراً بالتسجيل والتخيل .

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب : « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة للترجيبي شئت تفصيلاً لنظريات التحليل النفسي .

(٢) التحفر : تمحور الفنى إلى حفرة من الحفريات . وهو هنا بمعنى مجازي هو التبحر والتجبر العقل وبقاء التدرج على قدمه (للترجم) .

والراجع أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيرا طريقة تفكير الأطفال أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات . فكان يستدعى إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء أو كانت الصور العقلية^(١) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسباً تلميه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيـلة . وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير النظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة آلاف سنة الأخيرة . بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقاً في هذه الأيام نفسها وينظمونها فعلاً ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم مظاهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة . وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضي أن تقيد بصورة ما انانيات الفرد البدائية . وكان لابد من بسط فكرتي « الخوف من الأب واحترام الأم » حتى تنفخلاً في حياة الكبار ، وكانت لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعي والحامي الفطري للصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين الفريزة اللعبة التي تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون - وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك عالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتي عبقرية عظيمة هو « ج. ب. أتكينسون » راح في كتابه « القانون البدائي » ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون العرفي لدى المتوحشين - (وهو تلك تلك المحظورات « Tabue » التي هي حقيقة بارزة في الحياة القبلية) - إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان البشري البدائي وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور . وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة . ومن الكتاب الميالين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام

الرجل العجوز والخوف منه ، والاتصال العاطفي الذي يحسه للتوحش البدائي إزاء العجائز المسنات اللواتي يتولين حمايته ، (وهي وجدانات زديدها الأحلام شدة ، ويضعفها عبث الأوهام والأخيلة) كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والربات . وما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقاً وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلاً وهمياً إلى متناى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه أكثر إشراقاً وواقعية من أحلام الراشد المصري ، وما كان الرجل البدائي دائماً إلا طفلاً في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي لهوكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صفره طفلاً واسع الخيال ليدرك من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الكندل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منفذة بالثبور أو مظهر للعودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولاً ومصداقاً عندما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتذكر وتعاد روايته ، وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد ، ولا يزال معظم واسع الخيال من الأطفال يحترعون إلى يومنا هذا قصصاً طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالي شبه إنساني ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك - مع اختصاصه بميل أقوى كثيراً إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن آدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثنائية تماماً . وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن النياندرتاليين ويمتازون عليهم فالنياندرتالي ربما كان حيواناً أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يرد بداهة عن مجموعة ضئيلة جداً من الأسماء ، وربما كان يصدر مقتضباً مصحوباً بالحركات والإرشادات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلّة والعامل ، ولكن الرجل البدائي لم يكن قادراً في ربطه السبب بالنتيجة ؛ فما أسهل ما كان يربط نتيجة بشيء بعيد تماماً عن سببها . كأن يقول : « أنت تفعل كذا وكذا

فيحدث كيت وكيت . فأتت حطى ثمرة لأحد الأطفال فيموت . وأنت تأكل قلب
هو منور فتصبح قويا . هذان مثالان للربط بين السبب والنتيجة ، وأحدهما حقيق
والثاني باطل . ونحن نسمى طريقة ربط الله بالمولود في عقل التوحشين باسم
النتيجة^(١) ولكن النتيجة إنما هي فقط علم التوحشين وهي تختلف عن العلم العصري
في كونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التقييس ، فهي لذلك خاطئة في
الأهم الأقطب .

ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالأثر ، بينما حدث في
أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صحت على الفور الفكريات الخاطئة ، ولكن هناك
مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظمى للرجل البدائي ، كان يلتمس فيها الأسباب
بإصرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية
ولا من الفوضوح بحيث يستطيع استنتاجه . ولشد ما كان يهمه أن يكون الصيد وفيرا
والسمك كثيرا سهل الصيد ، ولا شك أنه طالما جرب آلافا من التعاويذ والرقى والنذور
وآمن بها ليحصل على هذه النتائج المرغوبة ، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت .
وكثيرا ما كانت العدوى تنتشر ، ويموت الناس بها أو تضف أجسامهم دون سبب ظاهر .
فهذا الأمر أيضا لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي التسرع الاعتقالي كثيرا من
الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التخيلات الخيالية تجعله يلوم هذا الرجل أو
الحيوان أو الشيء أو يلتمس منهم المعونة . كانت لديه قابلية الطفل للخوف والذعر .

ولابد أنه حدث في زمن مبكر جدا من تاريخ القصة الإنسانية الصغيرة ، أن القول
الأكبر سنا والأثبت جنانا ، والتي كانت تسهم في المخاوف وتسهم في التخيلات ، ولكنها
أقوى قليلا من القول الآخر ، قد تصدرت الفصح ووصف الوصفات وإصدار الأوامر .
فراحوا يصرحون أن هذا أمر مستقيم وذلك شيء محتموم ، وأن هذا بشر بخير وذلك
نذير بشر . وكان الخير بالنتيجة ، وأخفى به الطيب الساحر هو الكاهن الأول وهو
الذي يقدم الناصح وغير الأحلام ، ويحذر ويقوم بالتحريم الجوفاء التي تجلب الحظ
وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن بلمس الهيمنة من حيث هي
طهرس وشمار ، كما أن الكاهن الأول كان على علم الناس بالحقائق العلمية على تحكي

(١) النتيجة وهي اعتقاد التوحش أن كل شيء على نسكه روح تقوم تلك التي
بالنفس . (التحريم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لا يزال علمنا ببدايات الزراعة والاستقرار في العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل في هذا السبيل إبان الحسين عاماً الأخيرة شئ. كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل مايسعنا قوله في شئ من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثني عشر ألفاً ، بينما الشعب الأزيلى يقطن في جنوب أسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تنتقل شمالاً وشرقاً ، أن كان هناك في مكان ما بشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي المتوسط الكبير الذى تغمره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا عصرآ بعد عصر يستكشفون ويتعلمون شيئين هامين أهمية حيوية كبرى : ذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخذوا يستأنسون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضاً يصنعون أدوات من الحجر المصقول بالإضافة إلى الآلات النحوتة التى ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والنسوجات الخشنة النسيج المنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون غاراً بدائى الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ،هى العصر الحجري الحديث (النيوليثى) تميزا له من العصر الحجري القديم (الباليوليثى) عصر الكرومانيين والشعب الجربىم الذى والأزيليين ومن إليهم^(١) ومالبت هذا الشعب شعب العصر الحجري الحديث أن انتشر رويدا رويدا في أصقاع العالم الأكثر دفئا كما أن الفنون التى حذقها ، والنباتات والحيوانات التى تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتقليد ، ولكن بصورة تكاد تفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافت

(١) ربما لاحظنا أن كلمة «باليوليثى» تطلق على الآلات النياندرتالية بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths . ويسمى عصر ما قبل الإنسان «الحجرى القديم الأول» أما عصر الإنسان الحق الذى استعمل أحجاراً غير صقيلة فهو «الحجرى القديم الثانى» .

سنة ١٠٠٠ ق . م . كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجري الحديث .

وعملات حرث الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، ربما بدت للعقل العصري خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء ، وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر؟ .. ولكن الرجل البدائي الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية ، واضحة لديه على الإطلاق . لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافذة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تفصيلات حيالية غريبة لازوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفظة . كان القمح ينمو برىا فى مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؟ وربما تعلم الإنسان كيف يدق حبوبه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يذرهما بزمن مديد فكأنه جنى قبل أن يذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقاً أنه مامن صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تقب آثار ارتباط بدائى قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شيء . ولا مراء أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشئتين تستهوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارئ الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروساً دراسة وافية فى ذلك السفر الخالد الموسوم بالفن الذهبى « Golden Bough » الذى ألفه السير ج . ج . فريرز . ويحمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائى الطفولى الحالم صانع الأساطير ، ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاحتجاج المنطقى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثني عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من السنين خلت ، أنه كملادارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجري الحديث حلت معه تضحية بشرية . ولم تكن التضحية بأى شخص خسيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة متقاة ، وإذ كان فى الأغلب الأعم شاباً يامل معاملة تنطوى على الإجلال العميق ، بل حتى علم

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يعد ضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل قتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال المسنون العارفون ، ويقرها عرف المصور الموروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيرة في تحديد أنسب اللحظات للبذر والقربان في موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شيء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التي يذكرها « الآباء » في العهد القديم إنما هي أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلي تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمرياً لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمري باقياً إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حقاً من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه في الموعد السنوي الصحيح بل في مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك في أن أحداً من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم . والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعها في تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسرح أحد النجوم الكبيرة جنوباً أو شمالاً ، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطورة ومعبوداً أمراً لا يحصى منه تقريباً عند الرحل البدائي .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبلغ الأهمية التي بلغها في بكور أيام العالم الحجري الحديث ، رجل المعرفة والحبرة ، الرجل الذي كان يعلم علم قربان الدم والنجوم

أما الخوف من النجس والتدنس ، والطرق المستصوبة الموصوفة للتطهر ، فحدث عنها ولا حرج ، كمصدر آخر من مصادر القوة لدوى العلم العزيز من الرجال والنساء . وذلك لأن الأمر لم يخل أبداً من ساحرات عدا السحرة ، ومن كاهنات فضلا عن الكهنة .

والكاهن الأول ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي .
فعله على الجملة تجريبي ، كما أنه في الأغلب من صنف رديء ؛ وكان يحتفظ به
سرامصوناً ، ويغار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر ،
وهو أن وظيفته الأولى هي « المعرفة » وأن استخدامها الأساسي لديه كان
استخداماً عملياً .

ومنذ اثني عشر ألفاً أو خمسة عشر ألفاً من السنين ، وفي جميع أجزاء العالم القديم
الدثية والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التي تعيش عيش
العصر الحجري الحديث في الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهان والكاهنات
وتقاليدهم ، وبما لها من حقول مزروعة ، وما حصلت من تطور في القرى والمدن
الصغيرة للسورة . وترادفت العصور عصراً بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار
وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سميث وريفرز اسم « الثقافة الهلويليثة » (الشمسية الحجرية)
على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هليوليث » هذا خير
مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة ، غير أننا مضطرون إلى استعماله حتى يوافينا رجال
العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التي نشأت في مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية ،
ظلت تنتشر عصراً بعد عصر ، متجهة شرقاً ومنتقلة من جزيرة إلى جزيرة
عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل . وامتزجت بطرائق العيش
الشديدة الأبدائية لدى المهاجرين شبه القبول (Mongoloids) المتعدين إليها
من الشمال .

وحينما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجري الشمسى (الهلويليثة) ،
أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والعادات الغربية . ومنها أفكارات يلغ
من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحي العقلية . فهم كانوا يقيمون
الأهرام والربى الضخمة ، وينشئون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ، ولعل الغرض
منها كان تسهيل الرصد الفلكى الذى ينهض به الكهان ؛ وعرفوا التصنيط ، واتخذوا
الرميات فحفظوا بعض موتاهم أو جميعهم ، واستعملوا الوشم والختان ، وكانت لديهم
العادة القديمة السمة بالنفاس الزائف ، التي يعقضاها يرسلون الوالد إلى الفراش

ويأزمونه بالراحة إذا ولد له طفل ، كما كانوا يتخفون من الصليب المقوف الدائم
الصيت رمزاً للعظ .

فلذا نحن أنشأنا خريطة للعالم ورسمنا عليها نقاطين إلى أى مدى تركت هذه
العادات المجتمعة آثارها ، وجب علينا أن ننشئ نطاقاً يمتد بإزاء سواحل العالم بالمناطق
المتدلة وشبه الدائرية . يمتد من ستون هنج وأسبانيا عبر العالم حتى يبلغ المكسيك
وييرو . ولكن شيئاً من هذه النقط لن يمر بأفريقيا جنوب خط الاستواء ولا بالقسم
الشمالي من أوروبا الوسطى ولا شمال آسيا ؛ فهناك كانت تعيش أجناس بشرية تتطور
في اتجاه آخر مستقل عن هذا تقريبا .

افصل الرابع عشر

حضارات العصر الحجري الحديث البدائية

كانت جغرافية العالم حوالى عام ١٠٠٠٠ ق . م . شديدة الشبه فى معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم . ومن المحتمل أن الحاجز العظيم ، الذى كان يمتد عبر مضيق جبل طارق ، والذى ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادى البحر المتوسط ، كان قد تآكل وتصدع فى ذلك الوقت ، وأن البحر المتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية . أما بحر قزوين فلعله كان حينذاك لا يزال أوسع كثيراً مما هو عليه الآن ، وربما كان متصلاً بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز . ومن حول هذا البحر الآسيوى الداخلى الكبير ، كانت الأراضى التى هى الآن سهوب وصعاري جرداء ، خصبة عند ذلك وقابلة للسكنى . فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال عالمًا أكثر مطراً وأشدّ خصبا . كما أن روسيا الأوربية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هى عليه الآن ، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بهرنج .

ولابد أن الأقسام الرئيسية للأجناس البشرية على ما نعهدها اليوم ، وكانت قد فصلت آنذ وأصبح من الممكن تمييزها . وانتشرت فى طول الناطق الدفيئة المعتدلة وعرضها وعلى سواحلها فى ذلك العالم الأكثر دفئا والأكثر غابات فى تلك الأيام الحالية ، شعوب الثقافة الحجرية الشمسية (الهللولثية) السمر البشرية ، أسلاف الغالية العظمى من السكان الحاليين لعالم البحر المتوسط ، أى أجداد البربر والمصريين وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا .

وبديهى أن هذا الجنس الكبير كان ينطوى على عدد من الأنواع . وما الجنس الأيبيرى أى جنس البحر المتوسط أى « الأبيض القاتم » النازل على سواحل المحيط الأطلسى والبحر المتوسط ، وما الشعوب الحامية التى تنطوى على البربر والمصريين ، وما الدرافيديون (سكان الهند الأقدم لونا) ، وعدد من شعوب الهند الشرقية ،

وكثير من لأجناس البولينية^(١) وشعب اللاوورى ، إلا أقسام تفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية . وأنواعها الغريبة أشد يابسا من الشرقية . على أن جيلا من الناس يدعوه الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردى ، ويقع في غابات أوروبا الوسطى والغربية ، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يشعب بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمرات .

ونمة تفريع آخر كان يحدث في أقاليم آسيا الشمالية الشرقية للنبسطة الأكثر راحاً انفصل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمرات واتجه إلى تكوين طراز لنفسه عيون أكثر انحرافاً ، وعظام وجناته ناعمة ، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب المغولية . وبقيت في جنوب إفريقيا وأستراليا وفي جزائر مدارية كثيرة بمجنوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه الزنجي (النيجريدى) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفعل منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الملونة التي تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعاً أن تكون خليطاً من شعوب الشمال السمرات ومن طبقه أساسية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعاً أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية ، وأنها تفرق وتمتزج ، ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب في السماء . والأجناس البشرية لا تفرع كالشجر فروعاً لا تلتقى بعد ذلك أبداً . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أمر ينبغي ألا يغيب عن بالنا ألبتة ، فإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية . والناس ينجحون إلى استعمال كلمة مثل « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنه ، ويننون عليها أشد أنواع التعليقات مخالفة للعقل والمنطق . هم يتحدثون عن جنس « بريطاني » أو عن جنس « أوربي » : ولكن الأمم الأوربية كلها تقريباً خلاط مضطربة من عناصر سمرات وأخرى بيضاء قاعة وبيضاء ومغولية .

وكانت حقبة التطور الإنسانى السامية بالعصر الحجري الحديث (النيوليث) هي التي

(١) بوليتزيا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادى الجنوبي حول خط طول ١٨٠ وأشهرها هواى وفيجى وساموا .

اتخذت فيها شعوب من الجنس القولى طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بهرنج ثم انتشروا جنوباً فوجدوا في الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكي ، وفي الجنوب أسراباً كبيرة من الجاموس البرى (البيزون) . فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعيش بها حيوان الجليستودون وهو نوع ضخم من الأرمادلو ، والبيجاثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف^(١) يشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثانى وكان عاجزاً قليل الحيلة على ضحاوته .

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البتة عن مستوى حياة الصيد الرحلية للعصر الحجري الحديث ، فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً ، وكان رأس مافى حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم . أما السكيسك ويوقطان وييرو ، فكانت ظروفها توائم الزراعة المستقرة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق م . مدنات شائعة جداً ، تناظر مدنات العالم القديم وإن خالفتها في الطراز . ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت - شأن الحضارة البدائية الأقدم منها كثيراً في العالم القديم - تطوراً عظيماً في الفرائين البشرية يتصل بعمليات موسم الذار والحصاد ؛ ولكن على حين أن هذه الفكرات الأساسية قد لظفت في النهاية بالعالم القديم كما سئى وتعدت ثم غطت عليها فكريات أخرى ، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة . وبديهي أن هذه الأقطار الأمريكية للنهضة كانت بالضرورة أقطاراً متدنية يحكمها الكهنه ؛ وأن قاذتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشريعة والتطير . . .

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فمقرتهم بالسنين وحسابها كانت خيراً من معرفة البابليين الذين ساعدت عنهم من فورنا . وكان لهم في يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة المايا Maya ، وهى من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأشدها إحكاماً . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزه أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم المضبوطة للمعدة التى كان الكهنه يبدون فيها ذكاهم . وبلغ الفن في حضارة الملايا ذروة مجده حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق م .

(١) الرسيف Sloth : أحد أنواع كثيرة من الثدييات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة يوجد في غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضاً حيوان السكلان .

وفى النحت عند هذا الشعب يذهل الشاهد المصرى بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحيره بغيرته المضحكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التى تخرج بالضرورة عن المجال الفكرى لتلك المشاهد .

وليس فى العالم القديم شئ يماثله تماما . وأدنى الأشياء شبيهاً إليه - وهو شبه بعيد - يوجد فى الطراز القديم المهجور من النحات الهندية . فالريش يتسج مع كل موضع منه ، والتعابن تنفلت فيه فى الداخل والخارج . وكثير من كتابات المايا تشبه صنفامينا من الرسوم الفنية التى يصنعها الهانين فى مستشفيات الأمراض العقلية بأوروبا . أكثرها تشبه أى شئ آخر فى العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور فى اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلى للعالم القديم ، وكأنما تناول أفكاره التواء مغاير وكأنه من ثم ليس ألبتة متزناً إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المنحرفة وبين القول بوجود الانحراف العقلى العام ، بدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطاً غير عادى . والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تربق الدماء أنهاراً ؛ فكانت تقدم فى كل عام آلاف من الضحايا البشرية وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لا يزال ينبض أم ما يشغل عقول وحياة هذه الكهانات القرية . فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب فى غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس فى هذه المجتمعات فهى قوية الشبه بالحياة العادية لأى مجتمع مجبى آخر من الفلاحين . وقد رعوا فى صناعة الفخار والنسيج والأصباغ ، ثم إن كتابة المايا لم تحفر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها . وتضم دور التاحف فى أوروبا وأمريكا كثيراً من المخطوطات الماياوية المهمة التى لم يحل من معمياتها فى الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشئ القليل . ونشأت فى يرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بواسطة عقد تعقد فى الخيوط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالخيوط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أى قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوى على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدن الأمريكية . وهى

حضارات تدور حول أحد العابد ، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء ، وكهانة شديدة العكوف على الفلك . ولكن الحضارات البدائية في العالم القديم كانت تتفاعل بعضها مع بعض ويتجه تطورها نحو ظروف عالنا الراهن وأحواله على حين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز في أمرها تلك المرحلة البدائية أبداً إذ كانت كل منها تعيش في عالمها الصغير الخاص بها وحدها . فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعرف إلا القليل عن ييرو أو لا شيء ألبتة ، حتى هبط الأوريون أمريكا . حتى إن أهالي المكسيك لم يعرفوا البطاطس الذي كان للمادة الغذائية الرئيسية في ييرو .

ظلت هذه الشعوب عصرا بعد عصر تمش وتعب من أمر أربابها وتقرب القرابين وتموت . وارتقى الفن للمايوى إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفى . وكان الأفراد يشقون والقبائل تتقاتل . ولم يرح القحط يعقب الوفرة ، والوباء يتبع الصحة ، على حين واصل الكهان قرونا عديدة إتقان تقويمهم وإحكام طقوس التضحية ، دون أن يحرزوا فى الاتجاهات الأخرى إلا تقدما يسيرا .

الفصل الخامس عشر

سومر ومصر في العصور الأولى ونشأة الكتابة

لا مراء أن العالم القديم مسرح أرحب أفقا وأكثر تنوعا من الجديد . فقد قامت به فعلا منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق . م مجتمعات شبه ممدنة كادت تبلغ مستوى بيرو . وقد ظهرت تلك المجتمعات في أقاليم خصبة متنوعة من آسيا كما ظهرت في وادي النيل . وفي ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مما هي عليه الآن ، إذ توجد بتلك الأقطار آثار تشهد بوجود مجتمعات في عصور باكورة جداً . ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان تظهر بهما لأول مرة المدن والمعابد والرى المنتظم ودلائل تنظيم اجتماعي يعلو عن مستوى المدينة القروية الممجة البعثة ، وفي تلك الأيام كان الفرات والدجلة يفيضان في الخليج الفارسي بمصبين منفصلين ، وبني السومريون أوائل مدنها على الأرض المحصورة بينهما . وحوالي ذلك العهد تقريباً - وذلك لأن التاريخ لا يزال على شيء من الإبهام - كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يبرغ .

ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً أسمر له أنوف ناشة . وكانوا يستعملون نوعاً من الكتابة حلت رموزه ، فلفتهم الآن معروفة . وقد اكتشفوا البرونز وأقاموا معابد كبيرة كالآبراج من الطوب المحفف في الشمس . وطعن تلك البلاد ناعم جداً ، ومنه اتخذوا ألواحاً يكتبون عليها ، لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم . وقد ملكوا للماشية والأغنام وللأعز والحير ولكن الحصان كان يعوزهم . وكانوا يقاتلون راجلين في تشكيل متراس ، وهم يحملون الحراب وتروسا من الجلد . وصنعوا ثيابهم من الصوف كما كانوا يخلقون رءوسهم .

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دولة مستقلة لها رب خاص وكهنة خصوصيون . وقد يحدث أحيانا أن تسود إحدى المدن باقي زميلاتها ، وتقرض الجزية على السكان . وقد عثر في نيبور على مكتابة سحيقة القدم جداً تذكر اسم

« إمبراطورية » مدينة إريتش السومرية ، وهى أول ما ذكر التاريخ من إمبراطوريات ، وكان إليها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطانهما يمتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة فى البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويرى . كما أنها شئ سحيق إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجري الحديث نفسه بأزمان سحيقة . والصور الأزيلىة الصخرية التى أشرنا إليها آنفا تظهر بداية تلك العملة . فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية ، والأشكال الإنسانية فى معظمها مرسومة رسوما واضحة . على أن المصور لم يكن يهتم فى بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكتفى بتصوير الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو اثنين .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور . وما لبثت خدشات الحروف فى كتابة سومر التى كانت تكتب على الطين جود أن أصبحت من البعد مما تمثله من صور بحيث لم يعد فى الإمكان تمييزها ، أما مصر التى كان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردى (وهو أول ما عرف من أنواع الورق) . فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التى نقلت عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة السمارية أو الإسفينية أى المشابهة للسمار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التى كانت تستعمل فى سومر ، كانت تحدث خدوشا على شكل الوند أو الإسفين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة عندما استعملت الصور للدلالة على الشئ الذى تمثله بل على شئ مشابه له . ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم فى ألغاز أسماء الصور (Redus^(١)) ، وهى لعبة يحبها الأطفال . وإنا لرسم معسكرا به خيام وجرس ، فينتهج الأطفال حين يسمعون أن هذا يرمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell^(٢) كابل) . واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراسة ، تكاد تماثل بعض لغات الهنود الجر المعاصرة

(١) ألغاز أسماء الصور : تمثيل ملنز لأحد الأسماء يصور فيها تورية تحمل أجزاء من الكلمة (للترجم) .

(٢) هنا يجمع الأطفال الإنجليز بين كلمتى Camp وجرس Bell فننتج لفظة : Campbell (للترجم) .

وقد استجابت في يسر لهذه الطريقة القطعية في كتابة الكلمات المعبرة عن أفكار لا يستطيع نقلها بطريق الصور مباشرة . وحررت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيها بعد عندما تمياً لشعوب أجنبية تتكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل ، أن تعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها - أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات حققة ، مشتق من خليط من الكتابة السومرية للمسايرة والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضعة عليها ، ولكن لم يحدث قطيلاذ الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية . فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهي التي هيأت السبل لتمودول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت في الإمكان قيام وعى تاريخي متواصل . وبها أصبح في إمكان أمر السكاهن أو الملك أو خاتمهما أن يذهبا إلى أماكن بعيدة عن بصره وصوته وأن يبقيا بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سومر القديمة . وأن الملك أو النبيل أو التاجر يتخذ خاتماً كثيراً ما يكون محفوراً حفرافيا جميلاً ، وإنه لطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها . فكما اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ! ثم يحفظ الطين بعد ذلك ويغدو مستديماً . ذلك أن القارئ ينبغي له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان المالا عديد له من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلل نسياً . وإلى هذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف المسترجعة من بطون الثرى .

ومنذ زمان سحيق جداً كان البرونز والنحاس والذهب والقضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعاً ، فضلاً عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة . ولسنا نشك البتة في شدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القديم ظهوراً على مسرح التاريخ . عدا ما تفردتا به من وجود الحمار والماشية في الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة بعدن المايا بأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم في الرى والزراعة لا ينقطعون عنها إلا أيام الحفلات الدينية . لم تكن لديهم تعود ولا كانت هم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجارتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضباناً من الذهب والفضة والأحجار الثمينة في أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان المعبد متسلطاً على حياة الناس ؛ والمعبد في سومر بناء كبير شلخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو في مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضي فقط ، وفي سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأفضحها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق الكهنة ؛ وهو التجسيد الحى للمثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغيرات قليلة ، فالناس يقضون أيامهم كإدحين في ضياء الشمس لمتزمين لتقاليدهم القديمة . وقد أن هبط البلاد أجني أو غريب فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طعماً ، وكان الكاهن يدير شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم ، ويرصد النجوم ارتقاباً لوقت البذار ويدرس النذر التي تتمخض عنها القرايين ويثول مايجيء به الأحلام من تحذيرات . وكان الناس يعملون ويعشقون ويموتون غير محرومين من أفوايق السعادة ، ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وغير عابئين بما يكنه لهم المستقبل . وكان الحاكم في بعض الأحيان رحباً مترقفاً . شأن بيبي الثاني الذي ظل يحكم مصر تسعين عاماً، وكان طموحاً في أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنوداً ويرسلهم على دول المدن المجاورة ليقانلوا وينهبوا، أو كان يسومهم العناء والسكدح في إقامة المباني العظيمة . كذلك كان خوفو وخفرع ومنقرع الذين بنوا تلك النواويس الجبارة : أهرام الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدماً ووزن مابه من حجر ٨٨٣.٠٠ رطل . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الزوارق ، ودفنته إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشييده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمية .

الفصل السادس عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إبان القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق . م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادي النيل وحدها ، فحينما أتت للناس إمكانيات للرى ومورد للطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتها . وشرع شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن في أعلى دجلة ؛ وكانت هناك في وديان آسيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى المدينة . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه في الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصين . وكان في أجزاء عديدة من أوروبا كثرت بها البحيرات التي يجرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق اللاء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصيد السمك . ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكناً في مناطق العالم القديم التي تكبر عن هذه كثيراً منذ كانت البشرية (وأدوانها وعلمها على مانع من نقص وعجز) لا تستطيع أن ترمى جذورها وتثبت أقدامها ، إذ كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت الغابات كثيفة ، أو كانت التربة قاحلة جدياً أو الفصول متقلبة عديدة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار في ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من اللاء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تنهأ هذه السلتزمات للإنسان ، عاش جوالاً متقللاً وقضى عمره صياداً يتبع صيده ، وراعياً يتعقب الكلاً الموسمى ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرعى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (في آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تعلموا أن يحجزوها في بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الدئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراعة البدائية تنمو بوجه خاص في وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش مغايرة لهذه ، هي حياة الترحل ، وهي حياة تنقضى في حركة مستمرة ذهاباً وحيث من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف . وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأشجع فؤاداً من الزراعة ؛ وهم أقل إنتاجاً للأولاد وأقل عدداً ، ولم تكن لهم معابد مستديمة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغي للقارئ أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطوراً . فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة ، حياة أوفى وأكثر من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أكثر اعتماداً على نفسه ؛ وأكثر استقلالاً . وكان القائد لديهم أكثر أهمية منه في المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يحتمل .

ولا شك في أن نظرة الترحل إلى الحياة أرحب مجالاً ، لتحركة فوق مسعات مترامية من الأرض . وهو لا يفتأ يمس حدود هذه الأرض المستعمرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه الغريبة . ولم يكن له مقر من أن يدبر الخطط في سبيل المرعى وأن يتفاهم في شأنه مع القبائل المنافسة ؛ ومعرفته بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التي تقطن أرض المحراث ، وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية ويحترق المناطق الصخرية . ولعل عمله بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراعة . إذ يحتمل أن ظهر البرونز بل والحديد أيضاً على أرجح التقديرات - كان من المكتشفات التي وصل إليها الرحل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامه قد وجدت في أوروبا الغربية على بعد عظيم من المدن الأولى .

كان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وغارهم كما أنهم كانوا يصنعون كثيراً من الأشياء المرغوبة . وبينما كان مذهباً الحياة هذان : الزراعة والترحل يتمايزان أحدهما عن الآخر ، لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من التماسك والاتجار . ولا شك في أنه كان من الأمور المألوفة في بلاد سومر بوجه خاص بما يكتنف جانبها من صحراوات وأراض موسمية للنخ ، أن ينجم المترحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يتجروا ويسرقوا وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم ، كما يفعل الأنهار (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأنهار ، لأن الدجاجة المنزلية - وهي في الأصل دجاجة أحراش هندية - لم يستأنسها الإنسان إلا حوالي ١٠٠٠ ق م) ، وإنهم

ليجتلبون للزراع الأحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية ، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء . وإنهم يحصلون مقابلها على الفخار والحرز والزجاج والثياب ، وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيقة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة . فهناك في الغابات النائية بأوروبا ، كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المكونة من قناصين وورعاة ، وهم جنس خيس القدر ، ولم تر الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك الجنس قبل ١٥١١ ق . م . وكانت تقيم في السهوب الفضية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية متنوعة ، هي الشعوب الهونية . وهي تستأنس الحصان ، وتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفاً وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات روسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة ذلك أن قدرا عظيما من روسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التي كان جديها وجفافها آخذا عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قاتم أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قطعانا من النعم والعز والحخير من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمعة تجريدية قوية وموطنهم جنوب إيران ، هم اليلاميون) - أول الرحل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متجرين ومغربين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرا جنانا ، أصبحوا غزاة فاتحين .

وفي قرب من ٢٧٥٠ ق . م . كان قائد سامي عظيم هو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح سيدا للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان جميعا أميا وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية ، واتخذوا السومرية لغة للوظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد في قبضة اليلاميين ، جاء شعب سامي جديد ، هو الصوريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . فاتخذوا من بابل عاصمة لهم - وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعلى النهر - وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى . وقد رفع من شأنها وشد من تماسكها ملك عظيم اسمه حورابي (حوالي ٢١٠٠ ق . م) وهو الذي سن أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

أما وادى النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة تعرضاً لغزوات
الرحل ، ولكن حدث حوالى عهد حورابى أن نجح الساميون فى غزو مصر وأقاموا
أسرة جديدة من الفراعنة ، هم ملوك الهكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم قرواً
عديدة . ولم يندمج هؤلاء الفزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب كان
ينظر إليهم على الدوام نظرة العداء بوصف كونهم أجانب وبرايرة . وأخيراً طردتهم
من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا فى بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجنسان
بعضهما بعضاً ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية فى لغاتها وسماتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لا بد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قربة منقوخة ، في زمن لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلط الفتحات يستخدم في مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لا تزال تستخدم حتى الساعة في إيرلندة وويلز وألاسكا ، حيث لا تبرح زوارق من جلد الفقعة تستخدم لعبور مضيق جرينج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المحفوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة في بناء السفن ، مثلاً أن قصة الطوفان الدائمة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تمخر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمان مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملكاً للصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلاً سفناً للتجارة والقرصنة - ذلك أنا نفترض بغاية الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التي تنافس فيها هذه السفن الأولى بحارا داخلية تهب عليها الريح في اندفاعات فجائية ، أو تنقطع في القالب انقطاعاً تاماً أياماً يرمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافي ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدة الماخرة المحيط إلا في السنوات الأربعمائة الأخيرة ، وسفرت العالم القديم إنما هي بالضرورة

سفن تجديف تلازم الشاطئ ، وتلوذ بالرفأ عند أول بارقة الجؤ العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء للسفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل ، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولانم البابلية الأولى . ونزعت هذه الشعوب نفسها في الغرب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المرافئ على امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وصيدا ، فلم يأت عهد حمورابى في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيرى ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالى . وسنريدهم -- فيما بعد -- يبابا عن قرطاجنة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفعة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آنفا سلسلة من المدن والبلاد تفتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

وينبغى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلا : ميسيناى ، وطروادة ؛ كما كان لهم في كنوسوس بحزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية وتكشف لنا عن حضارتها إلا في الحمين سنة الأخيرة . ذلك أن آثار كنوسوس ارتدت ارتياداً بالغا ، ومن يمن الطالع أنه لم تبين في موضعها مدينة كانت من السكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فهي المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التى كاد النسيان يريم عليها .

وتاريخ كنوسوس يعادل فى قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالى ٤٠٠٠ ق . م وبلغت الحضارة الكريئية أوج العظمة حوالى ٢٥٠٠ ق . م . أى بين عهد سرجون الأول وحمورابى .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصرآ عظيما للعاهل الكريئ وشعبه ، بل إنها لم تكن محصنة ، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين ، وعندما انحدر إليها فى البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة ، هو الإغريق .

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس Minos ، شأن العاهل المصرى الملقب بالفرعون ؛ وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الحمامات وما أشبهها من وسائل الترف التى لانعرف لها ضربيا فى أى طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك كان يقيم حفلات وأعيادآ عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابهة فريدة - مصارعة الثيران التى لا تزال باقية فى أسبانيا ؛ والمشابهة قائمة فى الحالين فى كل شئ حتى فى ثياب مصارعى الثيران ؛ وثمة حفلات لألعاب الجياز . أما ثياب النساء عندهم فهي عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فإنهن كن يرتدين المشداب والأثواب ذات الأهداب المدلاة ، والكثير مما أتبعه هؤلاء الكريتيون من الفخار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والعاج والمعادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جمالا مذهشا . وللقوم طريقة للكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هذه الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقارب العشرين قرنا . فلو استعرضت كنوسوس وبابل حوالى ٢٠٠٠ ق . م لوجدتهما تعبان بأناس مثقفين ينعمون بوسائل الراحة ويعيشون فى الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية ، ولديهم عبيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم والبيد الصناع الذين يدرون عليهم الربح فكما كانت الحياة فى كنوسوس تبدولين هؤلاء الناس أمانة مطمئنة ، ومن فوقها الشمس بضياؤها الباهر ومن حولها لجج البحر الزرقاء المترامية ! ! ومن

البدهي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهي تحت حكم ملوكها الرعاة نصف الهمج ، وإذا كنا نحن يهتمون بالسياسة ، لم يفتنا أن نلاحظ كم كانت الشعوب السامية تنتشر في كل مكان : فهي تحكم مصر وتحكم بابل القصية ، وتبنى نينوى بأعلى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وتنشئ مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك في أنه كان في كنوسوس بعض العقول المفكرة المحبة للاستطلاع ، إذ تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريك حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن ينشئ ضرباً ما من آلة للطيران لعلها طائرة شرعية ، ولكنها سقطت وهوت إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة في كنوسوس والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أي سري من السكريتين يعيش في ٢٥٠٠ ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفاً أكثر منه نافعاً — إذ لم يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد انيازك ، ولم يكن أحد قد استخلص الحديد بعد من خامه المعروف . وعندى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا المصرية التي يدخل الحديد في كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان حيواناً أسطورياً تماماً لدى سرة كريت ، فهو عندهم صنف من الحمار الراق يعيش في الأراضي الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وبدهي أن أم موطن للحضارة لدى السري الكريك كان للمنطقة الإيبية وآسيا الصغرى ، حيث كان الليديون والكاريون والطرواديون يعيشون عيشاً كعيشه وربما يتكلمون لغات كلفته . وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون في أسبانيا وشمال إفريقيا . ولكن تلك الأفطار كانت تترأى لعين خياله بلاداً سحيقة البعد . وكانت إيطاليا لازال أرضاً موحشة تغطيها الغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإنسك (التوسكان) ذوو البشرة السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعلهم حدث ذات يوم أن هبط ذلك السري الكريك إلى الميناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شقوته ووزقة عينيه . ولعل هذا السري حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطانة غير مفهومة . جاء هذا المخلوق من مكان ما وراء البحر الأسود ، وبدأ كأنما هو متوحش منطع الثقافة . ولكنه كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من فورنا بالشيء الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة الصبية التي تحدث بها هي التي قدر لها أن تتأيز فيما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها : - ذكية مقاومة مشرقة سعيدة . ولكن كارثة زلت بها قرابة ١٤٠ ق . م ، ولعلها ذهبت برغدها على حين بغة ، فدمر قصر مينوس ولم تعمر أطلاله يد ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة . ولسنا ندري كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المهترئين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبعثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار لزوال عنيف مدمر . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق ما بدأه الزلزال .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون ألبتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين ، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالى ١٦٠٠ ق م ، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي من البلاد ، وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر ، وهى فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التى لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً ؛ وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل فى إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراعنة غزاة فاتحين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حصان القتال ومجلة القتال ، التى جلبها الهكسوس معهم . وسرعان ما بسطت مصر سلطانها فى آسيا حتى نهر الفرات فى عهد تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حضارتى النيل وأرض الجزيرة اللتين كانتا يوماً منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماماً . وكانت لمصر القلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهى الأسر الثامنة عشرة التى من ملوكها تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هى حاناسو ، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثانى (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذى حكم سبعا وستين عاماً ، رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء ، وفيما بين ذلك أملت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السورليون ثم الإثيوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرًا ، ثم ارتفع شأؤ الحيثيين بها فسورى دمشق إبّان دور عزة قصير الأمد ؛ وجاء أوان غزا فيه السورليون مصر ، وترجع نجم الآشوريين فى نينوى بين الصعود والأفول ؛ فتارة تكون المدينة مغزوة مهيضة ؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل ويغيرون على مصر . والبراح الذى بين يدينا أضيق من

أن يسمح لنا بأن نحدّثك عن غدوات وروحانيات جيوش مصر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزودة بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن الحصان (الذى لم يكن يستخدم إلا فى الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدينيات القديمة .

ويظهر على السرح فى النور الخافت المنبعث من ذلك الزمن السحيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشرانا ملك ميتانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية فى ذلك الأوان . ففزا تجلات بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسميه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضاً من الشمال إلى بلاد الحضارة ؛ إذ حصل عليه أولاً الحيثيون أسلاف الأرمن وعندهم أخذه الآشوريون ، كما أن مقتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى سلع به جيوشه ، فكان ملكاً آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بحيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لهزيمة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون . وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بانيبال (الذى يعرف أيضاً فى التاريخ باسمه الإغريقى ساردانا بابلوس) فتح مصر فعلاً فى ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطراً محتلاً تحكمه أسرة إيتوبية فكل الذى فعله ساردانا بابلوس هو أن أحل قائماً محل آخر .

فلو أتيت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ، الممتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتقلص كما تفعل الأمم تحت اليكروسكوب ، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين نجىء وتخدو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا لنجد فى غرب آسيا الصغرى دولاً إيجية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها سارديس ومثل كاري . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق ، هابطة من الشمال الشرق والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية فى مناطق

نخومها الشمالية وتنزل بها النكبات . وكانوا جميعاً يتكلمون ضروباً مختلفة من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ اليبديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقى للبحر الأسود وبحر قزوين . وتخلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكيزيين (الأشقوديين) والصرمانيين . ومن الشمال الشرقى أو الشمال الغربى انحدر الأرمنيون ، وجاء من شمال غربى ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكربون والفريجيون والقبائل الهلنسية التى نسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للمدن ، سواء فى ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوباً متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء نزعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا فى الشرق إلا سكاناً نازلين على النخوم وجيرانا مغيرين ، ولكنهم استولوا فى الغرب على المدن وطرّدوا منها السكان الإيبىيين المدنيين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيبية أن أخذوا يعيشون عن أوطان جديدة لهم فى مناطق تخرج عن منال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى فى دلتا النيل لولا أن صدم المصريون ؛ وبعضهم وهم الإترسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة فى برارى وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبغوا فيما بعد الشعب المعروف فى التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنزيدك فى فصل تال بياناً عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الحشونة البالغة . وستقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركات والمهجرات التى حدثت فى منطقة الحضارات القديمة ، والتى بدأت بدوامة التقدم التدريجى المتواصل لهؤلاء الآريين الممجم المهابطين من الغابات والبرارى الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق . م .

وسنحدثك أيضاً فى فصل تال عن شعب سامى صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم فى الظهور فى قريب من نهاية هذه الفترة ، ذلك أنهم أنتجوا « أدبا » أوتى أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من عصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والقصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهري بأرض الجزيرة [المراق] ومصر إلا بعد ٦٠٠ ق م . ولا بد أن فرار الإيبىين أمام الإغريق بل حتى تدمير كنوسوس ، قد بدا لكل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب نائية جدا . وكانت الأسر المالكة تذهب وتجيء فى هاتين الدولتين مهدا الحضارة ، على أن الحياة البشرية سارت فى مجراها الرئيسى ، وإن حلت بها ببطء على مر العصور زيادة طفيفة فى التهذيب والتعقيد . وأما مصر فكانت الآثار التى تكسدت عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيرا بما أضيف إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص فى عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة : وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماما ! ويرجع معبدا الكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران المنحطة ذوات الرؤوس البشرية ، والحفر البارز الذى يمثل الملوك والعجلات وحيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ٦٠٠ ق ١٦٠٠ م ، كما أن هذه الفترة تشمل أيضا على معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعا سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها نعلم أن حياة المومنين وذوى النفوذ فى مدن أمثال بابل وطية المصرية ، تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار فى أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة ؛ وكانت لهم أعياد وحفلات ، فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أكرمهم بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رقيقو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكتفون من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيدا ، ولكن الزهرة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفا فى كل من نهري النيل والفرات ، أمادابة الجمل عندهم فهى الحمار ؛ فى حين لم يستخدم الحصان إلا فى العربات الحربية والمناسبات الرسمية دون غيرها . وكان البقل لا يزال شيئا جديدا ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل مصر بعد وإن عرفته أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبيعى أن الأوعية المصنوعة من

الحديد كانت قليلة ؛ إذ إن النحاس والبرونز ظلّهما المعدنين المنتشرين . وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هي والصوف . ولكن لم يكن هناك حرير . وعرف الناس الزواج وأصفوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت في العادة صغيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم في العدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالذهب وإن لم يضعوا المناظير فوق أنوفهم !

وهناك فارق عجيب بين الحياة في طيبة القديمة أو بابل وبينها في العصور الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالتقايسة هي الأساس في القدر الأعظم من الصفقات التجارية وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المألية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة في التبادل وجعلا في صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود بزمان مديد كان هناك أصحاب مصارف ، يدمغون أسماءهم والوزن على هذه السكتل من المعدن النفيس . وكان الناجر أو السافر يحمل الأحجار الثمينة ليبيعها وينفق منها . وكان معظم الخدم والعامل عبيداً لا يتناولون أجورهم نقدا بل عينا ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائراً من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحنا تاجا على مفرق العالم القديم ، لافقد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا فإن الطاهي الفرنسي ما كان يجد مسرة كبيرة في بابل . فإن هذين الصنفين وصلتا من الشرق في عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريباً .

وكذلك الديانة ، فقد ألم بها ككل شيء آخر تهذيب عظيم ، إذ اخفت القرايين البشرية مثلاً منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستقراتهم في إفريقيا ، اتهموا فيما بعد بالتضحية بالكائنات البشرية) . وجرت العادة كلمات رئيس كبير في الأيام الحالية أن يضعى زوجاته وعبيده وأن تكسر الحراب والقسي عند قبره ، وذلك لكي لا يكون في عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هي دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والخدم والملاشية مع الميت . وهي نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حي لتلك الحياة الوادعة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت بالهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الكبيرة بهذين القطرين

كلهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لا يبدو أنها تقدمت أو اتلفت يبلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة اللايا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا يزال بحاجة إلى عدائها لكي تضى عليه الطابع المصرى وتنقيه من كثير مما يشوبه من أساطير . والراجع أن الصين كانت فى ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية فى الصين ، هى أسرة شانج ، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحلة الروابط من ملوك تابعين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين للوسمية . ولا تزال هناك إلى اليوم أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنعة ما يجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغته إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

الفصل التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة ، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق م ، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفاً مناخاً على الأرجح ، وأكثر مطراً وغيابات ممّاهى الآن . وكانت تتجول فى هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من النصر النوردى الأشقر الأزرق الصيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع متنوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين . ولعلمهم لم يكونوا فى ذلك الوقت شعباً وفير العدد جداً ، ولعل البابليين الذين كان حواريهم يمنعهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم . ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفاً فى القدم والتخيف ، والى كانت تذوق فى تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبي .

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاماً جداً بالفعل فى تاريخ العالم . كانوا شعوب أحرار أو أراض قطعت منها الغابات ؛ ولم يملكوا الحصان فى البداية وإن وجدت لديهم الماشية ؛ فإذا هم تجولوا وضعوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران ؛ وإذا استقروا زمناً ما فلعلمهم كانوا يصنعون عشوشاً من رفيع الصون والطين . وإذا مات واحد من ذوى المكاة فيهم أحرقوا جثته ؛ ولم يدفنوه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القاعة تفعل ، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم فى أوان ثم ينشئون حولها رابية مستديرة . وهذه الروابي هى القبور المستديرة التى تنتشر فى جميع أرجاء أوروبا الشمالية ، ولم تكن الشعوب القاعة السابقة لهم تحرق موتاهم ، بل تدفنها فى هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هى « القبور

الطويلة » Long barrows

وكان الآريون ينتجون القمح ، ويحراثون الأرض بالثيران ، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم ؛ ذلك أنهم ما يكادون يحدسون حتى يحلون ، وقد ملكوا البروز ، ثم حصلوا على الحديد حوالى ١٥٠٠ ق م . ولعلمهم أول من

اكتشف صهر الحديد، ومالبثوا في زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أو يكاد أن حصلوا أيضاً على الحصان - الذى بدأوا باستخدامه في أغراض الجر دون غيرها ، ولم تتمركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذى تتمركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً. وكان كبارهم قادة في ميدان الحرب أكثر منهم كهنة. ونظامهم الاجتماعى أرسقراطى وليس فيه ربوبية ملك، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جدا في تاريخهم يعترفون لعائلات بعينها بالزعامة والنبل .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن . وكانوا يعيشون في تجوالهم البهجة بما يقيمون من حفلات يسرفون فيها في الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هم الشعراء بالغناء والتلاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشعراء سجل أدبهم الخالد ، وقد عاد استعمال اللغة التلاوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيبة بمتازة ، كما لاشك في أنه يعود إليه الفضل، إلى حد ما ، فيما تلا ذلك من سمو اللغات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب آرى ييلور تاريخه الأسطورى في تلاوات شعرية ، تختلف أسماؤها باختلاف الشعوب ، فهى تارة تسمى باللاحم ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا .

والعيادة الاجتماعية لهذه الشعوب تتمركز حول دور زعمائهم . فإن قاعة الرئيس التى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيرا ما كانت بناء خشبياً رحيباً جداً. ولاشك في أنهم أعدوا بجوارها أكواخا للقطعان ومباني ريفية في مواضع منها متطرفة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هى المركز العام ، الذى إليه يذهب كل إنسان ليحضر الوليمة ، ويصغى إلى الشعراء ، ويشارك في الألعاب والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل ، وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فنومهم في أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم « بالهوارات » الهندية . وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة في كل شئ. عدا الأسلحة والحلى والآلات وما أشبهها من الممتلكات الشخصية ، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها من أجل المصلحة العامة ؛ في حين أن الغابات والأنهار هى والبرارى لا يسكنها أحد .

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح الكبير بأوروبا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية في أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل،

ذلك الشعب الذى نجده يضغط فى كل مكان على شعوب الحضارة المجرية الشمسية (الهلولىة) فى الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا يحدون إلى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا . ويتقدمون غرباً فى موجتين . وتسلح أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإرلنده بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذى صنع من قبل الآثار المجرية العظيمة المسماة بكارناك فى برتاني وستون هنج وآقبورى بأجلترا . وقد بلغوا إيرلنده واسمهم الكلت الجويديليون (Goldie Celts) . أما الوجه الثانية لشعب وثيق القرى هؤلاء ، ربما خالطته عناصر من أجناس أخرى ، فهى التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة الكلت البريتونيين (Brittonic) وعندهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم .

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم هؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب فى أسبانيا وتتصل لا بشعب الباسك (الهلولى) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل وبالمستعمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضاً . كما أن ، سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه ، هى الإيطاليون ، شرعت تتقدم فى شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى موحشة مكسوة بالغابات ، ولكن لم تكن لهم الطلبة على طول الخط ، فإن روما تظهر فى التاريخ فى القرن الثامن ق . م ، مدينة تجارية على نهر التير يسكنها اللاتين الآريون ولكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى ، وجدنا قبائل مماثلة تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب . فإن شعوبا آرية تسلكم السنسكريتية انحدرت من خلال المرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م بزمان مديد . وهناك اتصلوا بحضارة بدائية سمراء ، هى الحضارة الدرافيدية ، وتعلموا منها الشيء الكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق الكتل الجبلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقاً وتوغلاً بعيداً عن المجال الحالى لثلك تلك الشعوب . ولا تزال بيلاذ التركستان الشرقية قبائل نوردية شعراء الشعور زرقاء العيون ، ولكنها تسلكم الآن بالسن مغولية .

وفما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيتين القدامى . وصنغوم صبة آرية قبل ١٠٠٠ ق . م ، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلاً بوطأة أجناس مهيبة جديدة شديدة اللراس فى القتال على التخوم الشمالية الشرقية ، موجز تاريخ العالم -

وهي مجموعة من القبائل لا تبرح أسماء الإسكيزيين والميديين والفرس أبرز ما بقي من أسمائها .

ولسكن شبه جزيرة البلقان هي البحر الذي شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م بعدة قرون على الانحدار جنوباً ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولاً مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأيوليون والأيونيون والدوريون ، فلما وافت ١٠٠٠ ق . م ، حتى صارت الحضارة الإيحية القديمة في خبر كان في كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فنجحت من الوجود مدينتا « ميسيناي » و « تيروز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يعفى على « كينوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م ، وذلك بعد أن استقروا في جزيرتي كريت ورودرس ، وشرعوا يؤسسون المستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على منوال المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فبينما كان « تجلات بلسر الثالث » و « سرجون الثاني » و « سارداناپالوس » يحكمون مملكة آشور ويقانون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تتعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م لما بعده بسة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب المقامرة ، وكيف ترامي بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره ، السامى منه والإيحيى والمصري سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذي نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمراً بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمان بعيد ، بل الحق إنه كفاح يستمر طيلة ما عقب ذلك من التاريخ ، بل لا يزال مستمراً على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

والإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث ، ومقتصب العرش سرجون الثاني . ولم يكن الاسم الأصلي لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذ لنفسه رغبة منه في تعلق البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للإمبراطورية الأكادية ، الذي جاء قبل زمنه بألفي سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة ربهما الكبير « بل مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرقى كثيراً من تلك الأيام الممجيبة التي كان فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف . وصار الفاتحون يحاولون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانبهم . ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (سارداناپالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن اضمحلت . فاستطاعت مصر طرد الغاصب بشىء من الجهد بزعامة فرعونها « أبسمتيك الأول » ، كما حاولت أن تشن حرباً لفتح سوريا بقيادة « نحاو الثاني » وفي ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزائهم إلا أضعف المقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو الكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين الهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفي ٦٠٦ ق م . بالضبط (إذ إننا دخلنا الآن في مرحلة التأريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور ، وأنشئت في الشمال إمبراطورية ميديّة تحت حكم كياكسارس

(سياخار) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا. وامتدت حدودها شرقاً إلى تخوم الهند. وإلى الجنوب من هذه، وفي شكل هلال عظيم، تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة، هي الإمبراطورية البابلية الثانية، التي ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم (وهو نبوخذنصر المذكور في التوراة)، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة، بل أعظم أيامها جميعاً، وظلت الإمبراطوريتان في سلام ودخا من الزمن، وتزوج سياخار من ابنة نبوخذنصر.

وفي نفس الوقت كان نحاو الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة، فهزم في معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق. م. يوشع ملك يهودا وقتله. وهي قطر صغير سنعدنك عنه بالزيد عما قيل، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا يلتقي بمملكة آشورية منعلة، بل بدولة بابلية ناهضة. وقد قاوم السكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذاً قوياً. ودحر نحاو ورد على أعقابها إلى مصر، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة.

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق. م. مزدهرة ازدهاراً غير وطيد، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميديّة الأقوى منها بأساً، والأصلب عوداً في الشمال. وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في المدينة القديمة على الحياة وحدها. بل شمل العلوم أيضاً.

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكري عظيم، حتى وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سينا سارداناपालوس، وهذا الملك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماماً؛ فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق، بل من ألواح الطين التي كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية. وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه. ولعلها أتمن ما في العالم من الدخا التاريخية.

وكان لآخر أفراد الأسرة السكلدانية من ملوك بابل، وهو نابونيداس، ذوق أدبي أرفع أو يكاد، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول العرش، خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش. بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوي على كثير من دلائل التفكك، فحاول أن ييث فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المختلفين، وأقام بها للمعابد تلك الآلهة. وقد استعمل الرومان تلك



خريطة رقم (٣)

الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان ، ولكنها أثارت في بابل غيرة كهنة بعل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر . فأخذوا يدبرون الحطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص قورش الفارسي ، حاكم الإمبراطورية الميديّة المجاورة . ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى في شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل ، ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلها جنوده بلا قتال .

وتذكر التوراة أن ولى العهد ييلشاصر بن نابونيداس كان في وليعة عند ما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار : « منا ، منا ، ثقيل ، وفرسين ليقرأ اللغز بأن « منا أحصى الله ملكوتك وأنها ، وثقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس ^(١) » . وربما كان كهنة بعل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط . وقتل ييلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية والميديّة . وأخضع قبيز بن قورش مصر ، ثم جن قبيز وقتل صدقة ، وخلفه على الفور دارا اليدى الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسيس أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة في الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد في بلاد الهند حتى نهر السند وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية في حيز الإمكان عند ذلك في العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرصوف .

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .

أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجلل (في الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذى يحمل إذناً رسمياً بالسفر . فضلاً عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك فى استعمال النقود المسكوكة . التى سهلت التجارة والتعامل تسهلاً كبيراً . ولكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل . وانقضت الأيام ولم يحن كهان بعل مردوخ من خيانتهم شيئاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها ، على حين صارت للدن الكبرى فى الإمبراطورية الجديدة هى برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هى العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالها بالية .

الفصل الحادى والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤتوا فى زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (جوديا Judea) قبل ١٠٠٠ ق . م . بزمن طويل ؛ وبعد ذلك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات النخيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أنتجوا أدباً وتاريخاً عالياً ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير وكتب الحكمة والشعر والقصص والكلم السياسية ، وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجع أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نحاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والسكلمان قتال حياة أو موت ؛ وبينما كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نحاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق . م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعندما تمكن نبوخذنصر الكبير الملك الكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نحاو على عقبه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك ضعاف يأتمرون بمشيئته فى أورشليم ، ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أعمل الدبع فى موظفيه البابليين ، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك النبوة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت أمدأ بعيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر قهبت أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل (٥٣٨ ق. م.) وعند ذلك جمعهم جميعاً وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار اورشليم ومعبدها .

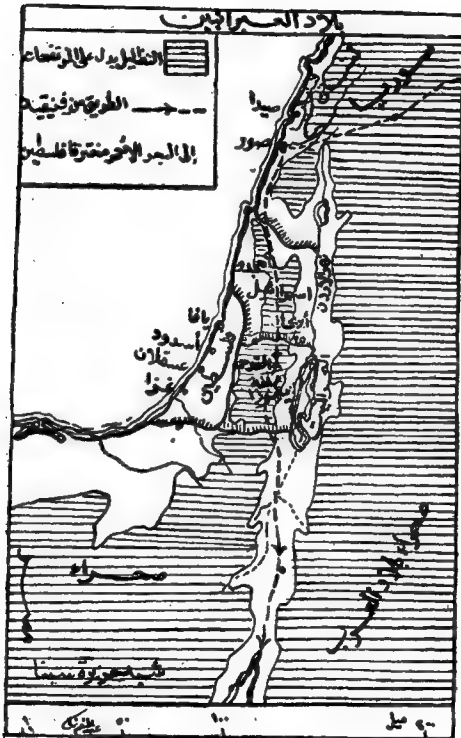
ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ولا متحداً . وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر التة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي مدتهم ووحدهم ، فعادوا إلى بلادهم . شديدي اليقظة إلى أدبهم ، عادوا شعباً متأجج الوعي الذاتي مشرباً بالزعات السياسية .

ويلوح أن توراتهم لم تكن تحتوى في ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفضلاً عن ذلك كان لديهم فضلاً على صورة كتب منفصلة ، - كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين هى وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ، ومنها مثلاً أسفار التورايخ والزمائير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة الماثلة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من التقدمات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجه أخص لا تبدأ حقاً إلا بقصة إبراهيم فما تلاها .

وربما كان إبراهيم يعيش في نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه حمورابى في بابل ، كان إبراهيم رجلاً بدوياً سامياً تعيش عشيرته في نظام الأبوة ، وعلى القارىء أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ وتقول رواية التوراة : إن رب إبراهيم وعده وأولاده بهذه الأرض البسامية ذات اللدن الثنية .

وبعد مقام طويل بمصر وبعد أربعين عاماً من التجول في البرية يرعاه موسى ، يزايد أبناء إبراهيم فيصحبون شعباً مكوناً من اثني عشر سبطاً ، ويغزون أرض كنعان



خريطة رقم (٥)

من الفياق العربية في الشرق . ولعلمهم فعلوا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق . م . ١٣٠٠ ق . م . وليس فيما دوتته مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلك القصة من غموض ، ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحوا إلا منطقة التلول الداخلية في أرض اللباد ولم يزدوا عليها شيئاً . فإن الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين ، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استطاعت مدنتهم غزة وجاث وأشدود وعسقلان ويافا ، أن تصمد لمجموع المصريين ؛ وظل أسباط إبراهيم أجيالا عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم اللؤايون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارئ في سفر القضاة سجلا يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجده في الأغلب سجلا من النكبات والإخفاقات التي دونت بهراحة .

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه اللة - لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع - قضاة من الكهنة ينتخبهم كبار الشعب ، ولكنهم عمدوا في النهاية في زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق . م . إلى انتخاب ملك هو شاول ، ليكون لهم قائدا في القتال . ولكن قيادة شاول لم تزد كثيرا على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين في معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقا وفطنة . وبتولى داود أشرفت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوتي نصيباً كبيرا من الذكاء والقدرة على اللغامرة . وكان ينبغي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت في ذلك الزمان في حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقيبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق ، ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات ، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه . وأخذ سيل جسم من التجارة

يتدفق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوتى سليمان من اليسار والأبهاء مالم يره شعبه من قبل . حتى أقدم بلغ من أمره أن صمغ فرعون بزويج ابنته منه .

يبد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فسلطان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً تابعاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقص بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فراغة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والآيام . وهم يقولون إن الكبرياء القوي لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها . بيد أنك إذا أنعمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التي تخيل إليك عند أول قراءة .

فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان ، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي ، وأما عرباته الألف والأربعائة فإنهاستكف عن بعث الإكبار في نفوسنا عندما نعلم من أحد الأبطال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتتضم إلى الجيش الآشوري . وواضح بما نقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك في المظاهر وأنه أهبط شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فثبات حيرام ، وانقطع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحي تعركهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهي قصة نسكبات ونحمرات لاتعود عليهم إلا بإرجاء نزول التسكبة القاضية ، هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج ، حتى إذا وافى ٧٢١ ق.م بحث يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق.م ، ماحل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فلانها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة الصدى تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر وآشور وبابل وإبان القرن المنصرم .

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بضمه إلى جفص وطور تقاليدہ ونماها . ذلك أن القوم الذين آبوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً مختلف اختلافا عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا ، فإنهم تعلموا الحضارة

وظهرت إبان تطورههم الخلقى الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دوراً عظيماً جداً في تاريخهم ، وهى طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ، الذين ينبغي لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا ، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى جديدة جديدة بالملحظة في التطور للطرده للجماعة البشرية .

الفصل الثاني والعشرون

كان وأنبياء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من النكبات التي كتب للشعوب السامية أن تقاسمها . ومن قبل ذلك كان العالم المنحصر بأكله يلوح في القرن السابع ق . م كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر ؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم في أيدي الساميين ، فإن صور وصيدا مدينتي الساحل الفينيقي الأصليتين الكبيرتين قد نثرنا المستعمرات التي كبرت في النهاية حتى فاقت أمها حجماً في أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق . م ، تزايد عدد سكانها حتى أربى على المليون ، وظلت أعظم مدن العالم ردحاً من الزمن . فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي ، ولعلها بلغت جزائر ماديرا ، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً ، وحدث في زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في الهمجية ، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يعيدون بناء مدينة جديدة على أنقاض تلك التي دمرها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » في آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يشكهم في ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستغدو في كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشقة كل مشقة ، ففي كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استمك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التي كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين لفتح سوسر ، بيد أن العرب البدو لم يهزم البتة سادة آريون .

ولم يتأسك من جميع هؤلاء الساميين المتحضرين الذين هزموا وأخضعوا في إبان تلك القرون الحثة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتأسك منهم ولم يستمسك بتقاليده القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعني به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسي ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أديهم ذلك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم في بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هي التي صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تنطوي دقتها على أفكار بينها ، تخالف أفكار من حولهم من الشعوب ، وهي أفكار شديدة التنبيه للأذهان شديدة الدعم والتثبيت للأنفس ، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون الهن والمغامرة والاضطهاد .

وأول هذه الأفكار اليهودية وأبرزها ، هي اعتقادهم بأن إلههم خفى مستتر وبعيد ، إله غير مرئي يعيش في معبد لم تصنعه يد ، وهو رب الخير والبر في أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش في معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ، ولى الرب على القور ، ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش في السماء ، ساميا متعاليا على السكينة والقربان . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله إبراهيم ، قد اسطفاهم له شعباً مختاراً ، ليسترجعوا أورشليم ويحطوها حاضرة البر في العالم . فهم إذن شعب سما به إلى العلا شعوره بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذي ملأ جوانب نفوسهم جميعاً يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر في بابل .

أفصحب إذن أن تهفو إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين ومن إلهيم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ — وهم أقوام يتحدثون بلسان واحد تقريباً ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام في عضويتها ووعدها ولا سيما بعد أن تمرغوا في مهاوى الهزيمة والذلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا لحاة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وصيدا وقرطاجنة والمدن الفينيقية الأسبانية ؛ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم ويمثل تلك الطريقة الفجائية عنها لا في أورشليم وحدها بل وفي أسبانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفي الشرق حيث وضع الفينيقيون أقدامهم . وكانت

الرابطة التي تربطهم جميعا هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك بزمان مديد ، عندما شرع السومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئا جديداً في هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعباً بلاملك ، وما لبثوا أن غدوا بلامعبد (إذ إن أورشليم نفسها - كما سنحدثك - قد قضى عليها في سنة ٨٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن يجمعهم - على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم - إلا قوة الكلام السطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سليمان لم يكن يبدو على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعباً صغيراً يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حشافة الكاهن وتقوده مطاعم الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي تحدث عنه ، وأعنى به « النبي » كان موجوداً آنفاً ، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تراحم المصائب على رأس العبرانيين اللقسمة على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فإلني حزقيال مثلاً كان من الكهنة ، وكان النبي علموس يلبس رداء الرعاة الصنوع من جلد اللعازر ، بيد أنهم يشتركون جميعاً في شيء واحد : هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا للرب البر وأنهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرون دون ترخيص من ذوى السلطان ودون تكريس مقدس كالكهنة . أما طريقة تعبيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : « الآت جاءني كلمة الرب » . كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد . ولطالما حرضوا الناس على مصر ، « تلك القصة المشعة » على حد تعبيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نوا على طبقة الكهنة تراخيمهم ، كما ندودوا بآثام الملوك الصارخة . ووجه نفر منهم

عنايته إلى ما قد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعى » . فقالوا إن الأغنياء « يسحقون وجوه الفقراء سحقاً » ، كما أن الترفيع يستنفدون خبز الأطفال ، وأن الوسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم فى آهتهم ورذائلهم ؛ وأن هذا بيض إلى « ياهواه » رب « أبراهام » الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التنديدات العنيفة تدون وتصح وتدرس . وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحاً دينية جديدة . فباعدت بين الرجل العادى وبين الكاهن والمعيد والبلاط والملك ، ووضعت وجهها لوجه أمام حكم الرب . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التى ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من رائع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد . وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد فى كتب الأنبياء الشيء الكثير من البغضاء ، والشيء الكثير من التحيز والتعالم ، والشيء الكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى المؤلفات التى تسطرها الدعاية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى زمن الأسر البابلى هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية الحر ضد القرايين الخرافة (الفتيشية^(١)) وحفظ أنواع الولاء الاستعبادى التى ظلت حتى ذلك الحين قيداً يغل جنسنا البشرى .

(١) الفتيشية : كل شيء ينظر إليه بتوقير لا يقوم على منطق أو عقل . وفى الأصل الاعتقاد أن لكل شيء روحاً تنطق وتضمر . [المترجم]

الفصل الثالث والعشرون

الإغريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا للتقسمتان على نفسيهما تكابدان التدمير وتقل السكان بعد عهد سليمان (الذي حكم على الأرجح حوالي ٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينمى إبان الأسر البابلي ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر في العقل الإنساني ، هي التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون في الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدى للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنساني على الفاعرة الفكرية بطريقة وروح جديدين .

والقبائل الإغريقية - كما سبق أن معنا - فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ، انحدر إلى المدن والجزائر الإيجية قبل ١٠٠٠ ق . م بوضعة قرون . والراجع أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيه تحوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفرات الذي استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك في تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود في بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقت كنوسوس ، ولصكن لبس بين الأساطير الإغريقية ما يتغنى بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصا تتحدث عن مينوس ، وقصر « اللابيرات » ، وعن مهارة بعض الصانع الكريهين .

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مفضون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد نقلوا عن أيام شعبهم الهمجية الأولى ملحميتين عظيمتين :

(١) الإلياذة : التي تحدثنا كيف أن عصابة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى ، واستولت عليها وانتهت بها .

(ب) والأوديسيا : وهى مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم فى أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان اللحمتان فى زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جداً . وكاتتا نفسان فيما سلف إلى شاعر ضرير اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هذا الشاعر حقاً ؟ وهل ألف هاتين اللحمتين ، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ ..

الواقع أن هذا موضوع يلذ للعلماء أن يعرضوا له بالتفاس . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هذه المنازعات . وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا اللحمتين فى القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكاً مشاعاً لهما جميعاً وصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتغنمهم شعوراً بالزمالة ضد البرابرة^(١) . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب منشابة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم فى مثل عليها مشتركة من الشجاعة والسلوك .

واللاحق تظهر لنا الإغريق فى صورة الشعب الفطرى الذى لا يعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذى لم يسكن المدن بعد ، ويوح أنهم كانوا يسكنون فى البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال المدن الإيجية التى دمروها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنها بالأسوار ، وينقلون فكرة المعابد عن الشعب الذى غزوه .

وقد المعنا آتفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

(١) البرابرة اصطلاحاً من أعداء اليونانيين من الشعوب [المترجم]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على المبد . كما أنهم شرعوا يتبعون وينشئون المستقرات بكل مكان . فما وافى القرن السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت في أودية بلاد الإغريق وجزائرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيبية التي سبقها ؛ ومن أهمها أثينا وإسبارطة وكورثة وطية وساموس وميليتوس . وانتشرت المستعمرات الإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفي إيطاليا وصقلية . وكانت (كلب) الحذاء الإيطالي ومقدمه يسميان ماجنا جريكيا (بلاد اليونان الكبرى) . كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

والأقطار المكونة من سهول عظيمة أو التي تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كالفرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبي من إيطاليا (الماجانريكيا) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع ينزع صوب التفرق لا الاتحاد . وعندما ظهر اليونان في التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصغيرة التي لا يبدو عليها أى أثر للاتلاف . وكانوا يقبضون في كل شئ حتى في المجلس . فمن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أو الدورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطا من اليونان ومن سلاسل البحر المتوسط السابق لليونان ؛ ومنها ما فيه مواطنون أحرار من اليونان الخالص يتسلطون عليها وعلى سكانها القهريين المستعبدين شأن « الهيلوطيين » في إسبارطة . ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية القديمة المترعة ، طبقة أرستقراطية منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين ؛ بينما تولى الحكم بعضها الآخر ملوك منتخبون بل حتى وراثيون ، على حين كان في بعضها مفتصبون للعرش أو طفلة .

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيما بينها ، هي التي عادت عليها أيضاً بصغر الحجم . فإن أعظم دولها حجما أصغر من كثير

من المقاطعات الإنجليزية ، وإنا لنرى ريباً من أن سكان أية مدينة من مدنها زاد في يوم من الأيام على ثلث للليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفاً . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع الصلعة والتعاطف ، ولكن لم تنشأ أية وحدة واتلاف . ولما زادت التجارة راحت المدن تنشئ بينها العصبات وتعقد المحالقات ، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما السلام وعادة المساحة كل أربع سنوات في المباريات الرياضية التي كانت تقام في أولمبيا ، على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والنزاعات ، وإن خفف شيئاً مما تقسم به الحرب من وحشة وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما بمضى الوقت شعورهم بأن لهم إرثاً مشتركاً ، وتزايد عدد الدول المشتركة في الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل سمح بدخولها لتبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإبيروس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد في أثناء القرنين السابع والسادس ق . م . وتختلف حياتهم الاجتماعية في كثير من النواحي الشائعة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجه ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد ضخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التي كانت موجودة في مدن العالم القديم ، والتي كانت مستودع المعرفة كلها ، وتخزن الأفكار ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدس يحيط به بلاط يحكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالأحرى أرستقراطياً لعائلات مترعمة تقف إحداهما للأخرى بالمرصاد وتلزمها الجادة . وحتى النظم التي يسمونها بالديمقراطيات لم تكن في الواقع إلا أرستقراطية ، ولكل مواطن حر أن يشترك في الشؤون العامة بفضيب ، ومن حقه حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطياً ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطناً حراً .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتنا المصرية التي لكل إنسان فيها صوت . فإن كثيراً من تلك الديموقراطيات كانت تحتوي على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعقاة ومن إليهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشئون العامة .

وعلى وجه العموم كانت مقاليد الأمور ببلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملوكهم وطفاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحظيان فى ظلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها فى أى من المدن القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك « الشخصية الفردية » والمبادأة والابتكار الشخصى اللذين يعم بهما المتجولون الرحل فى أراضى الأحراش الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينما هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف للمشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من الكهنة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع ، أو تسلية الملوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والقطرسة . فإنا نجد فعلاً فى القرن السادس ق . م (بينما كان أشعيا لا يزال يتنبأ فى بابل) رجلاً مثل « طاليس » و « أناكسياندر الملىطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيسوس ، وهم قوم بمن نسجهم اليوم باسم السادة السراة ، نقدم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التى لاتصدر عن إعمال فكر ، أو تنطوى على التملص . وسنزيدك عما قليل بياناً عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريقى إلى هذا الكون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، وبلغت إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبى الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن نتوه بحظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد فى تاريخ البشر . ذلك

أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وخدم أول من جد في طلب الأفكار الخالصة
النافذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح « أشعيا » يسمو بالتنبؤ
اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا — كما سنحدثك فيما بعد —
كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كوتششوس » ولاوتسى (لاهوتسى)
ببلاد الصين . فكان العقل الإنسانى من أئتنا حق المحيط الهادى كان فى حركة
ونشاط دائمين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة يلاדם وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكري الحر ، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين في بابل وأورشليم يخلقون ضميراً حراً ، استولى شعبان آريان عاظران : الميديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا في عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع قبيز مصر ، كما لم يلبث دارا الأول اليدي ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق م) أن وجد نفسه عاجلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رسله يجوبون الطرق بمراسيمه على الحيل من الدردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان وأوربا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستظل « السلم الفارسي »^(١) ؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام ، ولم يجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بمجانب روسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأشقوذيون (الإسكيزيون) الذين كانوا دائمى الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة القائمة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

(١) السلم الفارسي : السلم الذي تقوم بصفاته دولة فارس بالمناطق التي يرفرف عليها علمها .
[الترجمة]

فأما سائر السكان فسكنوا على ما هم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة ، وكل ما جد في الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة والسالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشافتهما في الماضي للبناءان العظيمان على البحر للتوسط ، كما أن السفن السامية ظلت تبحر عباب البعار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركاً يجتمع فيه مصالحهم وتعاطفهم ، ويتمثل في التقاليد والكتب المنزلة العبرانية . وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة في تلك الإمبراطورية ، وهو الجنس الإغريقي . وتلفت الساميون فإذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر ، فضلاً عن أن ذكاهم الفياض البعيد عن الهوى جعل منهم موظفين نافعين غير متعيزين .

وكان الإسكيزيون هم السبب الذي من أجله غزا دارا الأول أوربا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب روسيا موطن الفرسان الإسكيزيين . فبصر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر يجسر من الزوارق وأوغل شمالاً ، فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان في معظم شأنه قوة راجلة من المشاة ، على حين راح الإسكيزيون - وهم من الحيلة - يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه ، فيقطعون عنه اللدد ، ويهلكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه في أية معركة فاصلة . واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مزرياً شائناً .

عاد دارا بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشاً في تراقيا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لدارا . ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها القنن ، وانجذب إغريق أوربا إلى حومة النزاع ، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوربا . ولما كان الأسطول الفينيقي رهن إشارته تسقى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسي على أثينا . وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من موانئ آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، وأزلت الحملة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينا . وهناك لقيهم الأثينيون وهزمهم شر هزيمة .

وفي تلك اللحظة الحرجة حدث شيء خارق . فقد كانت إسبارطة ألد منافس لأثينا يلاذ الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة تلتمس العون ، فأرسلت إليها رسولا

عداء سريعا ، يتوسل إلى الإمبراطورين ألا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا العداء (وهو التمرد في التالي لنظرائه من عدائي ماراثون) أكثر من مائة ميل من أرض وعرة في أقل من يومين . وهب الإمبراطورون نصرة إخوانهم في سرعة وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإمبراطورية أثينا بعد ثلاثة أيام ، لم تجد شيئاً تعمله إلا أن تشهد ساحة للعركة وجث جنود دارا المندحرين . هذا إلى أن الأسطول الفارسي كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسي على بلاد الإغريق .

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره في ماراثون بقليل ، وظل ابنه وخلفه اجزرسييس ، أربع سنوات يجهز جيشاً عظيماً ليسحق به الإغريق . وجمع الدرع كله الإغريق إلى حين . إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشاً في ضخامة جيش اجزرسييس . ولكنه كان جمعا هائلا مكونا من عناصر متنافرة . فبحر الدردنيل في ٤٨٠ ق . م بحس من الزوارق ؛ وكلما تقدم الجيش تحرك معه بمعاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه تخطا يحمل المؤن ، وهناك عند مضيق « ثرميلاي » وقفت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس الإمبراطور تقاوم هذا الجحافل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أيدت بأقلها بعد قتال أبديت فيه ما ليس له نظير من البطولة ؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الخسائر التي أزلوها بالفرس كانت فادحة ، وأطبق جيش اجزرسييس على طيبة^(١) وأثينا كسير الروح . وخضعت طيبة وكتبته شروط التسليم . وتغلى الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت في قبضة الفاتحين ، ولكن النصر عاد خلفهم رغم كل الظروف المضادة ، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريقي أخذ يهاجم الأسطول الفارسي في خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه . ووجد اجزرسييس أنه وجيشه العرمرم قد صاروا محرومين من المؤن ، خفاته شعاعته ؛ وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه ، تاركاً النصف الآخر لكي يهزم في بلاتيا (٤٧٩ ق . م) . وفي نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسي ويدمرونها عند ميكالي بآسيا الصغرى .

(١) طيبة : مدينة إغريقية - نرجو ألا يخلط القارئ بينها وبين سميتها العظيمة بصعيد مصر .
[المترجم]

لقد زال كل خطر فارسي . وباتت معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعاً بتفصيل عظيم وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول كتاب تاريخي مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . ولد هيرودوت حوالي ٤٨٤ ق . م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فجعل يزور بابل ومصر الخماسا للتفاصيل المضبوطة والملاحظات الصحيحة . وهوت فارس منذ معركة ميكاى في بحر من الفوضى والخلاف على العرش : فاغتيال اجزرسييس في ٤٦٥ ق . م ، وشبث الثورات في مصر وسوريا وبلاد الميديين ، قفضت على النظام الذى استتب أمداً وجيزاً على يد تلك الملكة الجبارة . وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب بما قد نسميه اليوم باسم الدعاية — فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت ليجعل من أرتاجوراس إحدى الشخصيات المذكورة في كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا في القتال ، وأنتم من جهة أخرى بلغتكم اليوم أقصى المهارة في الحرب .. وليس ثم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون ؛ من ذهب وفضة وبروز وثياب موشاة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقاً .. » .

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق في صراع على السطوة والعزة استيأست فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (وهي حرب البيلوبونيز ٤٣١ - ٤٠٤ م) وأنه حدث في ٢٣٨ ق . م أن أصبح المقدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن الفكر الإغريق وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفن فيهم سمت في تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظام الأعمال نبراسا تستهدى به البشرية على كر التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس الفكر والمركز الأساسي لذلك النشاط العقلي . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ - ٤٢٨ ق . م) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذي نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذي أزلها بها الفرس . والآثار الجميلة التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بناءها من الناحية العسكرية أيضا . فلم يكتب بركليس بأن يجمع حوله المعايين والثالثين وحدهم ، بل حشد أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والعلمين . وفي عهده جاء هيروdotus إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس (٤٣٨ ق . م) كما جاء أناكزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف على الشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرفعة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهبية دفعة خلت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام يبلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يلوح أن تلبد الأفق السياسي بالغيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان الناس لا تثييطها .

وقبل عهد بركليس بزمان طويل كان جو الحرية العجيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يعنى أهمية كبرى على المهارة فى المناقشة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً لملك ولا كاهن ، بل كان بيد جميعات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار فى الجدل مزايًا مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من الملعين ، هم السفطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطبيعي جداً أن يؤدى نشاط هؤلاء السفطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى ، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل . وعندما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كنافذ قدير للجدل الردىء — ولا تنسى أن الشيء الكثير من تعاليم السفطائية كان جدلاً من النوع الردىء . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكاء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق م) ، لحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أئينا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائماً على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته .

وكان أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) من أعظم هؤلاء الشبان ، فصرع من فوره . يعلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

(أ) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه .

(ب) البحث فى النظم السياسية .

وهو أول من كتب كتاباً فى اليوتوبيا (الطوبى) ، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر يتم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضرب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف للألوف ولا يكاد يقلب فيهما فكراً أو يحشهما بسؤال واحد . قال أفلاطون للإنسانية بصريح العبارة :

« إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التى منها تقاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تغيروا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبمنا وتكتشفوا بالدراسة كنهه ، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة . ولا شك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة والمغامرة ، وأنه لم يتغفل بعد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشرى ولا بد لها من تشربه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذى لم يتعه فهو كتاب « القوانين » ، وهو يرسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) مماثلة لتلك .

وجاء أرسطو الذى كان تلميذاً لأفلاطون فواصل بعد وفاة أستاذه تقديم مناهج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم فى الليسيوم . وقد أرسطاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً بلالط العاهل المقدونى ، وقضى أرسططاليس بعض الزمن معلماً للاسكندر ابن الملك الذى قدر له أن ينجز أعمالاً عظيمة جداً مستحكم عنها قريبا وقد أدت جهود أرسطو فى مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازماً له مدة ألف وخمسمائة من السنين أو تزيد ، أى حتى عاد رجال العلم فى العصور الوسطى إلى تناول المسائل العتيقة من جديد ، لم ينشأ أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) ، ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى مصادره ؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحيحة المحققة أعظم كثيراً مما يملك ، ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التى نسميها اليوم باسم « العلم » ، فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق ، وهو أبو التاريخ الطبيعى ، وهو المؤسس لعلم السياسة ، وقام تلاميذ فى الليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض .

فنحن نجد هنا وفى القرن الرابع ق . م قوما ذوى تفكير عبرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة ونقادة ، وهنا أيضاً حمل تماماً كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة ، كما تلغى جميع المظهورات (التابوهات) والمخاوف والقيود ، التى ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان ، لقد ابتدأ التفكير الحر للضبوط المنظم ، إن الذهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثاً من الغابات السبالية ، قد ألغى نفسه فى صميم خفايا العبد وسمح لضوء النهار بالنفاذ إلى غيابتها .

الفصل السادس عشر

إمبراطورية الإسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق . م وفي نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجيا ، وهي قطر يقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض صلات القرى والمشاة ، وكان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريق ، وكثيرا ما اشترك المتبارون المقدونيون في الألعاب الأولمبية ، وفي ٣٥٩ ق . م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقدوني ، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رهينة ؛ وتلقى تعليما إغريقيا بحنا ، ولعله كان ملما بأراء هيرودوت ، التي طورها ونماها الفيلسوف إزوقراطيس ، والتي تقول بإمكان اصطلاح بلاد الإغريق — إذا اتحدت كلها — بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه ، فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت في أثنائها العجلة التي تقوم بالهجوم ، هي العامل الحاسم في المارك ، وذلك عدا الجنود المشاة المتراسة في القتال ، وكان الفرسان يقاتلون أيضا ولكن بوصفهم سربا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون في كتلة كثيفة متراسة تراسا شديدا ، هي الفيلق المقدوني ، كما درب وجهاء قومه الرابكة (وهم الفرسان أو الرفاق) على القتال في تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الحيلة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الحيلة أهم الحركات في معظم معاركه ومعارك ابنه لإسكندر ، فكان الفيلق المقدوني يصد مشاة العدو على حين كانت الحيلة تتجتاح فرسان العدو في الجناحين ثم تنثال على جانب مشاته ومؤخرتهم ، وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقه الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق. م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبذا أخذ حلم هيرودوت يؤتى ثماره في آخر الأمر ، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فعين فيليب قائداً عاماً لاتحاد مقدوني إغريق ضد فارس ؛ وفي ٣٣٦ ق. م عبرت فرقة الحرس الأمامي البحر إلى آسيا لتبدأ هذه الغامرة التي طال التفكير فيها ، ولكن الملك لم يلبق البتة ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يتفقد بعضهم بتحريض من زوجته للملكة أولمبياس أم الإسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالنفيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

يبد أن فيليب عني عناية فائقة بتربية ولده . فلم يكنف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للغلام الصغير ، بل أشرك الصبي أيضاً في آرائه ودرسه تدريجاً عسكرياً تاماً ، فجعل الإسكندر قائداً للخيالة في معركة خيرونيا آتفة الذكر وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره ، وبذا تسنى لذلك الشاب الذي لم يزد عمره على العشرين ، يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالغامرة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق ، قضاها في إخماد ما شب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق. م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً في معركة جرانيسكوس ، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى ؛ لزم الإسكندر ساحل البحر ، وكان من الضروري عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كلما تقدم في السير وأن يتركها الحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبذا كانت لهم السيادة البحرية . فلو أنه ترك وراءه ميناء معادياً دون حامية تحرسه ، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجعتهم . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق. م) بجمع هائل محاط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش المائل - شأن جيش إجزرسييس الذي عبر الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف - جماً من المجهدين غير متناسق ولا مترباط ، بهظه حشد كبير من موظفي البلاط فضلاً عن حريم دارا وكثير ممن يتعقبون للسكرات التماساً للرزق ، وسلمت صيدا للإسكندر ، ولكن صور قاومت بضاد ، وأخيراً فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتهت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضاً عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق. م دخل القامح مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرونه بالشام ، والإسكندرية بمصر في موضعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصحان غير قادرتين على التمرد عليه . وإلى هذين المرفأين حولت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يختفي من التاريخ على حين بقة فينيقيو الحوض الغربي للبحر المتوسط — وبفس الطريقة الفجائية يظهر يهود الإسكندرية والمدن التجارية الأخرى التي شيدها الإسكندر .

وفي ٣٣١ ق م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله نحموش ورمسيس ونحاش . بيد أنه سار بطريق صور . وعند أريلا (إربل) بالقرب من أفاض نينوى التي كانت قد غفى عليها آنذاك النسيان ، التقى بدارا في معركة حاسمة . وبات هزيمة المجلات الفارسية بالفشل ، وحمل الحيلة القديون على ذلك الجيش العظيم المخطط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة المغير مرة أخرى ، بل فر شمالا إلى إقليم الميديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل . وكانت لا تزال بلدا ثريا هاما ، ثم إلى سوسا (سوس) وبرسيوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيه الخمر ثم أمر في أعقابها بحرق قصر دارا ملك الملوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميدانا عسكريا لعرض جيشه على الأنظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية ، متجهاً بادي الأمر نحو الشمال ، وتمقّب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يلفظ في غربته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شعبه ، وكان لا يزال على قيد الحياة عندما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية .

وجاء الإسكندر فوجده قدمات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل في جبال التركستان الغربية ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التي أسسها) وكابول وممر خير ، والتحم في معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندي اسمه بوروس ، وهنا التقت الجنود القديونية بالفيلة لأول مرة ودحرتها ، وانتهى به الأمر إلى أن ابتقى لنفسه سقناً انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاد سيراً على الأقدام بمحذاء ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية في ٣٢٤ ق م بعد غيبة دامت ست سنوات ، وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وشد ما بين أجزائها من روابط ، فحاول أن يفوز بمحبة رعاياء الجدد ، بأن اتخذ ثياب الماهل الفارسي وتاجه ،

فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد فران كثير من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات ؛ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب » ، على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذى أعد عدته ، إذ اتنابه حتى بعد وليمة شراب أقامها في بابل فمات في ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وقبض سلوقس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس ؛ واستولى على مصر قائد آخر هو بطلميس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس ، أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من الصامرين المحليين . وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تقمع مجالا وتزداد حدة ، حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية التى جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعاً في إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

الفصل السابع والعشرون

متحف الإسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجاراً وفنانين وموظفين وجنوداً مرزقة ، ينتشرون في معظم الممتلكات الفارسية . وقد حدث في أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفاة إجزرسيس ، أن فئة من مرزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندي لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون (زينوفون) ، ولهذا القائد كتاب أسماء « تهمقر الآلاف العشرة » وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد في أثناء توليه القيادة — يصف عودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الآسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق ولغتهم وطرائقهم وثقافتهم في أرجاء العالم القديم ؛ فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع . وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقاً .

ظلت أثينا قروناً عديدة محتفظة بتفوقها كمركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أي أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط العسكري في العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهي المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدوني بطليموس قد أصبح فرعونا على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لفته الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للإسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً في دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة وإقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتاباً عن حملات الإسكندر ، لم يعثر عليه لسوء الحظ .

وكان الإسكندر قد رمد مبالغ هائلة من المال للاتفاق منها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليموس الأول كان أول من حبس على العلم منعا وهبات مستديمة . فأقام

بالإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذى خصص بصفة رسمية لربات الفنون
Musea ، واتقضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التى تجرى فى أثناءها بالإسكندرية
بمنازة الجودة ، وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلماء الطبيعة ، من ألمع
نجومها إقليدس وإراتوستينز الذى قاس حجم الأرض ووصل فى تقدير قطرها إلى نتيجة
تقل عن قطرها الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى ألف فى « القطاعات
المخروطية » وهيارخوس الذى رسم أول خريطة للسماء وصنف أقدم فهرس للنجوم ،
وهيرون مخترع أول آلة بخارية ، وجاء أرشميدس من سيراكوزة إلى الإسكندرية ابتغاء
الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالمتحف ، وكان هيروفيلوس من أعظم علماء
التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

واتقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم فى أثناءه بطليموس الأول والثانى ، وتأنجت
فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضربيا حق
القرن السادس عشر الميلادى ، بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تعمر طويلا ، وربما
اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهافى أن
المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذى يعين جميع أسانذتها ومساعدتهم
ويدفع لهم أجورهم ، ولم يك فى ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس
الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالمة تجمست بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان حكمته مصر
والتطورات الدينية المصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجرى من عمل ، ولم يلبث
إشرافهم عليه أن خفق روح البحث والتقصى خنقا تاما ، لذلك لم ينتج للمتحف بعد
القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة
متوخيا فى ذلك روحا عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية
لتكون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع
للكتب ، بل كانت أيضا مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب ويعمها ، فقد جرد حشد كبير
من النساخ للعمل للتواصل مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فإننا نجد فى هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المحددة للحركة

الفكرية التي نعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة . فإنشاء هذا النصف وهذه المكتبة يعد إيدانا بيده إحدى الحقب العظيمة في تاريخ العالم . فهي البداية الحقة للتاريخ الحديث .

وكان يترضى طريق البحث العلمى ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة . منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التي تفصل الفيلسوف — وهو سيد مذهب — عن التاجر والصانع . كان صانع الزجاج والمعادن في تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن لم يكن بينهم وبين الفكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الحرز والقوارير وغيرها ألوانا ، بيد أنه لم يصنع ألبة فنيّة فلورنسية ولا عدسة من العدسات . ولا يبدو أن الزجاج الصافي لقي منه اهتماما . وكان صانع المعادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات ولكن أحدا منهم لم يصنع أبداً ميزاناً كيميائياً وفي نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل في رفع حول الثروات وطبيعة الأشياء ، ولم تكن لهم خبرة عملية بالبناء ولا الأصباغ ولا أشربة توليد الحب إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم صنعت فرصتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء . ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط في رفع الماء أو في دفع قارب أو في عمل أى شئ نافع . وقد أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا في مضار الطب ، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفزّه ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحدّثه تلك التطبيقات من هزة في النفوس . لذا لم يكن هناك شئ يدعو إلى الاستمرار في العمل عند ما ولى بطليموس الأول والثاني وزال أرجهما للاستطلاع . ولذلك أيضاً دونت مستكشفات النصف في غطوطات خفية غامضة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى بحث حب الاستطلاع العلمى في عصر النهضة .

ولم تنتج المكتبة — من ناحية أخرى — أية تحسينات في صناعة الكتب . ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينة الحرق ورقا له حجم معروف . ذلك أن الورق اختراع صيني لم يصل إلى العالم الغربى إلا في القرن التاسع الميلادى . وأما للسواد الوحيدة الستعلمة في صنع الكتب فهي الرق وسلخات (شقائق) قصب البردى الموصولة حروفها بعضها ببعض . وكانت هذه الشقائق تجعل في صورة ملفات . من أخطر الأمور فتحها ولفها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جداً لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك هي الموانع التي حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذي الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة في العالم ، منذ زمن سحيق لعله العصر الحجري القديم ؛ فقد وجدت الأختام في بلاد سومر العتيقة ، يدل أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تنطوي على تقدم لم يكن بد من أن يلقى المقاومة من نقابات العمال رعاية لمصالح النساخين المستخدمين في صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتباً وفيرة ولكنها ليست بالرخيصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتا بين سكان العالم القديم إلا في مستوى الطبقة الموسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكري لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطليموس الأول والثاني . كان مثلها كمثل نور في مصباح مغمى يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشعلة في الداخل وهاجة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فإنها سارت طرائقها القديمة دون أن تدري أنه قد بذرت بذرة المعرفة العلمية التي ستحدث فيه انقلاباً تاماً في يوم من الأيام وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الديني وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومر على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذي غطى على البذرة التي بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تنبت . وما هي إلا بضع قرون حتى غدت تلك البذرة دوحة المعرفة الفارعة وسدرة الأفكار الخالصة التي تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الإسكندرية هي المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكري في القرن الثالث ق . م . فإن بين الحطام المتداعية المتخلفة عن إمبراطورية الإسكندر القصيرة الأمد ، مدناً أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلاً مدينة سيراكوزة الإغريقية بصقلية ، التي ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى ، التي كان لها هي أيضاً مكتبة عظيمة . يدل أن هذا العالم الهلنستي الوفاة الذكاء أصيب آنذاك بغارات أهل الشمال . فإن همجا نوردين جداً هم « الغاليون » ، كانوا يسرون في نفس الطرق التي اخترقها يوماً ما أسلاف الإغريق والفريجيين والمقدونيين . كانوا يغيرون ويحطمون ويدمرون . وجاء في أعقاب الغالين شعب فاتح جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربي من مملكة دارا والإسكندر الهائلة . كانوا قوما ذوي كفاءة واقتدار . ولكنهم

معمرون من نعمة الحبال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العلم والفن .
ونعمة غزاة جدد كانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية
ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربي وبلاد الهند من اتصال ، وكان
هؤلاء هم الأشغانيون (البارثيون) ، وهم أرهط من رماة القسي الراكين ، فعاملوا
إمبراطورية برسيوليس وسوس الإغريقية الفارسية في القرن الثالث ق . م نفس المعاملة
التي عاملها بها اليديون والفرس في القرن السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام
آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقي ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا
نورديين ولا ناطقين بالآرية ، بل كانوا ذوى جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة
مفولية ، على أننا سنزيدك بهم بيانا في فصل تال .

الفصل الثامن والعشرون

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أوشك أن يحدث انقلاباً ثورياً في فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينية . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا ، الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالهند في نفس الوقت الذي كان أشعيا تنبأ فيه بين اليهود في بابل ، والذي كان هيراقليطوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون في العالم في وقت واحد في القرن السادس ق . م . دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق أن هذا القرن السادس ق . م من أجدر عصور التاريخ باللاحظة . ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تفتت في بلاد الصين أيضاً كما سنبلى إليك فيما بعد . وفي كل مكان ، كان الناس يستيقظون مماران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرايين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا ونفاذا . وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضاً جداً . ففي زمن ما لعله يقارب عام ٢٠٠٠ ق . م هبط الهند من الشمال الغربي شعب ناطق بالآرية ، إما في غزوة واحدة وإما في سلسلة متعاقبة من الغزوات ، فاستطاع أن يشرق لغته وتقاليد فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السنسكريتي . فوجدوا في إقليم السند والكنج شعباً أمراً رقيقاً حضارة وأصنف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التي تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنه بمعزل . حتى إذا مرت الأيام أصبح ماضي الهند مرثياً للمؤرخ على غشاوة تغطيه ، وإذا بالمجتمع الهندي مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لا تنأكل بعضها بعضاً ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطاً حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبقي إلى طوائف يستمر

أمد التاريخ كله . وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والتفوية البسيطة السهلة الزواج ، فهم في الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيدانا جوتاما أحد أبناء عائلة أرستقراطية تحكم قاطعة صغيرة على منحدرات الهملايا . فزوج وهو في التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول في غالة الشمس السكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز للقمورة بالمياه ، وفيها هو ينعم بتلك الحياة حل به تدمير عظيم . كان ذلك هو شعور التعماسة الذي يحسه العقل المتناز الذي يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التي يحياها لم تكن هي الحياة الحقة ، وأنه كان في عطلة سدامت أكثر مما ينبغي .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والفناء ، وبأن جميع أوان السعادة غير مأمونة وغير مرضية ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد للتجولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يقبعون في عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطرا طويلا من وقته في التأمل والحوار الديني ، وكان للفروض أنهم يفلقون وراء أعمق ما في الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة في احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بصره أبنائه . فقال جوتاما « وتلك رابطة أخرى لا مفر من نصمها » .

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة ورفضت الرقصات احتفالا بميلاد هذه الصلة الجديدة ، ولكن جوتاما استيقظ في موهن الليل والألم الروحي العظيم يلذع فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار في منزله » فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التي لا هدف لها ، فتسلل إلى باب غرفة زوجته ، فراها على نور قنديل زيت صغير وهي ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويحاضه عنقا يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل ، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيرا ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندي الساطع واستطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار في تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضي عشيرته ، وترجل على ضفة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبه للتهذلة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيره حتى التقى — للوقت — برجل في أسمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدينية أصبح حراً في متابعة بحثه وراء الحكمة . وأنجه جنوباً إلى مئوى للناسك والمعلمين يقوم على طنف ^(١) بين التلال بجبال الهنديا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شغوا بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما ضليماً بكل علوم ماوراء الطبيعة في عصره . غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالحلول التي قدمت إليه

والعقل الهندى ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هذه الأفكار في بوتقة الاختبار ، فأنطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهب التفكيرات . وطار صيته : « كرين جرس عظيم معلق في قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجتلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة . وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وجيئة ، محاولاً أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظريه سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فألقى الرعب في أقدرة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل بلوغ أية حقيقة هى العقل الجيد والتغذية في جسم سليم . وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر . فهجروه تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجول بمفرده . . .

والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة . فإنه يتقدم في سبيل الفوز خطوة في إثر خطوة ، دون أن يدرك إلا قليلاً قدر المكاسب التي أحرزها ، وإذا هو يدرك نصره .

(١) الطنف : ما نتأ من الجبل .

ومحققه على حين بئته مع إحساس بالاستنارة المفاجئة . وهذا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به . فلاح له أنه يروى الحياة تقية واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليله في تفكير عميق ؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فشادوا لأنفسهم في حديقة الغزلان الملكية بينارس أكواخا وأقاموا مدرسة وقد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذى وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس . وهو سؤال يختلف اختلافا كبيرا في النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والموجه نحو العالم الخارجى — حب الاستطلاع الذى كان طاليس وهيراقليطوس يحاولان به تفهم مشكلات الكون ، كما يختلف كثيرا عما يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أوآخر الأنبياء يفرضونه في العقل العبرانى فرضاً .

فالمعلم الهندى لم ينس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها . وعلم الناس أن كل ما يقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . فحق يخضع المرء لتلفاته الشخصية ، فصياته متاعب ونهايته شجن .

والتلطف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشرهة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانيها الرغبة في الخلود الشخصى والأناى ، وثالثها التفات على النجاح الشخصى وحب الدنيا والشح وما إليه . ولا بد من التغلب على أنواع هذه الرغبات التماسا للفرار من عن الحياة وأشجانها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « الرقانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك في أنه مذهب خفى جداً وميتافيزيقى ، وهو لا يكاد يدانى في سهولة الفهم وصية الفلسفة الإغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الوصية المبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان تعلما يعلو كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما للتصلين به اتصالاً مباشراً . فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصى يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يتم أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب ولم تكسب تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائماً قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أمحوبة مدهشة جداً .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت « الزفانا » أعلى وأدق من أن يتساقى إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئاً من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثماني » ، وهو الطريق الآرى أو النبيل فى الحياة . وهذا « الطريق » ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة للنطوية على نسيان الذات .

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة - أول التعاليم البسيطة الهائلة بأن أعلى درجات الخير للإنسان هي في إخضاع النفس - لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم. ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم.

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقا تل ملكها «بوروس» على ضفاف نهر السند. ويروى مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه شاندراجوبتا موريا وقد على معسكر الإسكندر وحاول أن يقتله بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا، ولم يستطع الإسكندر أن يفعل ذلك لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول، ثم تمكن شاندراجوبتا فيما بعد (٣٢١ ق م) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الإغريق. فأسس إمبراطورية في شمال الهند، وسرعان ما تسى له في (٣٠٣ ق م) أن يهاجم ممتلكات سلوقس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي، وبسط ابنه رقعة هذه الإمبراطورية الجديدة، ووجد حفيده «آسوكا» - وهو العاهل الذي تسكلم عنه الآن - نفسه في ٢٦٤ ق م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس.

وكان آسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية. فزكا لينجا (٢٥٥ ق م)، وهي إقليم على ساحل مدراس الشرقي، وأوقى النصر في عملياته الحربية، ولكن بلغ من اشمئزازه من قساوة الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها وبندھا فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا. وزهدت فيها نفسه تماما. وتبنى مذهب البوذية السلمي، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا في ميادين الدين.

وكان حكمه الذى دام ثمانية وعشرين عاما من أزهى فترات الهدوء الجميلة فى تاريخ البشرية المضطرب . فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند ، ولزوع الأشجار للتظليل وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تروى فيها الأعشاب الطبية . وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاصة . واتخذ عدة اللامزة لتعليم النساء . وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يبعثهم على قد المؤلفات الدينية الشكسة لديهم فقد أحسن وأقوى أثرا . ذلك أن للفاسد والحزبيلات سرعان ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك للعلم الهندى العظيم . وانطلقت البعوث الدينية من لدن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ذلكم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقا لعصره بزمن بعيد جدا . ومن أسف أنه لم يخلف من ورائه أميرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، لقدام تكسب تنقضى مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبت بها أيدى التمزق والانحلال ، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية ، وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة . فراحوا يقوضون على التدريج نفوذ البوذية فى البلاد ، واستردت الآلهة القديمة البشعة سلطانها ، هى والعقائد الهندوكية التى لا عداد لها . وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداها إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحمل عليها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند جيدا عن سلطان نظام الطوائف - حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ، وهى بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

الفصل الثالثون

كونفوشيوس ولاهوتسى

بقى علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتسى (لاوتسى) ، اللذان كانا يعيشان في ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن في كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين في عهدها الأولى ولا يزال الغموض يغطى إلى اليوم ذلك التاريخ الباكر ، وإنا لنشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار يبلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأً جديداً راجين أن يمحطوا للثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوروبا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية في وديان الأنهار العظيمة منذ زمن مسبق جداً متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) الأولى . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اتسمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تركز حول المعابد التى كان الكهنة واللوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية . ولا بد أن الحياة في هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جداً بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فلا قرابين إنسانية ، فقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ . كما أن ضرباً من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م .

وكما أن الحضارات البدائية في أوروبا وآسيا الصغرى كانت في كفاح مع مرحلة الصحراء ورحل الشمال ، فكذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المتأهلة

لغة وطرائق عيش ، يتحدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهون والمغول والترك والتار كانوا يتغيرون ويتقسمون ثم يعودون فيتحدون ، على نفس الشاكلة التي كانت الشعوب الآرية في شمال أوروبا ووسط آسيا ، تتغير بها وتختلف في الاسم دون الجوهر . وقد ملكت هذه الشعوب المغولية المرحلة الحصان قبل الشعوب النورية ، ولعلهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقة جبال آلطاي ١٠٠٠ ق . م زمن ما . وكما حدث في بلاد الغرب ، فإن هؤلاء المرحلين الشرقيين كان يتكون بينهم الفينة بعد الفينة صرب من الوحدة السياسية ، ويصبغون غزاة وسادة ، وباعتين للصوية في هذا الإقليم المستقر المتحضر أو ذاك .

ومن المحتمل جداً أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأي حال ، شأنها في ذلك شأن الحضارات في أوروبا وآسيا الغربية التي لم تكن نوردية ولا سامية . ومن الجائز جداً أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سنراء ، كما كانت عمالة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والدرافيدية ، وأن ابتداء أول تاريخ سجل للصين قد حدثت قبله فتوح كثيرة واختلاط بين الأجاس .

ومهما يكن الأمر فإننا نجد أنه لما وافق ١٧٥٠ ق . م . كانت الصين مكتوبة صلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودور المدن ، وكلها تعترف بولاء مفككت نرى . وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة ، وغير محددة تقريباً ، للإمبراطور كاهن واحد : هو « ابن السماء الكاهن الأعظم » . وانتهى حكم أسرة « شانج » في ١١٢٥ ق . م . وحققها أسرة « تشاو » ، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر مدت حتى عهد تشوكا بالهند والبطالة بمصر ، وأخذت الصين تتعرق وشعظم على التدريج في أثناء حكم أسرة « تشاو » الطويل . وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات ، وقطع الحكام المحليون الحرية وأصبحوا مستقلين . ويقول أحد ثقاف الصينيين إن البلاد كان بها في القرن السادس ق . م خمسة عشر مقاطعة مستقلة تقريباً . وهذا العصر هو الذي يسميه الصينيون في سجلهم باسم « عصر الفوضى » .

على أن عصر الفوضى كان ملائماً لفشوء شيء كثير من النشاط الفكري ، ووجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المتحضر . وسنجد عندما نزداد علماً بتاريخ (١٠ - تاريخ العالم)

الصين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالتي لعبتها ميلتيوس (مليطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإننا سنلزم الإيجاز والعموض في الوقت الحاضر في حديثنا عن فترة الانقسام الصيني هذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفي لصوغ قصة متمسكة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نشأ في اليهودية المعلمة بالمأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ في الصين المختلة النظام الفلاسفة والمعلمون في ذلك الأوان . وفي كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والخيرة قد بعثت أحسن العقول إلى العمل الناشط . كان كونفوشيوس رجلاً أرسقراطى الأصل تولى بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهذا المثل به حالة شديدة المائالة للزرعة العقلية الإغريقية ، فقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحره كثيراً ما يقضى الصين من فوضى وخروج على القانون . فاختط لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ ينتقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بفكراته في التشريع والتعليم وينفذها . ولكنه لم يعثر قط على ذلك الأمير؛ أجل إنه وجد أميراً . ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت في النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليوناني أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونه غف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان مستشاراً للطاغية دبونيسيوس الذي كان يحكم سيراقوزه بصقلية .

مات كونفوشيوس محطماً الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذني أستاذاً له ، وها قد حانت منيتي » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سنى شيخوخته وتحطم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم في تكوين الشعب الصينى ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والضربان الآخران هما تعاليم بوذا ولاهوتسى

ويتلخص مذهب كونفوشيوس في طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرسقراطى ، فإنه شغل بشوك الشخص انشغال جوتاماً بالسلام الراجع إلى نسيان النفس ، وانشغال الإغريق بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كانت أعظم المعلمين الكبار اهتماماً بالشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتماسكه ، كما أنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه في إيجاد عالم نبيل ، لذا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تعوق كل مألوف ، وأن يدبر القواعد الدليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد المهبذ الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى النثل الأعلى الذى وجدته يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والغموض والحايال من مذهب كونفوشيوس . وقد شغل لاهوتسى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية ، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الروافيين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى ألغاز . وبعد وفاته أسيدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتفتتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطفوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجاً على المألوف .

وحدث فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت أفكار السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستاراً سايلاً من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية (التى تنسب نفسها إلى > سيد كبير إلى لاهوتسى) ، كما نجدهما اليوم يلاذ الصين ، ديانة راهب ومعبود وكاهن وتقريب فرائين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلاً إن لم تكن كذلك فكراً وموضوعاً كديانات القرايين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهباً محدوداً وواضحاً ومستقيم المنهج . كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشوهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يحترقه نهر هوانج هو كونفوشيا فى فكره وروحه ، وغدت الصين الجنوبية التى يحترقها نهر اليانج تسي كيانج ، تاوية المذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شجر بالصين بين هاتين الزعتين: نزع الشمال ونزع الجنوب ، أى بين ييكين ونانكين (فيما عقب ذلك من أيام) ، بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموطنين ، وبين الجنوب للتشكك الليال إلى الفنون والتراخى والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين في أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها في القرن السادس ق.م، وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها التعس وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد في تلك الأيام ثلاث دول تدين بتبعية اسمية للإمبراطور ، هي « تسى » و « تسن » وهما دولتان شماليتان ، و « تشوئو » التي كانت دولة عسكرية ميلة إلى العدوان في وادى اليانج تسى . وأخيرا كونت تسى حلفا مع تسن ، وأخضعتا تشوئو وفرضتا في البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسن أن صارت هي الغالبة . وانتهى الأمر في زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسن على أوعية القربان التي للإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية . ومدونات الماريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج فى (الذى أصبح ملكا ٣٤٦ ق . م وإمبراطورا فى ٣٢٠ ق . م) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان شى هوانج فى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاما فضاها ملكا وإمبراطورا . ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والافتداز بداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون الغيرين من الصحارى الشمالية أشد القتال ، كما أنه بدأ ذلك العمل السرى ، وأعنى به سوير الصين العظيم ، ليحد من اعتداءاتهم

الفصل الحادى والثلاثون

ظهور روما على مسرح التاريخ

سيلحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقصى الهند وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحجرية (الهوليثة) أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفينة الخصبة بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرايينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والكاهن والحاكم .

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما هم أولئك الشعوب السحراء الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها المترحلة من أقاليم الحشائش الموسمية والمهجرات الموسمية ، ففرضوا خصائصهم بل حتى لغتهم أحيانا على الحضارة البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين ؛ فإنهم أخضعوها ونهبوها ، وحفزتهم هى بدورها إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهناك شيئا آخر .

أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين ، وأخيرا النورديين من الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خمار الحفز والتنبه ، وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيها هم الحافظ المنبه ، وكان الحافظ الذى أنعش الهند هو أصحاب اللسان الآرى ، أما مصر فكان اندماج الغزاة فيها أضنف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان ؛ أما الصين فكان الهون يغزونها فتمتصهم ثم يعقبهم هون جدد . وصغت الصين بالصبغة المغولية كما صبغت بلاد الإغريق وشمال الهند باللون الآرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان المترحلة يدمرون حيث يحلون تدميرا عظيما ، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقى . راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة ؛ فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المعبد ، وأقاموا ملوكا لم يكونوا كهنة ولا آلهة بل مجرد زعماء لقوادهم ورفاقهم .

وإننا لنجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصيبت بإصابة محيطة . وأن روحاً جديدة من البحث الخلقى والذهنى قد استيقظت ، وهى روح لم يتيسر لأحد بعد ذلك أن يجمعها تماماً فى خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيلاً عادياً سهلاً للمال لدى الأقلية الحاكمة الموسرة ، ولم تعودا بعد ذلك سرّاً يحتفظ بهما الكاهن فى حرص واستئثار . ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تنهأ للناس من خيل وطرق ممهدة . وظهرت العملة المسكوكة فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسنقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين فى أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر للوسط . وهنا نجد لزماً علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب فى النهاية دوراً عظيماً فى الشؤون الإنسانية : ألا وهى مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن فى قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغيابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية فى شبه الجزيرة وأنشأت مدنّاً وبلدانا صغيرة ، كما أن طرفها الجنوبى كانت تنتثر عليه المستعمرات الإغريقية . ولأنزال الأطلال الفاحرة لمدينة بايسم تحفظ لنا إلى يومنا هذا بنية من الأبهة والجلال التى كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكورة . وكان شعب غير آرى ، لعله من دوى قربي الشعوب الإيجية ، وأعنى به الإترسك ، وطد قدمه فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية متنوعة . وعندما تظهر روما فى ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر النير ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتواريخ القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق . م بدءاً لتأسيس روما ، أى بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن الحفر فى السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور إترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق . م .

وفى هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق . م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق . م) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فىمن عداها من عامة الشعب (البلييان) .

ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاتيني ، ما شعر أحد ببارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلى بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عند قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب فى الحكم . ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع ، ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البلييان) معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات ، وتساووا معهم مساواة واقعية . فقصوا على اغتزال البطارقة القديم وجعلوا من اليسور والمقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً مزايده من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت ردحاً من الزمان تسكن فى الداخل ، على حين كانت تمد سلطانها فى الخارج .

وشرع الرومان يبسطون سلطانهم فى القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين فى حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهى بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما . قلعة إترسكية ، هى قلعة فىاى ، التى لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها . على أن الإترسك حلت بهم فى ٤٧٤ ق . م نكبة جاثمة ؛ إذ دمر إغريق سيرا فوزه بصقلية أسطولهم .

وفى نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من الغيرين النورديين ، هى موجة الغالة . فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة . سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فىاى . وتقدم الغالة إلى روما وانتهبوا المدينة (٣٩٠ ق . م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا الكايتول . فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلى مباغت ، وانتهى الأمر بأن اقتدى الرومان أنفسهم وحررتهم بالمال ، وراجع الغالة إلى شمال إيطاليا

ويلوح أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وتمثلهم ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلى . وقد بلغوا هذه البسطة فى السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م يضع سنوات ، وكانت فتوحهم فى إيطاليا تحدث فى نفس الأيام التى تم فيها بقوة فيليب فى مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر الهائلة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم الممدن إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تآثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق للنشأة بماجنا جريكيا ؛ وأغنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكعبها . وكان الغالة شعباً حرياً شديد المراس . حافظ الرومان على حدودهم معهم بنحط من القلاع والمستعمرات المحصنة . فأما المدن الإغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهي مدينة تارانتو الحديثة) وسيراكوزة . فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم ، وكانت تتلفت من حولها تلتمس ناصراً يجنبها على هؤلاء القزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إربا عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء المغامرين أمير من ذوى قرابة الإسكندراسمه بيروس ، وطد ملكه في إيروس ، وهي وراء البحر الإدرياتي قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع في أن يلعب من « الماجانريكيا » دور فيليب المقدوني معها ، وأن يصبح حاميا وسيداً عاما لمدينة تارنتم وسيراكوزة وباقي ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه جيشاً أعظم الكفاية ؛ كان لديه فيلق من المشاة وكتيبة راكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارع في كفايتها الحيلة المقدونية الأصلية ، وثم خمسة وعشرون فيلًا مقاتلاً ، فغزا إيطاليا وبدشمل الرومان في موقعين عظيمتين إحداهما معركة هراقليا (٢٨٠ ق . م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق . م) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

يبد أن هذا جلب عليه عدوا كان في ذلك الحين أرهب جانبا من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية ؛ التي لعلها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ، إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قريبا لا يستطيعون معه أن يرجعوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها ، كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذي حل بأهمهاصور قبل ذلك بنصف قرن ؛ لذلك أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات بيروس ، فوجد الرومان مهاجمونه من جديد ، ويحطمون بنصف ساحق هجومًا قام به على معسكرهم في بنقش بين نابلي وروما .

وعلى حين بفترة وردت إليه أنباء اضطرتة للعودة إلى إبيروس . فلن الغالة أخذوا يغيرون من الشمال إلى الجنوب كعادتهم . ولكنهم لم يكونوا يغيرون في هذه المرة على بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسنة ، أمنع من أن يستطيعوا لها اختراقا . لذا كانوا يغيرون الآن جنوبا مخترقين إليريا (وهي الآن ألبانيا وبلاد الصرب) إلى مقدونيا وإبيروس . وتحلى ييروس عن أطباعه في الفتح وعاد إلى بلاده (٢٧٥ ق . م) بعد أن صدّه الرومان . وأحرق به في البحر خطر القرطاجيين ، وهدد الغالة بلاده ، على حين خلا الجول روما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب الصقلي من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرعان ما وقعت هذه البلدة في قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة صقلية أو يكادون ، كما كانوا حلفاء لسراقوزة ، فكان من الطبيعي أن ينهضوا للقضاء على القراصنة (٢٧٠ ق . م) وأن يضعوا في المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا التقت دولة قرطاجنة التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذوا يتبادلان نظرات العداوة والبغضاء .

الفصل الثاني والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هي السنة التي ابتداء فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية . وفي تلك السنة كان آسوكا يستهل حكمه في بهار ، وكان شى هو أنج في طفلا صغيرا ، وكان متحف الإسكندرية لايفتا ينتج إنتاجا عليها لا بأس به ، كما كان العالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجامه .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لا سبيل إلى التغلب عليها . ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة المقتضبة عن ذلك القتال الفتاك الذي دارت رحاه قرنا ونصفا في إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا والبحر المتوسط الغربى ، ذلك القتال الذى نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الواواء الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها في مسائل لا تزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والسامى كتب له أن يندرج فيما بعد تحت الكفاح الذى نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لا تزال عواقبها وتقاليدها المشوهة تحتفظ في منازعات اليوم وخصوماته بثالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب .

ابتدأت الحرب البونية الأولى في ٢٦٤ ق . م بسبب قرصنة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عدا ممتلكات ملك سيراقوزة الإغريق . وكان للقرطاجيين التفوق البحرى في مبدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حرية كبيرة لم

يسمع حتى ذلك الحين بمثل حجمها ، وهى الحماسيات أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والكبش الضخم^(١) . وكانت أعظم السفن فى معركة سلاميس . قبل ذلك قرنين من الزمان ، هى الثلاث ، وليس لها إلا ثلاثة صفوف . ولكن الرومان نصبوا أنفسهم همة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمر البحرية - لتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق فى تسيير الأساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولكى يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق فى اللاحة ، اخترعوا طريقة إمساك سفن الأعداء بالكبايش (بالكابات) واعتلائها ، فإذا أقبل القرطاجيون لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها ، تعلقت كبايش ضخمة من الحديد بسفنها ، وتزاحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاجيون فى كل من ميلادى (٢٦٠ ق . م) وإيكونوهادس (٢٥٦ ق . م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة - وأخذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم احترق الغوروم لم تر روما له من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فى معركة الجزائر الآيباجية (٢٤٩ ق . م) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . وتخلت للرومان عن صقلية بأكلها فيما عدا ممتلكات هيرون ملك سيراكوزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله . فإن الغالة انحدروا جنوبا فى إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما - (غملمها الملح على تقديم القرابين البشرية للآلهة ١١) - ثم دحروا وبدد شملهم فى معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قدماً إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بمخاء ساحل البحر الإدرى حتى إلبيريا ، وكابدت قرطاجنة الأحوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث فى قورسيقة وسردينية من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغته روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدوانى لا يطاق .

وفى ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إبرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم

(١) الكبش تنوء برأس كبش ناضج من سفينة لإتلاف سفن الأعداء .

عليها الرومان تجاوز ذلك الحد ؛ فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عملا حريا معاديا للرومان . وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق . م إزاء اعتداءات جديدة للرومان ، إلى عبور ذلك النهر فعلا بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال ، وهو قائد من ألمع القوادى على مر التاريخ كله . فسير عليها جيشه مخترقا إسبانيا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، وهناك أثار القالة على الرومان ، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما . وأزّل بالرومان هزائم فادحة في معركتي بحيرة تراسيمى و كاناي ، ولم يستطع أى جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تخيق به الهزيمة . غير أن الرومان أنزلوا عند مرسليليا جيشاً قطع مواصلاته مع إسبانيا ، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته ، كما أنه لم يتمكن أبداً من الاستيلاء على روما . واضطر القرطاجيون آخر الأمر إزاء ثورة قام بها النوميدون في أرض الوطن ، أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية ، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية . ولقى هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق . م) على يد سيبليون الإفريقي الأكبر .

وكانت معركة زاما هي خاتمة الحرب البونية الثانية ، واستسلمت قرطاجنة ، وتنازلت روما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربي ، ودفعت لها تعويضا هائلا ، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه . لولا أن هانيبال نجح من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث نجح السم ومات عندما أحس أنه موشك أن يقع في قبضة أعدائه الفلاط الأكباد .

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظنان في أثنائها السلام . وراحت روما في نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق المضطربة المنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى وتهزم أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي عند مدينة ماغنيسيا في ليديا ، ثم جاء دور مصر ، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة ، كما جاء دور برجامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى ، فحواتها روما إلى حلفاء لها ، أو « دول محمية » كما قد نسميها اليوم .

وذلك في حين كانت قرطاجنة الدليلة الضعيفة قد أخذت تسترد في ببطء شيئا من رخائها السالف ، فأثار ذلك عليها حقد الرومان وخاوفهم ، فهاجموها (١٤٩٠ ق . م)

لأسباب نافذة مفتعلة إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة وتحملت حصاراً طويلاً ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق . م) ، واستمر القتال - أو قل المذبحة - في الشوارع ستة أيام ، وكان قتلاً دمويًا بشعاً ، وعند ما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفاً تقريباً ؛ فبيعوا ببيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميراً تاماً وسير المحراث في أنقاضها السوداء بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهداً على محوها رسمياً .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة . ولم يبق مستمعا بالحرية من الدول والمدن السامية التي ازدهرت في العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقي تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التي حررت نفسها قبل ذلك من أيدي السالوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين . وكانت التوراة قد تمت في ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعي أن يلتزم القرطاجيون والفينيقيون وذوو قربانهم من الشعوب المبعثرة في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تمثل في ألسنتهم المقاربة ، وفي هذا الأدب الذي يبعث فيهم الأمل ويعلوهم بالشجاعة ، وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامي لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم في ٦٥ ق . م التي كانت على الدوام رمزا لليهودية لا مركزها ، وبعد أن تغلبت عليها تصاريف متنوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها في سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائي بعد ثورة أخرى شبت في ١٣٢ م ، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم فهي مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم في مكان الهيكل معبد للرب الروماني « جوبيتر » وحرّم على اليهود سكّى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الإمبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي مازالت تملوح على تسلمت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف في كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم المتمدن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فآخ عظيم بينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؛ فقد تسلمت أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الخليفة والتابعة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما صيدة لقورسقة وسردينية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم إسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشئ التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهدا ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعباً ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وإسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي مجتازا ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى البحر وجنوبي روسيا ، ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبدا أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الإدارية .

ومن ثم فقد كانت تضم حشودا هائلة من شعوب نوردية جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريبا ، وكان اصطباغها بالصيغة الحامية والسامية أضعف كثيرا من أية إمبراطورية سالفه .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى في مهاوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التي سرعان ما ابتلعت في جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية ، وإنما كانت في كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام الميدين والفرس كانوا يصطبغون غاما بالصباغ البالي ، مدى جيل واحد تقريبا ، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملوك ويتقبلون معابد آلهته زكهاناتها ؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه في نفس ذلك السهل طريق التمثل ؛ واتخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التي كانت لنبوخذ نصر وأصبح البطالمة فراعنة وتمصروا تمصرا تاما . فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين

أما الرومان فإنهم كانوا يحكمون في مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التي أملت طبعهم الخاصة . والشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث الميلادي هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم لذا كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بمحنة تقريبا كانت حتى ذلك الأوان طرازا حديدا لا مثيل له في التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة . ولم ينطق عليها الطراز القديم القائم على قايح فرد يحكم مدينة رئيسية تمت حول معد ثرب حصاد . كان للرومان — لا جرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آتمة من أشباه البشر الخلدن أو النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضا يفسكون — سواء قرمانا ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قرمانا إذا لم يدره ، وعلى أمور لعلهم تعلموها من أساتذتهم الإترسك السمر ، ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمن مفيد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأى نشاط سياسى كبير في تاريخ الرومان

كانت الإمبراطورية الرومانية جبسا جديدا لم ترسم لقمه خبطة . وتلفت الشعب الرومانى وإذا هو يعمل من غير وعى منه تقريبا في تجربة إدارية هائلة ليس في الامكان أن تمت بالتجربة الناجعة . إذن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام في النهاية . كما أنها كانت تغير شكلها وأساليبها خيرا هائلا من قرن إلى قرن . كان التغير الذى يحدث بها في مائة عام أعظم مما كان يحصل في البتغال أو أرض الجزيرة أو مصر في ألف سنة . كانت دائمة التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال .

ففلت التجربة بمعنى ما كما أنها لا تزال — بمعنى ما — ناهضة غير مستكفلة ، ولا تزال

أوروبا وأمريكا في يومنا هذا تحمل ألباز السياسة العالمية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة .

ومن الجدير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي آلت ، لا بالأمرور السياسية وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان . وكثيراً ما يمنح بعض الناس إلى إظهار شيء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئاً متقن التكوين وطيد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملاً ونيلاً وحاسماً . هذا كتاب ما كولي السمي « أناشيدروما القديمة » *Lays of Ancient Rome* S . P . Q . R ^(١) ، لو اطلعت عليه لوجدت فيه كآبو الأسن ، وأفراد أسرة سبيون وبوليوس قيصر ودقلد يانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والخطب ومصارعات المجالدين واستشهاد المسيحيين مختلطة بعضها ببعض في صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومهيباً .

ولابد لك من أن تحمل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت اعتباراً من مواضع مختلفة من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة في التيسير تقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ، ابتدأت المرحلة الأولى منها بنهب القالة لروما في (٣٩٠ ق . م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى في (٢٤٠ ق . م) . وقد يجوز لنا أن نسمي هذه المرحلة باسم مرحلة الجمهورية النشطة ^(٢) . ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الروماني وأشدها تميزاً . ففي أثناءها كانت المنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامّة تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإترسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم في الثراء . فلاغنى فاحش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على المصلحة العامة .

كانت جمهورية ، بجمهورية البوير في جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

(١) S . P . Q . R معناها مجلس شيوخ روما وشعبها .

(٢) النشطة : التمثل تحويل الشيء إلى مادة مماثلة كالطعام في الجسم . والجمهورية هنا كانت تتمثل غيرها من القوم والدول . [للترجم]

الشمالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هي جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما في مستهل هذه المرحلة دولة صغيرة لا تكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا . وكانت تقاتل ذوى قرباها من الدول القوية الشكيمة المحيطة بها وتحاول الائتلاف وإياها دون تدميرها . وتدريب شعبها في أثناء قرون الفرقة الأهلية والشعاع على التراضي والتساهل . فإن بعض المدن المنهزمة أصبحت رومانية تماما لها نصيب من التصويت في الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالأبحار في روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحاميات المؤلفة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة ، كما أن المستعمرات المتنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهراني الشعوب المحتلة حديثا . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صبح إيطاليا السريع بالصباغ اللاتيني هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، ففي (٨٩ ق م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسطة الرقعة . وفي ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لسكل حرفي طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق في أن يعطى صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع في بسط حقوق المواطنة على المدن سهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الروماني . وهو الذي قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب ، طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازي هو الذي يتمثل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة . ذلك أن صقلية مثلا عولمت معاملة فريسة مقهورة . فأعلنوها «مزرعة» للشعب الروماني واستولت أرضها الخصبه وجهود شعبها المجد في سبيل زيادة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العامة يحصلون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضاً فيضاً متدفقا من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يتكونون في معظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذي يمتازون به وتبعتهم المشغولة منهم . وكانت الديون تركب مزارعهم حين ينخرطون في الخدمة العسكرية العامة ، فانتشر

في طول البلاد وعرضها نوع من الإنتاج الزراعى الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصولات التى أنتجها الرقيق بصقلية وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن ، وتغيرت الأيام وبدلت الجمهورية سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن صقلية أصبحت في قبضة روما ، بل إن الرجل العادى أصبح في قبضة الدائن الغنى والنافس الغنى . بذلك دخلت روما في مرحلتها الثانية ، وهى جمهورية الأغنياء للمغامرين .

وظل الجند الرومان الزراعون مائتى سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك في حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مائة عام ينعمون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا غنموه .

وتغيرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت في الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هى مجلس الشيوخ (السناتو) وكان هذا المجلس فى الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات . وكان يدعوهم إلى جلساته فى البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، هم القناصل والرقباء ^(١) (Censors) . وإذا هو أصبح كمجلس اللوردات البريطانى ، جمعية تضم كبار أصحاب الأراضى والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم . كان أقرب إلى مجلس اللوردات البريطانى منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية . وهو مركز الفكر الرومانى السياسى وقبلته . وكانت الهيئة الثانية هى الجمعية الشعبية ، التى كان مفروضا أن تضم مواطنى روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دويلة مساحتها عشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ما وراء حدودها ، فقد أصبحت هيئة عقيمة . وأخذت اجتماعاتها التى كان يعلن افتتاحها بالنفخ فى الأبواق من السكايتول وأسوار المدينة ، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من الأجورين السياسيين ورعاع المدينة ، ومن قبل كانت الجمعية الشعبية فى القرن الرابع ق . م رادعا قويا يكبح مجلس الشيوخ ، وكانت خير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استعالت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاحول

(١) كان لروما رقيبان مهمتهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والمحافظة على الآداب العامة .

له لرقابة شعبية عظيمة . فلم يبق هناك أى رادع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل في الجمهورية الرومانية أى شيء من قبل الحكومة التمثيلية النيابية . ولم يفكر أحد البتة في انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جدا ينبغي للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ؛ ولكنها من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئا يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى في الإمبراطورية الرومانية كان في حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته في الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج المجزى ، كما لم يبق في يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف ، فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى ككشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات ثورية غير مجددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنواع كفاح ذلك العصر العقدة ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتمزيق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإلغاء الديون جملة أو جزئيا . وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا في ٧٣ ق . م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتا كوس ، وكان لثورة رقيق إيطاليا شيء من الأثر ، إذ كان فيهم كبار المقاتلين في حفلات المجادلين ^(١) . وظل اسبارتا كوس صامدا سنتين في فوهة بركان فيزوف ، الذى كان خامدا في ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخذ العصيان بقسوة جنونية . فصلب سته آلاف من أتباع اسبارتا كوس على جانبي الطريق الآياني ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق . م) .

(١) المجادلون (Gladiators) : المصارعون في العهد الرومانى ، وكانوا يقاتلون بالسلح رجلا مثلهم أو وحوشا ضارية . وهي رياضة وحشية كانت تروق الرومان . ومكان هذه المصارعة كان يسمى بالجلجلة (Arena) [للترجم]

ولم يدبر بخلد الرجل العادى قط أن يقاوم القوى التى كانت تخضعه وتحط من قدره .
يبد أن الأغنياء الكبار الذين تغلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة مجهزون
قوة جديدة فى العالم الرومانى ما لبثت أن تطلبت فى النهاية عليهما جيماً : هى
قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند المزارعين الأحرار
الذين كانوا يسرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع
من القوات نافذاً جداً فى الحرب طالما كان ميدانها قريباً ، ولكنه ليس من نوع العيوش
التي تذهب إلى خارج البلاد وتعمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجلد . فضلاً عن
ذلك فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رقع المزارع الكبرى ، أن تناقص عدد اللقائنة
من الفلاحين الأتاة الأحرار ، ثم ظهر قائد شعبي هو ماريوس فكان له الفضل فى إدخال
عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أمسى بعد أن ذهبت ريع الحضارة القرطاجية دولة
شبه همجية ، هى مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرثاملك
تلك الدولة ، فكابدوا أهوالاً كثيرة فى التغلب عليه . حتى إذا ثار الشعب غضباً لكرامته
اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلاً عاماً للبلاد ، لينهى الحرب الشائنة . وتم
له ذلك بجمعه الجند الأجودين وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلاً بالسلاسل (١٠٦ ق . م) ، فأما ماريوس فإنه
تثبت بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمكك به استمساكاً غير شرعى
تظاهره كتابه المنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صدّه
ومقاومته .

وبظهور ماريوس ابتدأ الدور الثالث فى تطور الدولة الرومانية : وهى جمهورية
القواد العسكريين ، فالأمر ابتدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب الأجودون يقانون
فى سبيل السيطرة على العالم الرومانى . وثار على ماريوس قائد أرستقراطى هو سلا ،
الذى كان يعمل تحت إمرته بإفريقيا . وقام كل منهما بدوره يحمل السيف بشدة فى
خصومه السياسيين ، فكان الرجال يحرمون من حماية القانون ويهدمون بالآلاف ، كما
تباع مزارعهم ، وبعد المنافسة الدمية التى اضطرت بين هذين الرجلين وبعد الرعب
الذى ملأ النفوس من جراء عصيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس

وبومبي الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومتسلطين على مقاليد الشؤون وقد هزم اسبارتاكوس على يد كراسوس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متحتفا بثناء عريض في حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الأشفانيون) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق . م) ثم قتل بمصر تاركاً يوليوس قيصر وحده سيداً على العالم الروماني .

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارت في الخيال الإنساني هزة أضاعت كل أسباب التماسك بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزا . وعندى أن أهميته تنحصر بوجه خاص في كونه النذير الذي يؤذن بالانتقال من طور المفاشرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الروماني : وهي الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحلال الاجتماعي ؛ وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش في أثناء فترات الشك والتخوف التي رأت على البلاد في الحرب البونية ، كما كان هناك هبوط ظاهر في الهمة في المدة التي سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكانت ثورة اسبارتاكوس أمانة آذنت بدور ثالث ، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة ، وهي تسمى الآن فرنسا وبلجيكا ، (كانت أم القبائل التي تسكن ذلك القطر تنتمي إلى نفس الشعب السكثي الذي كان ينتمي إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ردحا من الزمن ، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطين) . صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عبر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ و ٥٤ ق . م) ، غير أن فتحة لثلك البلاد لم يدم طويلا ، وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت في الشرق بحر قزوين .

وفي ذلك الوقت . أي منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ الروماني

لا يزال هو المركز الأسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يعين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية وللاحتفاظ لها بالاحترام وهيبة القوانين . بيد أن بواعث المواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بددا ؛ فقد استعالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عضهم الفقر بنابه حرموا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شيء يناصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحتشد من وراء المغامرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسمهم وينفى إخضاعهم ، وكان كراسوس وبومبي وقيسر يتقاسمون فيما بينهم حكم الإمبراطورية متخططين السناتو فى ذلك (وهم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشفانيون كراسوس بعد ذلك بمنطقة كارهاى النائية ، دب الخلاف بين بومبي وقيسر ، فانتصر بومبي للبادىء الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيسر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يبيع لأى قائد أن يتجاوز بحنده دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيسر وبين إيطاليا هو نهر الرويكون [بإقليم توسكانى] . وفى ٤٩ ق ، م عبر قيسر نهر الرويكون قائلا : « الآن رميت القдах وسبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على بومبي وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تلتخب فى الفترات العسكرية العvisية « دكتاتورا » له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها فى أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيسر على بومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى (٥٥ ق . م) . والواقع أنه جعل عاهلا للإمبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية والملوك ، وهى كلمة بنضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيسر أن يكون ملكا ، يد أنه اتخذ العرش والصولجان .

وكان قيسر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة بومبي ، وأخذ يطارح كليوباترة

الغرام ، وهي آخر البطالة ، وملكة مصر الربية ، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فكرة « الملك المؤله » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم في أحد المعابد وعليه عبارة نفسها : « إلى الإله الذى لا يقهر » . ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لبيب احتجاج أخير . وطمعن قيصر بالحناجر حتى قضى نحبه في مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصروع يومى الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامعة . وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من ليدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر ، وهو ابن أخى يوليوس قيصر . وأخذ أوكتافيوس كعمه الولايات القرية الأشد فقراً والأقوى شكيمة . والى كانت تجند منها أحسن الكتائب ، وتمكن في ٣١ ق ٢٠ من هزيمة مارك أنطونيو منافسه الخطر الوحيد في معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأوحد للعالم الرومانى .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم يخامرهم أى حنين طائش لأن يصبح إلهاً أو ملكاً . ولم تكن له ملكة معشوقة يريد أن يهرها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح دكتاتوراً . وغلب الشكر على السناو فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من صورته الشكيمة . أجل لم يلقبه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ولقته بـ « أوغسطس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق ٢ إلى ١٤ م) .

وخلفه تيريوس قيصر (١٤ - ٣٧ م) ، وأعقب هذا آخرون ، هم كاليغولا وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء تراجان (٩٨ م) ، وهادريان (١١٧ م) ، وأنطونيوس يوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ م) ، وهم جميعا أباطرة كتائب ، فالجند هم الذين نصبهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تنقل شيا فشيئا وتتوارى من التاريخ الرومانى ، بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون محلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد ترامت نحو الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمت ترسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسّيت « داكيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه - شأن شئ هوانج تى - شيد الأسوار ليصد برابرة الشمال ؛ فبنى أحدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهري الزين والدانوب ، وتخلّى عن بعض ما استولى عليه تراجان .
فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثاني والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرقى مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدهارها بالسكان ورغدها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم . إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة النهوض والبعث .

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع البتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالمهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين - التي كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التي خلفت أسرة « تسن » عند وفاة شى هوانجى - فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان القرية عبر بلاد التبت وفوق ممرات هضبة البامير الجبلية العالية . ولكنها بلغت هناك أيضاً حدّها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين في ذلك الزمان أعظم نظام سياسى في العالم وأحسنه تنظيماً وأكثره تمدناً . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج مجدها . من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا في عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداها بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل المواصلات في كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكفيلة بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التفاعل تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جداً ، وكان تأثيرهما عميقاً شديداً

في مصر الأقاليم التي تقع بينهما وهي آسيا الوسطى والهند : إذ إن قدر اجننه من التجارة كان يترقق في تلك الأقاليم على ظهور الجمل بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلا ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر

وفي ٦٦ ق . م زحفت الجنود الرومانية بقيادة بومبي مقتفية خطى الاسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة بان تشاو ، وأرسلت معها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تنهأ للمعلومات المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين المتوازيين ، على أوروبا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تنبسط البراري الهمجية المتبررة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليبا تكسو الغابات معظمه ، على حين كانت الغابات تتوغل قدما في صميم روسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأوروك) ، الذي يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتلة الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تجيء بعد الغابات والأراضي المتجمدة . ويقع مثلث منشوريا العظيم في المنبسط الواقع شرقي المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي روسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة المناخ إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا في مدى بضعة قرون . فهي بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلأ الذي يقوت^(١) السكان ، ثم تجيء فترة انخفاض في الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقحط المهلك .

والجزء الغربي لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد من الغابات الألمانية إلى جنوب روسيا والتركستان ومن جوتلنده [بالسويد] إلى جبال الأب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية واللغة الآرية . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبت الشعوب الهونية أو المغولية أو التتارية أو التركية - ذلك أن كل هذه

(١) يقوت السكان : يرزقهم ويعطيهم القوت ويسوهم من (قات يقوت قوتا)

الشعوب المتعددة كانت متاثلة في اللغة والعنصر وطريقة الحياة . وكما أن الشعوب النوردية كانت تطنى دائماً فيما يظهر على حدودها ، وتضبط جنوباً على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترجلين ومغيرين وفاتحين في أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين . وكانت فترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تعنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص في العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون الماشية ، لم يكن مفر من أن يؤدي ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع القاتلين الأعداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطورى إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطاً قوياً لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم ، وكان الفلاح الصينى ومعه المهرات والحصان يتقدم في إثر حارس الحدود الإمبراطورى ، فيحرث منابت الكلا ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على المستقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحد أمرين ، فإما الاستقرار في حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإما الرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة . وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلعت بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقى أو نحو الشرق من فوق المرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غرباً للخيالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التى هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الأشقانيون (البارثيون ، وهم فيما يظهر شعب أشقوزى تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا يومي الكبير في غارته على بلاد الشرق وهرموا كراسوس وقتلوه ، وأنزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،



خريطة رقم (٧)

وتبدلوا بهم ملوكا من الأشقيانين ، هي الأسرة الأرشكية^(١) .

ولكن جاء زمان كانت فيه أضعف مناطق المقاومة للرحل الجائع لاتقع في الغرب ولا في الشرق ، بل تسير في آسيا الوسطى ، ثم تتحرف جنوباً بشرق عابرة عمر خير إلى بلاد الهند . فالهند هي القطر الذي تلقى حركة الانتقال المغولية إبان هذه القرون التي قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . واشتالت موجات متكررة من الفاتحين والغزيرين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهياً ونغزانيا ، فمزقت إمبراطورية آسوكا ، وانحدر تاريخ الهند حيناً من الدهر إلى غياهب الظلمات . ..

(١) الأسرة الأرشكية : أسرة باريّة ملكيّة مؤسسها أرشك الذي انقطع بملكته من دولة السلوقيين في ٢٥٠ ق م ، ودامت حتى قضى عليها في ٢٢٦ م بملاديه أردشير مؤسس الدولة الساسانية .

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند باسطة عليها شيئاً من النظام أسرة كوشانية
بجانبها أسستها قبائل « الهندواشوديين » Inbo — Scythians وهم جيل من الشعوب
الغريبة . وتواصلت هذه القروات بضعة قرون . ونسبت الهند دهرًا طويلاً من القرن
الخامس الميلادي للإثتاليين أو الهون البيض ، الذين كانوا يجيئون الجزية من الأمراء
الصغار ، ويوقعون الرعب في أرجاء البلاد . وكلما أقبل الصيف رحل هؤلاء الإثتاليون
إلى التركستان الغربية ليرعوا ماشيتهم ، فإذا جاء الخريف عادوا بطريق المرات وقذفوا
الرعب في قلوب السكان الوادعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية في القرن الميلادي الثاني نكبة عظيمة ،
لعلها أضعفت مقاومتها جميعاً لضغط البرابرة ، فإنها أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له .
ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاماً ، حتى أفسد النظام الاجتماعي
أشد الفساد ، فسقطت أسرة هان ، وابتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والفوضى ،
لم تستطع الصين أن تنفيق منه تماماً إلا في القرن السابع الميلادي عند ظهور أسرة
تأنج العظيمة

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا وأخذ الوباء ينتشر في أرجاء الإمبراطورية
من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيائها إلى حد خطير جداً . فإنا نسمع بعد ذلك
عن نقص السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالاً ملحوظاً في قوة الحكومة
وكفائتها . ومهما يكن الأمر فإنا نعلم للقرور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها ،
ونجدها تتداعى في هذا المكان أولاً ، وفي ذلك ثانياً

ومعه شعب نوردي جديد هو القوط جاء أصلاً من جوتلندة ببلاد السويد . ثم
هاجر عبر روسيا إلى منطقة الفولجا وشواطئ البحر الأسود حيث جتح إلى البحر
وإلى أعمال القرصنة . ولعلمهم شرعوا عند نهاية القرن الثاني يشعرون بضغط هجوم
الهون غرباً عليهم . وفي ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فعبروا نهر الطونة (الدانوب)
وهزموا الإمبراطور ديكْيوس وقتلوه في معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد
الصرب . وفي ٢٣٦ م اخترق الحدود عند نهر الرين الأدنى شعب جرمان آخر هو

الفرنجية ، كما انهال الألمانى على إقليم الأزر اس . وتمكنت الكتائب العسكرية ببلاد القال من صد المغيرين عليها ؟ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاخفت مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وقتتها بنفسها . وفى ٢٧٠ - ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادي

في عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية في مهاوى الفوضى وتمزقت إرباً بعد أن تكونت في القرنين السابقين لليلاد ، وازدهرت في مجبوحة السلام والطمأنينة منذ أيام أوغسطس قيصر مدة قرنين آخرين -- مجدر بنا أيضاً أن توجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعنى العامة في أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا في تأريخنا الآن إلى حوالي ألف سنة من زماننا هذا ، كما أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون في ظل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخذت تقترب رويداً رويداً من حياة خلفائهم المتحضرين في يومنا هذا .

وكان استخدام النقود الصكوكة شائعاً آنذاك في العالم الغربي ، وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفي الدولة ولا من الكهان ، وبات الناس يعيشون في مناكب الأرض بحرية لم تكن لهم من قبل أبداً ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لئزولهم ؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه في الماضي أى قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاء وبسراً . وقبل ذلك التاريخ كان المتحضرون مقيدين بناحية أو إقليم ، مقيدين بالتقاليد ، يعيشون في حدود أفق ضيق جداً ، ولم يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل .

يبد أنه لا « السلام » الروماني ولا « السلام » الصيني لدى أسرة هان كان يعنى أن الحضارة انتشرت انتشاراً منتظماً في الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتها . فالعوارق المحلية عظيمة جداً بين إقليم وآخر ، كما أن التناقض وعدم المساواة في الثقافة عظيمة أيضاً بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم في ظلال « السلام » البريطاني بالهند ، وكانت الحمايات والمستعمرات الرومانية تنتشر هنا وهناك في أرجاء تلك الساحة العظيمة ، وهي تعبد آلهة الرومان وتكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن

أو بلدان قبل مجيء الرومان تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية ألبتة في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق المهلن^(١) عامة مذ كانت الإغريقية هي السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول ، يهوديا ومواطناً رومانياً ، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بها دون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية في بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماماً ، هو بلاط الأسرة الأشقانية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضاً اللغة القرطاجية في بعض أصقاع إسبانيا وشمال إفريقية زماناً طويلاً ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كاشيلية ، ذلك البلد الذى أوتى الفنى والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان زمن بعيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الرببة السامية وتنطق بلسانها السامى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستعمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهناك الإمبراطور ميثميسوس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ - ٢١١) الذى كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلغة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخته لم تعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة الفينيقية .

أما المناطق التى لم تكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات داسكيا (وهى الآن رومانيا على وجه التقريب) وبانونيا (وهى الآن بلاد المجر جنوبى الدانوب) ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بأصابع اللاتينى . وهى التى مدنت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدناً كانت اللاتينية فيها هى اللسان الغالب منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تعبد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية - وكلها مشتقة من اللاتينية - إلا تذكيرة لنا بهذا الامتداد للسان والعرف اللاتينى ، وأصبح شمال غربى إفريقية فى النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقاً فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتينى ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحاً وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن انتشرت بروما نفسها ، فتعلمها المتعلمون بوصفها لغة عليا القوم ، كما أن أدب اليونان وعلمهم كانا يفضلان على اللاتينى فى أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعى فى مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم المستقر . وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمال الأرقاء محل المزارعين الأثداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقرى للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليونانى فكانت أساليب الزراعة فيه متنوعة جدا ، منها الطريقة الأركادية ، التى كان كل مواطن حريكدح بمقتضاها يديه ، ومنها خطة إسبرطة ، التى كان من المهابة فيها أن يعمل المرء يديه ، والتى كان العمل الزراعى فيها تقوم به طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت فى تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق ، فإن طريقة المزارع الكبيرة و فرق الأرقاء كانت قد انتشرت فى معظم أرجاء العالم الهلبنى . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيدا بمولدهم ، لم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يفيدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا ألبتة بحركة ثورية ناجحة . أما ثورة اسبارتاكوس التى اندلعت فى القرن الأول ق.م ، فهى ثورة للأرقاء الخصوصيين الذين كانوا يدربون لمصارعات المجالدين . وكان عمال الزراعة يلبطاليا فى أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات ، فيربطون بالسلاسل ليلا لمنعهم من الهرب أو تحلق نصف رؤسهم ليصعب الفرار عليهم ، ولم تكن لهم زوجات ، ومن حق سادتهم انتهاك حرمتهم والتسكيل بهم أو قتلهم . وكان فى إمكان السيد أن يبيع عبده ليقا تل الوحوش فى المجتلد ، فإذا قتل عبد سيده ، صلب القاتل وجميع من فى الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيباً إلى هذه الدرجة تماماً ، بيد أنه كان مع ذلك حظاً بغيضاً إلى نفوسهم . ولذا فالغليون والهمج الذين أخذوا يحترقون

خط دفاع الكتاب ، لا يعدون في نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محربين ومنقذين .

وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالناجم وصناعات المعادن والتجديف في السفن ورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم في الأغلب على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار قراء ، ورجال عتقاء يعملون في المدن والناطق الرفيعة ، إما لحساب أنفسهم وإما مقابل أجر يقناولونه ، ومنهم الصانع الماهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور تقدماً وتتافس العمال الأرقاء ؛ على أننا نجعل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تقباين تبايناً بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات جمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلا ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهاراً ، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل في صغته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً مرضياً ثمناً لحريته .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد ابتعثت في روما قبيل بداية الحروب اليونانية في ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ، وما لبث كل عظيم من أثينا والرومان أن احتفظ لنفسه بمجاشيه من المحالدين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً في المبتلدة ، والذين كان عملهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من (البلطجية) .

وكان هناك أيضاً عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الراقية المتمدنة ببلاد الإغريق وشمال إفريقية وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعي العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أي فتى روماني من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الغني ليملك العبد الإغريقي ويتخذة خازناً لمكتبته ، كما يتخذ الأثمناء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاعره مثلاً يحتفظ بكلبه القادر على أداء الألعاب اللطيفة . وفي هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد النقد

الأدبي والدراسات الأدبية العصرية متسمة بالتدقيق والخوف والليل إلى الشقاء .
وثة أقوام مبالغون إلى التجارة كانوا يشتررون القلام الذكي ثم يملونه لكي يبيعه عندما
يشب ، وكان العبيد يدرّبون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما
لا حصر له من المهن التي تستدعي المهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية في أثناء السنوات الأربعمئة التي امتدت
بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأغنياء وبين أيام الانحلال التي أعقبت الوباء
العظيم . وتكاثر عدد أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطبائع خشة
وحشية ؛ ولم يكن للرقائق أية حقوق ، وما من امتنان أو انتهاك يدور بخلد القارئ
إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفعل إبان القرن
الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأسرى
قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمناً . فبدأ أصحاب الأرقام
يدركون أن الربح والراحة اللذين يجدونهما على يد عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء
بالاحترام الذاتي . هذا إلى أن الشعور الخلفي للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً بالعدالة
أخذ يؤتي ثماره ؛ فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين .
وصيق الخناق على القساة . فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاقل للوحوش ،
ومنح العبد حقوق الملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ، وصار
الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم وحثاً لهم على العمل ، واعترف القانون بنوع من
الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق
العمال ، أولاً تحتاج إليها إلا في مواسم معينة . فكان العبدون ينطلقون من هذا القليل
ينقلب للوقت إلى رفيق أرض ^(١) Serf ، يدفع ثلثه جزءاً من محصوله أو يعمل
عنده في مواسم معينة .

ومضى أيقنا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين
الميلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد
في حياتها بشيء من الحرية أو الكبرياء ضئيلة العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء في

(١) رقيق الأرض أو مولى الأرض . عبد تابع لنبييل يحث له أرضه ويبيع ويشترى مع تلك
الأرض . [الترجمة]

انحلالها وانهارها . فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير ، أما العيش المعتدل والفكر والدراسة النشطة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكانت المدارس والكتليات قليلة ومتباعدة . وأتى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر في أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليد القانون والسلطان التى خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن كل أجهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوية وذكاء مكبوت ورغبات كسبعة ومنعرفة . وحتى الأقلية التى كانت تسودها فوق خضم الاستعباد المتلاطم ، ولجات القمع والسخرة ، كانت أرواحها تنقلب على جمر القلق والتعاسة . وفى ذلك الجو القاتل اضمحل الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التى هى ثمار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى الشئ الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصناع الفنيين ، وتكاثر متعذقة العبيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنتج فى مدى أربعة قرون شيئاً يمكن موازنته بالنشاط العقلى الجريء النبيل ، الذى بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسبياً فى أثناء قرن عظمتها الوحيد ، ولم تصب أثينا فى ظلال الصولجان الرومانى إلا الانحطاط والتدهور . واضمحل علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل فى تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

في ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصبحت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القسوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محترقين تعسفين ، بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز في عدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتهد المضرجة بالدماء ، حيث يصطرح الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون والمدرجات^(١) هي أبرز عناصر الخراب الرومانية . ونمضى الحياة على هذا النهج ، وقلق الذى يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق .

فخذ اخترقت الحشود الآرية لأول مرة حدود للدنيات العتيقة ، لم يكن مفر من أن تلم التكيفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية في الدنيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المتركة حول المعبد .

وكانت رعاية الراسم ، والخوف من مخالفة القواعد المتبعة والتقاليد والقرايين والحفايا ، تطنى على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية في نظر عقولنا

(١) المدرج (Amphitheatre) : مسرح دائرى فى الوسط هو المختلطة تحيط به المقاعد فى صفوف دائرية متصاعدة يعلو بعضها بعضا ، وتعرف على المجتهد . [المترجم]

المصرية ، وذلك لأننا ننتمى إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراق التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومرا أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربات ، أو تغير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء . فالتغير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب ، فكأن الصور للرثية فى الحلم كانت تغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق للشبهة فى روحهم للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعاً يعرضها لانقلاب دينى . فظلت معابدها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صميعة فى ظلال حكم البطالمة والقيصرية على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التطلب بعملية تجميع وتمثل - على ما بين رب هذا المعبود وهذا الإقليم ورب ذلك من تعارض ، فإذا تشابه الريان فى خصائصهما جعلا شيئا واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا المزج والعصر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (التيوكرازيا) ؛ والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى ألف السنة السابقة لليلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق مترامية كان يحمل علمهم - أو بالحرى يتعلمهم - إله عام . حتى إذا رأى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون فى بابل على الملأ أن للعالم رباً واحداً للصالح والبر ، كانت عقول الناس مهتأة تماماً لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيراً ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعداً من أن تسمح بتمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها معاملة متسمين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الربة الأنثى رب ذكر ، (والعالم الإيغى قبل مجيء الإغريق كان مولها بالربات والأمهات) ، ومنها تمثيل الرب الحيوان أو الرب النجم بشراً واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالثعبان أو النجم حلية أو رمزاً . ومنها أن رب الشعب للمقهور يصبح خصماً شريراً يسمى لآلهة الشعب الغالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأمثال هذه التكييفات لوضع الأرباب المحليين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبريرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة في أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قربانى كان المفروض أن فرعون هو الصورة الأرضية التى تجسده . ويمثل أوزيريس فى صورة من يموت مراراً وتكراراً ثم يعث حياً ؛ فـكأنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسيع طبيعى للفكرة إلى وسيلة للخلود البشرى . ومن رموزه الجمل (الجعران) اللديد الأجنتة ، الذى يدفن بيضه ليعث من جديد ، ومنها أيضا الشمس المتألقة التى تغرب لتشرق ثانية . ثم تـمـص فيما بعد شخصية أيسس العجل المقدس . الذى ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهى أيضا هاتور ، وهى بقرة ربة ، وهى الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلا هو حورس ، الذى يتمثل أيضا صقرا معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذى يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى ، وصور إيزيس تمثلها وهى تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حورس وقد وقفت فى وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشرى استعدها قبل تطور التفكير الجدى للنظم والتماشك بينها أشبه بتماشك أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضاً ، وهى آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذى له رأس كلب ، والليل الأسود وما مثلهما ، وهى أرباب تلتهم وتغرى وتعادى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام دىنى كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصرى استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يث فيها صادق عبادته ويتمس فيها العزاء والسوى . وكانت الرغبة فى الخلود قوية جداً فى العقل المصرى ، حتى لقد جعلوها محورا لحياتهم الدينية ؛ فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تنهأ لأية ديانة أخرى فى أى عصر من العصور . فلما خضعت مصر لفاتحها الأجانب ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء فى الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريقي ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهليني كافة . فأقام بطليموس الأول معبداً عظيماً هو معبد السيرايس ، كان يعبد فيه نوع ما من ثالوث من الأرباب ، مكون من سيرايس وإيزيس وحورس ، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس . ولم يكن الناس يعدونها أرباباً منفصلة ، بل هيئات ثلاثاً لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى أن سيرايس هو زيوس الإغريقي ، وأنه جويتر (أى المشتري) الرومانى وإله الشمس الفارسى ، وانتشرت هذه العبادة حيناً بسط النفوذ الهليني ألويته ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين .

ولا عجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود النفوس والسلوى ، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس العاديين في نفس يحطم كل رجاء . وكان سيرايس يسمى « مخلص النفوس » ، ولو تأملت ترايتل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نبرح بعد الموت في ظلال عنايته الربانية » . أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيراً من الأنفس المتعبدة القانتة . وتماثلها للمقامة في معابدها كانت تماثلها في صورة ربة السماء وهى تحمل بين ذراعيها طفلها حورس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم إليها ، على حين أن الكهان الحليقيين الناذرين أنفسهم للعزوبة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوروبا الغربية لهذه العقيدة النامية . ومن ثم رسمت معابد سيرايس إيزيس ، وترايتل الكهان والأمل في حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلنده وهولنده . على أن منافى ديانة سيرايس إيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة المثرائية . وهى ديانة ذات أرومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها مثرأ وهو يضجى بعجل مقدس محب للخير ، وكأنى هنا أرى شيئاً بدايئاً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرايس إيزيس العقيدة المصطنعة . فنحن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسى الجبرى من الثقافة البشرية . والعجل المرسوم على الآثار المثرائية ينزف دائماً بوزارة من جرح في جنبه ، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة . وكان من ينقطع لعقيدة مثرأ يستحم فعلاً في دم العجل الضحية . فإذا حل يوم انحراطه في العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فعلاً .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد العديدة المتأثلة التي كانت تنشد ولاء الأرقاء والمواطنين في عهد أباطرة الرومان الأول. وهي شخصية ، لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصي والخلود الشخصي. ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل في الطراز القديم للعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا في الحل الثاني . وكان تقديم القرابين وظيفه عامة لا خاصة . ذلك أنها تتصل بالعاجات العملية للجماعة في هذا العالم الذي نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورأهم الرومان قد أبعادوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردي هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعة للدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة ، بيد أنها لم تحل محلها فعلا . والمدينة النموذجية في عهد أباطرة الرومان الأول هي التي كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . فربما وجدت بها معبداً لجوبيتر [المشتري] الكايتولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر للقيصر التربع على العرش .

ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنة أن الألوهية شيء ممكن . وكانت تقام في مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى فخمة المظهر ولكن لاروح فيها ، وهناك كان الناس يذلفون ليقدموا الذبائح ، ويحرقون شيقاً من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر ، ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة ، هو الذى تهفو إليه القلوب ، وتسعى أقدام كل فرد مفعم الفؤاد بالحناع ، يفشد النصيحة وتفريج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طابع شاذة . فقد ظلت مدينة إشييلية زمنأמידاً تعبد «الزهرة» ربة القرطاجيين القديمة . وربما وجدت في هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلاً لمثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضاً بيعة يجتمع فيها اليهود ليقروا توراتهم وليشدوا من اعتقادهم في الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان . وإنهم ليأبون أن يشتركوا في القرابين العامة التي تقدم لقيصر . وإنهم ليرفضون حتى أن يحياوا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .

وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا زمن مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية ، والتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيرا من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة محض في الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الخفية التي كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التنكيل بالفس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية في يهوذا والإسكندرية في القرن الأول ق . م ، أيضا ؛ فكانت جماعات من الفاس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشفات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإيسينيين^(١) . وانصرم القرنان الأول والثاني الميلاديان والعالم كله غارق أوبكاد في نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، محض في نشدانه العام « للخلاص » من عن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة في القسيس والعبد والقانون والعرف .

وفي هذا الجو الذي يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتجديد والنظاير بالمظاهر والتهافت على إشباع الملذات ، كان يتفرع في الناس هذا الوباء ، وباء الاشتراز الدائى وعدم الاطمئنان العقلى ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلي عن الدنيا والسكابة الإرادية للآلام . تلك هى الحال التي طالما ملأت السرايوم بالفادمين والباكين واجتلبت المؤمنين إلى ظلمة الكهف ودمانه الدافقة .

(١) الإيسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بفلسطين قبل ظهور المسيحية ، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنة التي ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة في السلع . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبليني . [المترجم]

افصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية في يهوذا ، إبان حكم أوغسطس قيصر أول قياصرة روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن نباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن شطراً عظيماً من العالم المسيحي يعتقد أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذي كان اليهود أول من عرفه . والمؤرخ لا يستطيع - إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك - أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية المادية في صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنساناً .

ظهر في يهوذا في أثناء حكم تيريوس قيصر . كان نبياً ، يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسائله فذلك أمر نجمله جهلاً تاماً .

فليس لدينا مصدر مباشر للعلم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد ، لايسع المرء منا إلا أن يقول : « لا شك أن بين أيدينا إنساناً ، وليس في الإمكان أن يكون خبره هذا مقتعلاً » .

ولسكنك تكاد تحس ، أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا ، قد شوها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس القرفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فكذلك شخصية يسوع التحيلة الدوب المجهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لايمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه في الفن المسيحي الحديث توقيير خاطئ . كان يسوع معلماً معدماً ، يتجول في أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشمس المحرقة ، ويعيش على ما يتلقى

من هبات عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الفن يمثل على الدوام نظيفاً ممسحطاً
الشعر وضاء الحيا نقي الثياب منتصب القامة ، وحوله جو هيولى ساكن لا يتحرك كأنما
هو منزلق على أجنحة الأثير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئاً خيالياً غير
حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا الباب القصة من زخرف
الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمها إليها القاتنون الجهلة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات العسيرة ، بقينا وجهاً لوجه أمام
صورة إنسان كامل الإنسانية جداً ، جاد جداً وعاطفى معرض للغضب السريع ، وهو
يعلم الناس مبدأً جديداً بسيطاً عميقاً : — هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور
ملكوت السموات . وواضح أنه كان شخصاً ذا جاذبية شخصية حادة ، إن جاز لنا
أن نستعمل هذا التعبير العادى ، فإنه كان يجذب إليه الأتباع ويلاً فلوهم محبة وشجاعة .
وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية
ضعيفة ، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أغمى عليه عندما
كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد
نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه ، وهبط أورشليم ، واتهم بمحاولة إقامة مملكة مجيية
فى يهوذا فحكم بهذه التهمة ، وصلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان
برمن طويل كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد
المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلا يجب إذن أن فات
عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكص على عقبيه وزعا من أى فهم
— مهما دق — لتحدياتها الهائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن
مذهب ملكوت السموات كما يلوح أن يسوع كان يعلمه للناس ، لم يكن إلا طلباً
جريئاً لا تسامح فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح ، تطهير
مطلق من الداخل والخارج على السواء .

وعلى القارىء أن يلبأ إلى الأناجيل الخماس للبقية الباقية من تلك الفكرة الهائلة ؛
فكل ما يهمنى فى هذا المقام إنما هو الهزة التى أحدثتها اصطدامها بالفكرات المستقرة
القديمية .

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم الأجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر ، أتم في شأنهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم والحق يقال ، يتعهد بها أن يرتفع بهم في النهاية إلى السيادة على الأرض !!! . فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو يحطم أمامهم نفيس ضماناتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم ينالون الحظوة في مملكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحب أحدا دون غيره بحظوة ، وأن الناس جميعا إخوة — كلهم خاطئ مذهب ، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهي ، وأن يسوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سخريته على ذلك الميل الطبيعي الذي تخضع له جميعا ، وهو تمحيذا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه في قصة العمال يفيد ظهريا ادعاء اليهود العنيد في أن لهم على الله حقا معيناً . وعلم الناس أن كل من أخذه الله في الملكوت ، حباه برعاية واحدة لا تفريق فيها ، فالله لا يعرف تمييزا في معاملته لعباده ، إذ لا حد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصاراهم كما يتجلى ذلك في أمثلة العملة المدفونة ، وكما تعززه حادثة فلس الأرملة . وليس في ملكوت السماوات امتيازات ، ولا تحفيض مالى ولا معاذير .

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كما هو معلوم ، شعب ذو ولاء قبلى قوى — بل راح يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة ، تنطوى على التعديد في ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملكة السماء بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أنه « وفيما هو يكلم الجوع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجين طالبين أن يكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » (١) .

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلى باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعا ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتنفص كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. ذلك أن الناس جميعا ينتمون إلى الملكوت ، وأن ممتلكاتهم جميعا تنتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرة للناس جميعا ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما تملك ، وبكل أفئدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحا ، ليس أحدا صالحا إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شئ واحد ، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب . فاغتنم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتعير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضا وقال لهم : يا بنى ، ما أعسر دخول المتكلمين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جل من تقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله ^(١) . »

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من بر قائم على المساومات ، وذلك بسبب نبوءته الهائلة بذلك الملكوت الذى يتعد فيه الناس جميعا فى ذات الله ، ثم إن شطرا عظيما سجل من أحاديثه موجه إلى اللبائغة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزا بأيديهم مغمولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسنا تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرأين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد

عن بعيدا . وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليمى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم » (١) .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خاية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجلاء على أن تعاليمه كانت تنطوى على لمة سياسية من أبسط الأنواع . حقا إنه قال إن مملكته لا تسمى إلى هذا العالم ، وإن مكانها فى قلوب الرجال وليس عرشا من العروش ؛ ولكن لا يقل عن ذلك وضوحا أنه حيثما قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتعبد ويقيم الانقلاب بنفس النسبة .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أقواله الأخرى بسبب عميقتهم أو صمغهم ، فمن الجلى أنهم لم يقمهم تصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه المعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمحاكمته وإعدامه ، تدل بأجل بيان على أن معاصره كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل يرون أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها .

وإذا راعينا ما قاله صراحا ، لم نجد غرابة فى أن يشعر كل غنى وكل موفق رغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الغريبة ، ويحس أن عالمه يدور به بسبب هذه التعاليم ! ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مخدراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة دينية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خنق رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوداعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يحتوى الضياء الوهاج للملكوت على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية . ولم يكن هناك فى الواقع أى حافظ ولا مثوبة إلا المحبة . أفعيب إذن أن تنهر عيوز الناس وأن تتخطف أبصارهم وأن يتصايحوا به ؛ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذهم أنفسهم عند ما لم يقبل أن يعفيهم من باهر الضياء ، أعجب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فإذا أن يهلك هو وإما أن تهلك الكهنة؟ أعجب إذن أن

يلجأ الجند الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذى يخلق فى الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم - أقول يلجئون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا منه قيصرا هزوا ! ذلك أن أخذه مأخذ الجسد كان معناه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلى عن مألوف العادة ، وضبط الفرائز والدوافع ، وتجربة ضرب من سعادة لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم نشر إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المبشرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشئوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يمشى الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس . أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لحركات زمانه الدينية . فقرأ على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تفتقها الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة « ملكوت السموات » . ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود غصب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إن موته كان تضحية - مثل محات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشرية .

وعندما تدهر الديانات إحداها إلى جوار الأخرى تنزع إلى التقاط طقوس بعضها من بعض وغيرها من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذى كان للتاوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية كالقسيس الخلق وتقدم النذور والهياكل والشموع والتراويل والتماثيل

التي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها في عبادتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد القليلة الأهمية ، وكانت كل واحدة منها تلمس الأنصار ، ولابد أن المعتقد لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالخطوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التردد والفتنة ، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي تبثها تعاليم يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان رباً مات ليث حياً ولينج الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية العقدة المجتمع المسيحي كل ممزق ، والعقيدة بعد في طور الانتشار ، فاستمرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبي البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع سايلبيوس^(١) أن يسوعاً لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب في الوقت نفسه ، مثلما يمكن أن يكون الرجل والدأ وصانعاً في نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة في وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

وانقضى ربح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارَت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحي بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ في آثم صورة في عقيدة القديس اثناسيوس .

ولن ندلى هنا بأى تعقيب على هذه الخصومات ، فهي لا تؤثر في التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح محققاً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد في حياة جنسنا الخلقية والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله ، أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر في كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من الوجهتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر في العالم بمجيء المسيحية وانتشار تعاليم يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس كان يعلم العبد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين ، ولكن يعدل ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل ، تناهض إذلال الإنسان للإنسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المجالدين^(١) في المجتلد .

انتشرت تعاليم الديانة المسيحية في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية إبان القرنين اللذين أعقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المتصغرين لا يبرح يزداد في كل آن ، وتخلق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفكرات والإرادة . واختلف موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عاها ، ومنهم من تساهج معها ، وبذلت في كل من القرنين الأول والثاني محاولات للقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما عتفها من أعوام بأن أنزل بها الإمبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيماً ، فصودرت أملاك الكنيسة الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دموت ، واهدرت دماء المسيحيين على أنهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت « عقائد الكتب » هذه المسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يعتمد إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة فكراتها الذهنية وتقمعها ، ولم تكن الديانات قديمة العهد ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى إذا أقبلت عصور الفوضى البربرية التي أخذت ظلماتها تغشى أوروبا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هي الوسيلة الفعالة في المحافظة على التراث العلمي .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاماً في القضاء على المجتمع المسيحي النامي . وكان

(١) المجالدين **Gladiator** : هو مصارع يحرف بروما القديمة يتصارع مع الرجال أو الحيوانات في المجتلد ، وهو الجزء المحصن للمصارعات من الدرج القديم وهو مفروش بالرمال ليصطرع فيه الرجال .

عديم الأثر في كثير من الولايات ، وذلك لأن كثرة السكان وكثيراً من الموظفين كانوا من المسيحيين . ثم صدر في ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك^(١) . وفي ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عهد وهو على فراش موته . فتخلى عن كل مدعياته في الألوهية ، ووضع شارات المسيحية ورمزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تمض بضعة سنوات حتى توطدت قدم للمسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة ، وفي ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال جوبيتر سرايس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد في الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعداً .

(١) أشرکه معه دقلديانوس في الحكم في ٣٠٥ ، وجمعه قيصراً على Illyricum والأقاليم الدناوبية . وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية في ٣٠٥ عند تنازل دقلديانوس [الفرج]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الإمبراطورية

إلى شطرين : شرقي وغربي

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي ، وهي تضمحل اجتماعياً وتحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تنقل حسباً تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو آنأ ، وآنأ آخر فيا يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تكون بفيكوميديا^(١) إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة في منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لاتصلح أن تكون قسبة ملائمة للإمبراطورية ، ولذا أخذوا الضمحلل يذب إليها .

أجل لم يرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنقلون في ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما انفكوا يزدادون استبداداً يقيية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم في كل آن شهاً بدولة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجاً ملكياً وارثدى ثياباً شرقية .

وفي إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهري الرين والدواب بوجه التقريب ، فقد

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحر مرمرة ومكانها لزميت الصغرى . [المترجم]

تقدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد المجر ؛ بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك بأسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بجنوب روسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من وراءهم الألمان (Alans) بإقليم الفولجا ، وليت الأمر اقصر على هؤلاء ، فإن الشعوب اللغوية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوروبا . وكان الهون يفرضون الجزية وتنتد على الألمان والقوط الشرقيين ويدفعونهما غرباً .

أما في آسيا فإن التخوم الرومانية أخذت تتصدع وتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التي أقام دعائهم ملوك بني ساسان ، أن تصبح منافساً قوياً محبواً بالنجاح في جملة الأمر ، وخصماً لدوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القاري* ألقى نظرة على خريطة أوروبا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراً حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي بالمنطقة التي يسمونها اليوم بأسم أقاليم الصرب والبوسنة . وهناك يعرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منعكسة .

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السلخة الضيقة من الأرض التي لا تتجاوز المسائلي ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطر إمبراطوريتهم الغربي الناطق باللاتينية وشطرها الشرقي الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمراً لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لزحفت أمامها واستردت مقاطعة « داكيا » ، ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكيمة القوية .

ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كان عاهلاً شديداً بالإخلاص والذكاء ، فصد غارة للقوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة العسكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلي وإصلاح عيوبها . فلبأ إلى ما للسيحية من قوة تماسك

وروح معنوية راجياً أن يبعث بهما روح الإمبراطورية للتداعية ، كما قرر أن ينشئ لها عاصمة جديدة دائمة مقرها بيزنطة على مضيق البوسفور . وراح يعيد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسماً جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت في آخر أيام هذا الماهل صفقة عجيبه ، فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، ففعلوا بعض الأراضي في پانونيا ، التي هي اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسماً . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما في هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط الترييون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يبتلوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور قائلين عند أدرنه ، ثم عقدوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحالية مثلما استقر الوندال في پانونيا . وهذه التسوية صاروا رعايا للإمبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم في الواقع غزاة فاتحون .

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩ - ٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متمسكة من الناحية الشكليه . وكانت جيوش إيطاليا وپانونيا تحت قيادة استيليكو الوندالي ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألابريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فناصر ألابريك أحدهما وهو (أركاديوس) بالقسطنطينية ، وظاهر استيليكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ألابريك ومنافسه استيليكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين العلوية في أيديهما ، وفي غضون ذلك الكفاح ، زحف ألابريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين برائن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يعسر علينا تصور صورة حقبة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فالمدن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذلك ، ولكن الفقر عضها بنابه

وهجرها سكانها وعدت عليها عواذى الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منحلة مفعمة بعدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لا شك في أن الموظفين المحليين ظلوا يظهرهم سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتى من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذى أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم فى العادة من الأميين . وقل القراء والقراءة وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن الكتب والتماثيل والصور وما مائلها من إنتاج فنى لم تبرح موجودة فى كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون .

دب الانحلال أيضاً فى حياة الريف . فزایل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الرومانى . فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر . وعاث للصوص فى الطرق والغابات فساداً . وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهى على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤسائهم حكاماً عليها ، وأطلقوا عليهم فى كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية ، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجهات التى يفتحونها شروطاً معقولة ، فيحتلون المدن ويحتلطون بأهلها ويتزوجون منهم ويتعلمون اللسان اللاتينى ينطقونه بنبرة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوباً زراعيين ، لا حاجة بهم إلى المدن ، ويروح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التوتونية التى أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن المحال علينا أن نرسم فى هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهى تروح وتغدو فى هذه الإمبراطورية المختلة النظام بحثاً عن الأسلاب والفنائم والتماساً لموطن جميل تستقر فيه . على أننا سنتخذ الوندال مثلاً نسوقه إليك . فإنهم ظهرتوا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية . واستقروا كما أسلفنا فى باتونيا . ومنها انتقلوا إلى إسبانيا حوالى ٤٢٥ م محترقين الولايات التى تقع فى طريقهم . فوجدوا بإسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب روسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها الملوك والأدواق .

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقيا (٤٢٩) بقيادة جنسريك . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشئوا أسطولا ، وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما وانهبوها (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كبوتها تماما بعد الذى أصابها من عدوان ونهب على يد الاريك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يسيطون سيادتهم على قورسيقة وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربى . الواقع أنهم أنشئوا دولة بحرية شديدة المائلة فى سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعائة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالى ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالى حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضة مؤقتة فى عهد جستنيان الأول .

ولست قصة الوندال إلا مثالا واحداً من الغامرات المائلة . ولكن ها قد أقبلت إلى العالم الأوربى جحافل أبعد ما تكون شبا بهؤلاء العاشين وأبعث للربح فى القلوب : المهون المغوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر ملئ بالنشاط والاعتدال ، بصورة لم يلتق العالم الغربى بمثلا قبل ذلك أبداً .

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولي في أوروبا مؤذنا ببدء مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . ذلك أن الصلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالي قرن من الزمان . أجل إنه حدث في الأراضي المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات ، أن اللاتيين (أهل لابلندة) وهم شعب مغولي - انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلندة) ، ولكنهم لم يلعبوا أى دور في مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا للتفاعلات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية السمرية دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى فى أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الأتوبيين لمصر .

والراجح أن حركة هؤلاء المغول الرحل التجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها في أثناء الرخاء الذى أظلم البلاد فى عهد أسرة هان . وثانيهما حدوث شىء من التغيرات فى المناخ ، لعله قلة فى المطر جففت المستنقعات وربما أزال الغابات ، أو لعله زيادة فى الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، أو لعل هاتين العمليتين جميعا تعاورتا على أقاليم مختلفة فترتب عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية المتغيرة فى الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص فى عدد السكان . وذلك أن الأغنياء فى الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومن وراءهم جباة الضرائب للأباطرة العسكريين ، امتصوا كل ما فيها من حيوية . ولعل القارى قد تجلّت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا بإيجاز ، هى أن الضغط ظهر فى الشرق وقد نخر الفساد فى الغرب وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادي ، ولكن ذلك الشعب الذي كانت الفروسية أعظم مظاهر حياته لم يقبوا منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزة كانوا يقبضون أعطيائهم من استيليكو الوندالي صاحب السيادة على هوريوس . ولم ينقض طويل من حق وقت في قبضتهم بانونيا على الوندال الحالي .

ونشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربى عظيم هو أتيل . وللأسف أن كل مالدينا من علم بدولته لا يتجاوز للمحات للبهمة التي لانشى غيلا . ومهما تكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليطاً من القبائل الجرمانية للتأخرة ، وامتدت دولته عبر السهول للترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين ، وجعل مقر قيادته ومعسكره الرئيسى بسهل البحر شرق نهر الدانوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو پريسكوس ، الذى يقص علينا وصفا لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك الملقول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكانهم . فالعامة يعيشون فى الأكواخ والحيام ، على حين كان الرؤساء يعيشون فى قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات . وكانوا يقيمون الولائم ويحتمسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بعث أبطال الملاحم الهومرية ، بل حتى رفقاء الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم فى قاعدة أتيل العسكرية بقدر من الإلف وعدم الكلفة يفوق فى الراجع ما قد يحسونه فى بلاط راق متدهور كبلات الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بن أركاديوس ، الذى كان يحكم آنذاك فى القسطنطينية .

ومرحين من الدهر زعم الناس فى أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتيل ، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الذى لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يعيد نفسه فى نطاق أوسع . ولكن الهون كانوا أكثر تعلقاً بحياة الترحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن عدم مربين للشاية ميالين للهجرة أكثر منهم مترحلين . وراح الهون يغيرون وينهبون دون أن يستقروا فى مكان .

وظل أتيل بضع سنوات يضغط على ثيودوسيوس ويبحث فى قلبه الرعب ما شاء له

هواه ، وذلك في نفس الوقت الذي انطلقت جيوشه فيه تغيث في البلاد فساداً وتعمل
التهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيون عدد ما دمره من اللدن في شبه
جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطر ثيودوسيوس أن
يشترى رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال معوتين
سريين لاغتياله . ثم عاد أنيلا فوجه التفاته في ٥١٤ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق
باللاتينية فغزا بلاد الغالة . فلم تنج مائة واحدة تقريباً في شمال غالة من الهب والسلب .
عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند
ترويس Tross في معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غفير من الرجال
يتراوح عدده بين مائة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت
تقدمه لبلاد الغالة ، بيد أنها لم تزل كثيراً من موارده العسكرية الماثلة . فإنه دخل
إيطاليا في السنة التالية عن طريق فينيسيا^(١) (منطقة البندقية) وأحرق أكويليا وبادوا
واتهب ميلانو .

وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه اللدن الإيطالية الشمالية
وبخاصة بادوا فلاذت بجزائر المستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإدرياتي ، وهناك
وضموا أول حجر في دولة مدينة البندقية ، التي كتب لها أن تضد من أهم المراكز
التجارية في العصور الوسطى .

مات أنيلا في ٤٥٣ موت الفجاءة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجاً بزواجه من حسناء
صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى الهون الحقيقيون
من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويفوقونهم عدداً . على
أن هذه القارات الهونية الضخمة أتت تقريباً على الدولة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم
روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم
من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما في ٤٥٥ ،
وانتهى الأمر في ٤٧٦ ، بأن قضى أودوا كبر الجند البرابرة على شخص بانوفى وتولى

(١) فينيسيا : قسم إقليمى قديم بإيطاليا ينقسم إلى :

(أ) فينيتو (البندقية الأصلية) . (ب) وفينيتو تريدنتينا .

[للترجم]

(ج) وفيتوجوليا .

مهام الإمبراطورية تحت اسم مهيب هو رومولوس أوغسطولوس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور في الغرب ، وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير السعيدة . ثم أصبح ثيودوريك القوطي ملكاً على روما في ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكمون عند ذلك جميع أقطار أوروبا الغربية والوسطى متخذين ألقاب الملوك والدوقات ، ومستقلين في الواقع وإن اعترفوا في معظم الحالات بشيء من الولاء الرمزي للإمبراطور . كان هناك مئات بل آلاف من مثل هؤلاء الحكام للفتسين المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لا تزال منتشرة ببلاد الغالة وإسبانيا وإيطاليا وداكيا في صور ولهجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت في بوهيميا لغة صقلية هي التشكية — وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من المعلمين قراءة اللاتينية وكتابتها وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من وافي إلا قوة الساعد . فنكثرت القلاع وساءت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انقسام وفرقة ، ران فيه الظلام الفكري على العالم الغربي بأكمله . فلولا أن قبض الله للعالم اللاتيني رهبان المسيحية ومبشرها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا تمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها تمت لأن فكرة المواطنة شددت في البداية بنيانها وربطت بين أجزائها . إذ بقي فيها في أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد غير من رجال أقوياء الوعي بالمواطنة الرومانية ، يرون في تلك المواطنة امتيازاً لهم وواجباً والتزاماً عليهم ، ويطمشون إلى حقوقهم في ظل القانون الروماني ، ويذنون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر ، وذاع صيت روما وأصبح رمزاً للعدالة والعظمة والحفاظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالمواطنة أخذ ينخر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نمو الثروة والاسترقاق . أجل إن المواطنة نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوي عليه من فكرة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تسكن إلا دولة بدائية جداً ، لأنها لم تقم بتعليم الناس ، ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجمهور مواطنيها الغيرة

للمزايدة العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذه من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التي تكفل إيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة ، ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشدية ودعم النشاط الجماعي . فالغامرون الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولام يكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليبدى رأيه في شئون الدولة . لقد مات روح المواطنة جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هي نتاج نهائى للتفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها في العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن للدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئا آخر تكون في أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هبتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تندهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر في أوروبا وتمد عليها ألويتها الشاملة . حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم في عقر دراهم ، ألم يحل بطريق روما دون زحف أتिला على المدينة عندما تسامع الناس بانتوائه ذلك ، وبذا فعل مالا تستطيع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة العنوية البهتة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكملها ، حتى إذا ولت الإمبراطورية ، ولم يعد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومدعيات مما كان لأوثلك الأباطرة ، فانتحل لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرايين الأكبر في الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التي كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادى والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية الساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لا بأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً مابداً فى النصف الغربى . وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها ، وهو القرن الذى تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية . أجل أُرهب أتيلاء الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ يغير على ممتلكاته ويبيع فيها نهياً وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتيلاء شيئاً . وكذلك انحدر النوبيون فى النيل وانتهبوا مصر العليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك فى قدر لا بأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذى خيمت فى أثنائه على الغرب دياجير الظلام ، فقد شهد فى دول الروم امتعاشاً جسيماً . فإن جستين الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) كان حاكماً على المهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لاتقل عنه كفاية ، وهى امرأة بدأت حياتها مثلة . فاسترد جستين شمال إفريقيا من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب إسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على الشروعات العسكرية والبحرية ، بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى . ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى ما يقارب ألف سنة من الزمان .

ظلت دولة ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادى . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى

وسوريا ومصر . وكانت تلك الأقطار لا تزال ترفل في القرن الأول الميلادي في بحبوحة الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان ، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة المذابح والتهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم تزل بها حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهذمة تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينج من عملية الإفقار والفوضى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم . كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

وفي غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا نحهما وزايلاهاتين الإمبراطوريتين التناحرين للضمحلتين . ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد للوروث عن الماضي العظيم ، ويحوطنونها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تموزه تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة للهذين الأحرار الذين تعودوا في التفكير عادات الجرأة والاستقلال في الرأي - ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح والبحث الحر التي تسنها تلك المؤلفات المتينة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هي المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مردما انتاب الذكاء الإنساني من العمق والانتكاس في أثناء ذلك العصر . فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فسكأت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتمركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إلها ، وجعل القياصرة أرباباً بحيث أقيمت لهم الهياكل والمعابد . وجعل تقديم البخور امتحاناً وشاهداً على الولاء لدولة الرومان . على أن هذه الديانات الغابرة كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع . فهي لم تكن لنفزو العقول . فإذا تقدم إنسان بقربانه وامحنى أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد ، فهو لا يترك فقط ليفكر في الله على أية شاكلة يهواها ، بل يقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذي ظهر عندئذ في العالم ، وخاصة المسيحية ، فلإنها نتجه موجز تاريخ العالم -

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تسكنفى بالمطالبة بمسيرة الرجل لمن حوله فى الإيمان بل تنشذ الاعتقاد الواعى . ومن الطبيعى أن تنشب الخصومات الضيقة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجهه تصميم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى خاطئ* ، فضلاً عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر عيباً ذهنياً بل خطأ خلقياً قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويقضى عليها بالدمار السرمدى .

ومن ثم انجح كل من أردشير الأول الذى أسس الأسرة الساسانية فى القرن الثالث الميلادى ، وقسطنطين الأكبر الذى أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتصاً عونها ، وذلك لأنهما وجدا فى تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع دينى . أما فى فارس ، فإن أردشير وجد فى عقيدة زرادشت الفارسية المتينة بكل ما حوت من كهنة ومعابد ونار مقدسة تنفذ دوماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة للدولة . فلم تسكد نهاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن مانى مؤسس « المانوية » وهى عقيدة جديدة ، صلب فى ٢٧٧ و سلخ جلده . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد فى مقاومة الزندقات المسيحية . ذلك أن أفكار العقيدة المانوية أثرت فى المسيحية ، ولم يكن بد من محاربتها بأفطع الطرق ؛ وحدث فى مقابل ذلك أن تأثرت المبادئ الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبذا أصبحت جميع الأفكار متهمة مريية . فليس عجباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأفول التام طوال فترة التمسب هذه ، والعلم يستلزم قبل كل شئ عقلاً حراً فى عمله غير مضطرب فى تكبيره .

كانت الحياة البيزنطية فى تلك الأيام تدور حول الحرب وأشد أنواع اللاهوت تصعباً وأبشع رذائل البشر المألوفة . وكانت بيزنطة ترى فى ذلك شيئاً رائعاً جذاباً ، كما

زاه شيئاً شاعرياً رومانسياً^(١) ؛ وإن كان الواقع يكذب ذلك لحرمان الوضع كله من كل حلاوة أو استنارة . فما تكاد يد بيزنطة أو فارس تخلو من الحرب مع برابرة الشمال حتى تهوى على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب في أثناء حروبهما المهلكة المدمرة . ولو فرض جدلاً أن هاتين الدولتين عقدتا أوثق أو أواصر المحبة والتعالف لما سهل عليهما مع ذلك أن يصدا البرابرة ويستعيدا ما ينبغي لهما من رغد . وفي إبان ذلك ظهر الترك أو التتار لأول مرة في التاريخ متعالفين آنأ مع فارس وآناً آخر مع بيزنطة .

حتى إذا وافي القرن السادس كان الحصان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان ؛ فإذا حلت بداية السابع كان العداء قائماً بين الإمبراطور هرقل وبين كسرى الثاني (٥٨٠) .

وقد استطاع كسرى الثاني في بداية الأمر ، وحتى أصبح هرقل إمبراطوراً (٦١٠) ، أن يجتاح كل شيء أمامه ، فاستولى على أنطاكية ودمشق وأورشليم وبلغت جيوشه مدينة خلقدينة ، القائمة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية . ثم فتح مصر في (٦١٩) . وعندئذ تقدم هرقل ليطعن بجيوشه قلب فارس في هجوم مضاد كبير ، وشقت قرب نينوى شمل جيش فارسي (٦٢٧) ، وإن احتفظت فارس في نفس الحين بجيشها في خلقدينة وفي (٦٢٧) خلع قباز أباه كسرى الثاني وقتله ، وعقد بين الإمبراطوريتين المكدودتين صلح غير حاسم .

لقد اشتبكت بيزنطة وفارس في حربهما الأخيرة ، ولكن قل من الناس من كان يحلم آنذاك بتلك العاصفة التي كانت تتجمع في نفس الحين فوق أراضي الصحراء لتقضى إلى الأبد على ذلك الكفاح المزمع الذي لا هدف له .

وبينا كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه في سوريا ، وصلته رسالة أحضرت إلى موقع أمأى للحراسة الإمبراطورية عند بصرى في جنوب دمشق ؛ كانت الرسالة مكتوبة بالعربية إحدى اللغات السامية ، ولا بد أن أحد التراجم تلاها على مسامع الإمبراطور — إن كانت وصلته أصلاً — كانت تلك الرسالة واردة من إنسان

(١) الرومانسى : كل شيء خيالي شعرأ كان أم ثراً ينطلق وراء حدود الحياة العادية ويسمى أحياناً بالرومانتيكى .
[المترجم]

يسمى محمداً رسول الله ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة . وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباز في المدائن . فاستاء منها ومزقها ، وأمر الرسول بالانصراف . فلما بلغ محمداً نبأ ذلك قال :

« مزق الله ملكه » .

وقد ظهر أن محمداً الذي أرسل الرسالة كان زعيماً دينياً اتخذ مركز دعوته في « المدينة » إحدى البلدان الصحراوية الصغيرة . وكان يعلم الناس ديانة جديدة تدعوم إلى عبادة الله الواحد الحق .

الفصل الثاني والأربعون

أسرتا دسوى ، وتانج ،

بالصين

امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب . فلم يكن هون أتيلا إلا مقدمة لذلك التقدم ، الذى أفضى فى النهاية إلى استقرار شعوب مغولية فى فنلندة واستونيا وبلاد المجر ، حيث لا يزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا ويتكلمون لغات تشبه التركية . والبلغار أيضا شعب تركى الأرومة ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانا آريا . فإن المغول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآرى فى أوروبا وفارس والهند ، نفس الدور الذى لعبه الآريون إزاء المدينيات الإيجية والسامية قبل ذلك بئسعة قرون.

أما فى آسيا الوسطى فإن الشعوب التركية سارت فيما نسميه اليوم باسم التركستان الغربية ، كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلا كثيرا من الموظفين الأتراك والجند المرتزقة الأتراك . وكان الأشقانيون (البارثيون) قد بادوا من التاريخ تماما وامتصهم سكان فارس بوجه عام ، ولذا لم يعد فى تاريخ آسيا الوسطى أى رحل آريين ؛ إذ حلت الشعوب المغولية محلهم . وأصبح الترك سادة على آسيا بالمنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزر (قزوين) .

أدى الوباء العظيم نفسه الذى حدث عند نهاية القرن الثانى الميلادى ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية ، إلى إسقاط أسرة « هان » عن عرش الصين . ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها فى أثنائها الفرقة والانقسام والتعرض لغارات الهون ، ولم تلبث أن نهضت بعدها متعشة القوى ، وبصورة أسرع وأكمل مما تنبأ لأوروبا فيما بعد : فلم

يكد يحل القرن السادس الميلادى حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوى ، ولم تلبث هذه حتى حلت محلها في عهد هرقل أسرة تانج ، التى يسجل التاريخ لحكمها عهدا عظيما آخر من عهود الرخاء بالصين .

كانت الصين طوال القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية ، أعظم أفطار العالم أمنا وأبعد في الحضارة باعا، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان تحومها شمالا ؛ ثم جاءت أسرتا سوى وتانج فبسطتا ألوية حضارتها جنوبا ، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرقعة الفسيحة التى لها اليوم . أجل إن ممتلكاتها كانت آنذاك بأسيا الوسطى أبعد كثيرا مما هى اليوم ، إذ كانت تمتد على طريق القبايل التركية الخاضعة لها ، حتى تبلغ في النهاية تحوم فارس وبحر قزوين .

وشتان بين الصين الجديدة التى نشأت وقتئذ وبين الصين العتيقة لأسرة هان . فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقها ، وحدث في الشعر نهضة عظيمة ؛ كما أن البوذية أحدثت انقلابا في الفكر الفلسفى والدينى، وحدث تقدم عظيم في الإنتاج الفنى والمهارة الفنية التطبيقية وفي كل ما يهيج الحياة من نعم ومسرات . فاحتسب الشاى لأول مرة في التاريخ ، كما صنع الورق ، وبدى بالطباعة بواسطة الكتل الخشبية . والحق أن ملايين من الناس كانوا يعيشون ببلاد الصين عيشا جذابا رقيقا منظر إيان تلك القرون ، التى كان فيها سكان أوربا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون عيشا زريا : بين ما كن في كوخ حقير أو نازل في مدينة مسورة صغيرة أو متحصن بقلعة لصوم بشعة الصورة . وفي نفس الوقت الذى كانت تغشى فيه عقل العرب دبابير التنصب اللاهوتى ، كان عقل الصين متفتحا للعلم متساعبا باحثا عن المعرفة .

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاى تسونج الذى ابتدأ حكمه في (٦٢٧) ، وهى نفس السنة التى انتصر فيها هرقل قرب نينوى . وقد جاءه سفير من قبل هرقل ، الذى ربما كان يبحث عن حليف له في الجهة الأخرى من بلاد فارس ووفدت عليه من فارس نفسها جماعة من المبشرين المسيحيين (٦٣٥ م) . فسمح لهم أن يشرحوا عقيدتهم أمامه ، وأخذ يدرس ترجمة كتبهم المزعلة . ثم أعلن أن في الإمكان قبول هذه الديانة العبية ، وأذن بإنشاء كنيسة ودير .

وإلى ذلك العاهل نفسه أقبلت رسل النبي محمد في (٦٢٨) فوصلوا إلى كاتون على ظهر إحدى السفن التجارية ، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد سواحل الهند . وأعار نايتسونج لمؤلاء المبعوثين أذنا مصغية كريمة على التقيض مما فعله قباذ وهرقل ، ثم أبدى اهتماما بأرائهم الدينية ، وساعدهم في بناء مسجد بمدينة كاتون ، وهو مسجد لا يزال باقيا - فيما يقال - إلى وقتنا هذا ، فهو بذلك أقدم مساجد العالم .

الفصل الثالث والأربعون

محمد والإسلام

لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي لأمكنه أن يستنتج بحق - أنه لن تنقضى بضعة قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول ، ذلك أن أوروبا الغربية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد ، كما أن الدلائل كلها كانت تدل على أن دولتي الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كل منهما الأخرى . وكان الانقسام والحرب يعمل عمله في الهند أيضاً ، وذلك في حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مستمرة الاتساع ، ربما فاقت أوروبا جمعا في عدد السكان ، فضلا عن ميل الشعب التركي الذي أخذ يتسهم غارب القوة بآسيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين .

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثاً باطلا بأي حال ، إذ جاء في القرن الثالث عشر أو أن قدر فيه سيد مغولي أعلى أن يحكم إقليما يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادى ، كما كتب للأسرات التركية السالكة أن تحكم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية جميعاً وتسود مصر ومعظم بلاد الهند .

أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك للتكهن للخطأ فهي عدم تقديره بالضبط قدرة أوروبا اللاتينية على استرداد قواها ، وتجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية ، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم : حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة متناوشة من الرجل ، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة ، لم يثنى شعب سامى في أثنائها إمبراطورية واحدة .

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بياهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالأبهة والفخامة ، مدوا في أثنائه حكمهم ولقمتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين ، ومنعوا

العالم ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم .

أما الرجل الذى أشعل ذلك القبس العربى ، وهو محمد [عليه السلام] فيبدو لأول مرة في التاريخ بمدينة مكة ، حيث تزوج وهو شاب من أرملة ثرية ولم تأت به الرسالة حتى بلغ الأربعين ؛ لذا لم يتميز قبل ذلك بشئ اللهم إلا ما عرف عنه من أمانة واستقامة ، والظاهر أنه كان يهتم اهتماما بالغا بالبحوث^(١) الدينية . كانت مكة بلدة وثنية في ذلك الزمان تعبد بوجه خاص حجرا أسود في بناء الكعبة ذاع صيته في كل أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبح مقصد الحج والحجاج ؛ ولكن البلاد كانت تحوى عدداً ضخماً من اليهود - بل الواقع أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان يعتنق اليهودية ديناً - كما أن سوريا كانت بها العقائد المسيحية .

وعندما قارب الأربعين من عمره ، أخذ ينزل عليه ناموس النبوة الذى كان لأنبياء العبرانيين قبل عهده باثني عشر قرناً .

فتمحدث أولاً إلى زوجته بكلام كثير : - عن الله الواحد الحق . وعن ثواب الإحسان والمحسنين وعذاب الشر والضلال ، فجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين ، ثم شرع يعظ الناس في بلدته ويحضرهم على ترك ما يعبدون من أوثان ، فكرهه لذلك قومه وأهل بلدته ، نظراً لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير المصم الذى تحظى به مكة .

ومالبت أن زاد جرأة وأن حدد تعاليمه أكثر ، فأوحى إليه فأعلن أنه خاتم أنبياء الله وأنه بعث ليم الدين ومكارم الأخلاق . وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به مبشرين ومنذرين سابقين . وأنه اصطفى ليم ويكمل الكشف عن إرادة الله .

(١) لم يعرف عنه صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، بل المعروف هو تقوره من عبادة الأصنام وعدم سجوده لصنم قط .

وكما اشتدت قوة تعاليمه اشتدت وطأة عداوة أبناء بلده له ، حتى تراسى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه ؛ ولكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتليذه الأمين أبي بكر إلى بلدة المدينة للولاية التي اعتنقت مبادئه .

ومالبت الخصومة والحرب أن استمرت بين مكة والمدينة ، وانتهت في آخر الأمر بمعاودة صلح ؛ فلبت مكة بمقتضاها أن تعبد الله الواحد الأحد ، وأن ترضى بمحمد رسولا له ونبياً ، على أن يواصل اتباع العقيدة الجديدة أداء فريضة الحج بمكة .

بذلك وطد محمد - بوحي من ربه - عبادة الرب الواحد الحق بمكة دون أن يضر تجارتها وحييها . وعاد إلى مكة في ٦٣٩ سداً لها مطاع الكلمة ، وإذا هو يرسل في مدى سنة من ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل وتايقسنوج وقباز وجميع حكام الأرض كافة .

ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام ييسط سلطانه على بقية أجزاء الجزيرة العربية في السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته في (٦٣٢) ، وتزوج عدداً من النساء في أثناء سنى شيخوخته .

ويلاحظ أنه رجل ركبت فيه طباع كثيرة ، منها شدة الشعور الديني والقوى والإخلاص . وأوحى إليه من الله كتاب هو القرآن ويحوى كثيراً من التعاليم والشرائع والسنن .

ويحتوى الإسلام الذي فرضه النبي على العرب ديناً ، الشيء الكثير من القوة والإلهام . فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه ؛ وإيمانه البسيط التعمس بحكم الله للناس وأبوتهم الشاملة لهم وخلاؤه من التعميدات اللاهوتية .

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كلهن القرايين ومعبدها ، فهو عقيدة نبوية تماماً ، بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرايين الدموية .

والقرآن حين يذكر طيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشرائع ، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للنزاع في شأنها ، كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليعول دون تأليه بعد مماته ، ونعمة عنصر ثالث للقوة يكن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعاً إخوة متساوون تماماً أمام الله ، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم .

هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشؤون الإنسانية . ويقول

المؤرخون إن المؤسس الحق للدولة الإسلامية لم يكن محمداً قدر ما هو صديقه ومساعدته أبو بكر . فلئن كان محمد هو العقل والفكر والتصور للمهم للإسلام الأصلي ، فلقد كان أبو بكر ضميره وإرادته ، حتى إذا مات محمد أصبح أبو بكر خليفته ، ثم راح بعقيدة ترحل الجبال ، يعمل ببساطة وعقل راجع على إخضاع العالم كله لأمر الله — ببساطة جيوش يتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة آلاف عربي طبقاً لتلك الرسائل التي كتبها النبي عليه السلام من المدينة في (٦٢٨) إلى جميع ملوك العالم . فهو بحق مؤسس دولة الإسلام .

الفصل الرابع والأربعون

عهد عظمة العرب

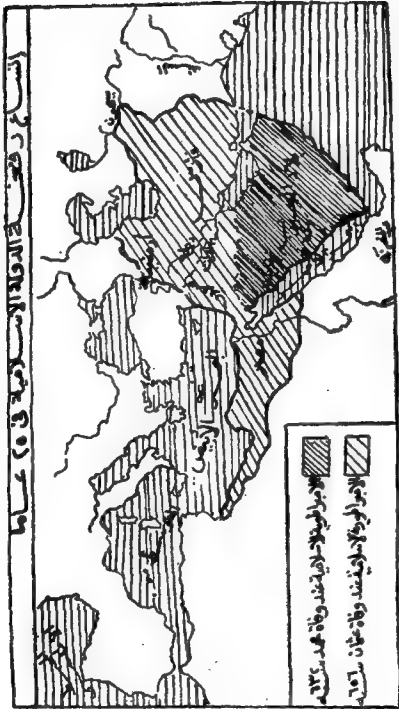
ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري . إذ تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهر الأردن) في (٦٣٤) ؛ ولم يلبث الإمبراطور هرقل — وقد استنزف داء الاستسقاء قواه كما استنفدت الحرب الفارسية موارده المالية — أن رأى ممتلكاته التي استردها وشيكا في سوريا وهي دمشق وتدمر وأنطاكية والقدس وغيرها ، تتداعى أمام المسلمين دون مقاومة تقريباً . واعتنقت الإسلام نسبة كبيرة من السكان . ثم اتجه المسلمون شرقاً إلى بلاد الفرس الذين وجدوا في رسم قائداً قديراً ؛ فجمعوا له جيشاً عظيماً به قوة من الفيلة ؛ واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسية (٦٣٧) ثم هزموا في النهاية هزيمة تامة .

وتم بعد ذلك فتح فارس بأجمعها ، وتقدمت الدولة الإسلامية قدماً إلى التركستان الغربية ثم توغلت في الشرق حتى التقت بالصينيين ، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين .

واندفع سيل الفتح على ساحل إفريقية الشمالى حتى بلغ مضيق جبل طارق وتجاوزته إلى بلاد الأندلس في ٧١٠ ، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في ٧٢٠ . ولم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في ٧٣٢ ، ولكنه أوقف هنا إلى الأبد بعد معركة بواتيه^(١) ، ورد على أعقابهم إلى جبال البرانس ثانية . وصار للعرب بفتح مصر أسطول بحرى ، وجاء أوان لاح فيه سقوط القسطنطينية وشيكا ، فهاجموها بحراً مرات عديدة بين ٦٧٢ ، ٧١٨ ، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم .

لم يوهب العرب كفاية سياسية كبيرة ، كما أنهم لم يرزقوا أية خبرة سياسية أبداً ، لهذا

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الغافقى على يد شارل مارتل الفرنجى



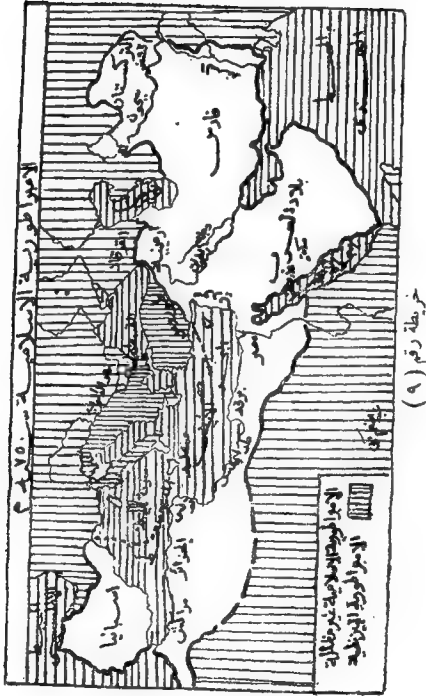
خريطة رقم (٨)

لم يقدر لهذه الإمبراطورية العظيمة التي أصبحت قصبها آنذاك مدينة دمشق ، والتي امتدت رقعتها من إسبانيا إلى الصين ، أن تعيش طويلا ومنذ البداية نفسها ، قوضت الخلافات المذهبية وحدتها . على أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسي ، بل أثرها في العقل الإنساني وفي المصائر العامة لجنسنا البشرى . لقد قذفت المقادير بالكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت . لذا عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التي أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين ، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة .

وفي فارس اتصل هذا العقل العربي الجديد التنبيه لا بالمبادئ المأنوية والزرادشتية والمسيحية وحدها ، بل التقى أيضاً بمؤلفات الإغريق العلمية ، التي لم تكن مكتوبة فقط باللغة اليونانية بل في ترجمات سريانية كذلك . ثم إنه وجد العلوم اليونانية بمصر أيضاً . كما أنه استكشف في كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطا في نواحي التأمل الفكري والجدل . والتقى في وسط آسيا بالبوذية وبما بلغت الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادي ؛ فتعلم منها صناعة الورق ، التي يرجع إليها الفضل في ظهور الكتب المطبوعة . ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود .

وما هي إلا فترة وجيزة جدا حتى ولى الشعور المتعصب بالكفاية الذاتية الذي ظهر في أيام العقيدة الأولى . والتي كان يصور القرآن في صورة الكتاب الوحيد الذي يجوز الأخذ به . فكان العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربي . فلم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر في كل أرجاء العالم المستعرب . وحين وافى التاسع إذا بالعلماء في مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند . وتمثل كل من العقليين اليهودي والعربي بعضهما بعضا ، ومرت فترة تعاون فيها الجنسان الساميان على العمل المتضافر بوساطة اللسان العربي . ثم تمزق شمل العرب وضعت شوكتهم ، ولكن هذا الارتباط الفكري بين أصقاع العالم الناطق بالعربية دام بعد ذلك التمزق طويلا . وكان لا يزال ينتج في القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جدا .

وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للعقائيق الذي بدأه الإغريق لأول مرة ،



عاد سيرته الأولى في ثنانيا تلك النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامى . فالآن دبت الحياة في بذرتى أرسطو ومتحف الإسكندرية ، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الإثمار .

لقد تم للعرب فى حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم . فنبتت الأرقام الرومانية القيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجم القول والدبران والعواء Botes تحتفظ بذكرى فتوح العرب فى أطباق السماء ، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أصحاب الصنعة » Aldhemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الممجية من حيث احتفاظهم بطرائقهم وتناجحها فى طى السكبان ماوسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ماقد تمود به عليهم مستكشافاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب بها على الحياة البشرية من عواقب بعيدة الأثر .

ولا شك أنهم وقفوا إلى مستنبطات فى المعادن والتطبيق الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والطور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا يندشونهما عبثا ، أما أول الغرضين « فحجر الفلاسفة » الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب . أما الغرض الثانى فهو إكسیر الحياة . وهو تزيق بعيد الشباب ويطيل العمر إلى ما لا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المخوفة بالمشقة والصبر ، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصبح جهود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويدا رويدا وبالتدرج البطيء للغاية ، فإنهم شعروا بالفائدة التى تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطيء غير المحسوس .

كان قديما أهل الصنعة ينشدون حجر الفلاسفة الذي يراد له أن يحيل المعادن الدنيئة إلى ذهب ، كما يطلبون إكسير الخلود ؛ ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لاحد له على العالم كله ، بل وعلى مصائرهم هو نفسه .

الفصل الخامس والعشرون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة متقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم للمغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شيء تحت حكم الآريين إلا الممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت إسبانيا كلها تقريباً . وقد انعكس العالم الهليني العظيم حتى أصبح يضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شيء يخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللسان اللاتيني الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى النقيض القوي لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الدلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستفدها الأيام تماماً . فإنهم وإن حصروا آثذ في منطقة أوربا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً في حمأة أفسكارم الاجتماعية والسياسية ، فقد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دأمة نظاما اجتماعياً جديداً ويعدون العدة ، بغير وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً مما استمتعوا به في الماضي .

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث في بداية القرن السادس أن أوربا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليين الذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاقته . وفي ذلك ما فيه من الاضطراب الذي لا يبشر بأي دوام لتلك الحالة ؛ لذا نجم بين ظهراني تلك الغوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعي الذي بقيت آثاره في الحياة الأوربية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعي ضرباً من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن

الرجل الفرد أحس في كل مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقايضة شيء من حريته بشيء من الممونة والحماية . فالتمس لنفسه رجلاً أقوى منه شوكة ليكون سيداً له وحامياً ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع للكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ماله من ممتلكات ، وكذلك الشأن مع سيده الذي كان يحس الأمان في الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت للدن كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط مماثلة لهذه . ومن البديهي أن الولاء كان يطلب في كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائياً ؛ فكان النظام كان ينمو إلى أسفل مثلاً كان ينمو من أسفل إلى أعلى . وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمي يختلف اختلافاً بعيداً بمختلف المناطق ، ويسمح في البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام ، ونحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تعلو حتى أصبح بعضها ملكيات واسعة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا) ، وسرعان ما ظهرت أيضاً ممالك قوطية غربية ولومباردية .

وعند ما عبر المسلمون جبال البرانس في ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقعي » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منغل من سلالة كلوفيس ، — وهناك عند پواتييه (٧٢٢) لقوا على يده هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا في الواقع السيد المتحكم في أوروبا في رقعة تمتد شمال جبال الألب ، من جبال البرانس حتى بلاد البحر . وكان يسيطر على العدد الجم من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وباللغتين الجرمانيتين العليا والسفلى^(١) . وما لبث ابنه « بين » أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على مملكتهم وتاجهم ووجد حفيده شلمان الذي بدأ حكمه في ٧٦٨ نفسه حاكماً على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يعيد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) ويتلقب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

(١) الجرمانية العليا : من لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبها - والجرمانية السفلى هي لغة السهول الشمالية المنخفضة .
[الترجمة]

وعندى أن في مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العالمى الرحيب الأفق ، أقول في مستطاعنا أن نتبين أكثر من مؤرخ قومى بحث ، الأثر الأليم المعوق الذى جلبه على أوروبا إحياء ذلك اللقب الرومانى الإمبراطورى . إذ إن أوروبا نسكت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقها مدة تزيد على ألف سنة ، استنفدنا أثناءها كل طاقاتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرايتها تتأجج في عقول الأوربيين تأجج الوسواس^(١) في عقل مخبول به مس من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح كبار الحكام ، الذين يمثلهم شرلمان (ومضاها شارل الأكبر) - إلى التلقب بلقب قيصر . وكانت مملكة شرلمان تتكون من مجموعة معقدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح في قوة طابعها البربرى . وقد تملت معظم هذه الشعوب الجرمانية في غرب نهر الرين أن تنطق بلهجات تلونت باللون اللاتينى ، ولم تلبث في النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية الماثلة في جنسها لتلك التى في غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى . لذا لم يعد التواصل سهلاً بين طائفتي هؤلاء الغزاة البرابرة ، وسرعان ما حدث الصدع بينهما . وزاد في تيسير الصدع أن عرف الفرنجة كيف يعملون من الطبيعى تقسيم إمبراطورية شرلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة في تاريخ أوروبا منذ أيام شرلمان فما بعدها ، أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك ، وهم يكافحون في سبيل رئاسة مقلقة على من عاصروهم في أوروبا من ملوك وأمراء ودوقات وأساقفة ومدن ، في حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية - يزداد عمقاً في طوايا تلك الحصومة . وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لكل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتمتع كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الموقع السيمى وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى في الاضطراب السيامى بأوروبا فهو تصميم الكنيسة بروما على ألا تسمح لأى أمير علمانى إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطوراً واقعياً . وقد سبق للبابا

(١) الوسواس : (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائماً تكون عادة بلون عاطفى قوى ، وغالباً ما تنطوى على دافع إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية وتسمى في علم النفس باسم الهواز أو الانحصر . [المترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الدواعى العملية البهتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة المتداعية المتدهورة ؛ ولئن أعوزته الجيوش فلقد كان يملك على الأقل مؤسسة نخمة للدعاية ، لسانها قساوسته المنتشرون فى كل أصقاع العالم اللاتينى ؛ ولئن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، فلقد ملكت يمينه فيما تتصور أخيلتهم مفاتيح الجناات والجصم ، وكان له من ثم نموذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التى ترسم أمامنا عن العصور الوسطى بأكلها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيراً — كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعا لسلطانه بوصفه السيد الأعلى للنصرانية ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا ، وبإعمال المكر والدهاء تارة ، أو بخسة وضعف أخرى (وذلك لأن الباباوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ لم يزد حكم أحدهم عن سنتين قط) .

يبد أن هذه الخصومات الناشئة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوربا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يتكلم الرومية ويطلب أوربا كلها بالولاء لعرشه ، وعند ما حاول شرلمان أن يبتث الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من ابتعاث القسم اللاتينى منها . فكان من الطبيعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالمنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين مثلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان . وبدى أن إمبراطور القسطنطينية وبطريقها لا ينظران بعين الرضا إلى هذا الادعاء ، ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة فى موضوع التالوث المقدس ، فكان نقطة الانفجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عداوة . وينبغى أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها من الخصومات التى ذكرناها فى تعدادنا للنزاعات التى بددت قوى عالم النصرانية اللاتينية فى العصور الوسطى .

وعلى رأس هذا العالم المسيحى المتفرق الكلمة ، انتهالت الضربات من قبضة



خريطة رقم (١٠)

مجموعات ثلاث من الخصوم . فإن منطقة بحر البلطيق والبحار الشمالية ظلت مقيمة بها مجموعة من القبائل النوردية لم تعتن المسيحية إلا ببطء شديد وبغاية النفور والتخنع ، وهي قبائل النورمان (أهل الشمال) ، جنبت تلك القبائل إلى البحار واحترفت القرصنة ، وأخذت تغير على شواطئ العالم الصراية جميعاً حتى إسبانيا . وقد تقدموا قبل ذلك إلى المناطق العليا من الأنهار الروسية حتى بلغوا المناطق القاحلة الوسطى ، ثم نقلوا سفنهم إلى الأنهار المتجهة صوب الجنوب . وظهروا كقرصنة على صفحة بحر قزوين والبحر الأسود وأقاموا الإمارات بالروميا ؛ وهم أول شعب سمي باسم الروس ، وأوشك هؤلاء النورمان الروسون على الاستيلاء على القسطنطينية يوماً ما . وكانت إنجلترا في مستهل القرن التاسع قطعاً متصراً يسكنه قوم من الأرومة الألمانية السفلى تحت ملك هو إيجبرت ، وهو تلميذ لشرلمان ينضوي تحت حمايته ولكن النورمان اغتصبوا نصف المملكة من خلفه ألفريد الكبير (٨٨٦) ، ثم جعلوا من أنفسهم في عهد كانوت (١٠١٦) سادة على البلاد . وجاءت ثلة أخرى من النورمان بقيادة رودلف العداء (٩١٢) ففتحت شمال فرنسا التي أصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم نورمانديا .

وامتد سلطان كانوت فلم يقتصر على إنجلترا وحدها بل شمل بلاد النرويج والدانمرك أيضاً ، ولكن إمبراطوريته القصيرة الأجل تمزقت عند موته إرباً ، بسبب نقطة الضعف

السياسى للشعوب البربرية جمعاء ، وهى انقسام أبناء الحاكم الرئيس على أنفسهم . ولعله مما يشير اهتمامك أن تتأمل النتائج التى كانت تترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذى قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوتى جرأة مدهشة وهمة نادرة . تقدموا بمراكبهم فى البحر طويلا حتى لقد بلغوا إيسلنده وجرينلند . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوروبيين . وقد حدث فيما يلى ذلك من عهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستهوى ألباننا تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التى كانت نواتها مملكة كانتوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى روسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوروبيين المصطنعين بالصبغة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية (الصقلية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجرىون (الهنغاريون) الذين ظلوا يتقدمون غربا طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدم شرلمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته فى بلادهم الحالية ، وأخذوا يغيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوروبا المستقرة على جارى عادة الهون أسلافهم اللشاهين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها فى ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا فى تلك البلاد سركة وتحريقاً وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التى نزلت بأوروبا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فهدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان الغرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عوائل طامعين إلى العلا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لا يفقهون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقدراً ، راحوا يضطلعون بمسرحية غير ذات غناء ، هى إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخامر الحياة السياسية لأوروبا الغربية منذ عهد شرلمان مخامرة حالات التهوس ، على حين كان النصف اليونانى من الدولة الرومانية يضمحل فى الشرق ويذوى حتى لم يبق منه فى النهاية شئ . خلا مدينة تجارية فاسدة متدهورة هى القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضى المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد العقيمة غير المثمرة مدة ألف سنة بعد أيام شرلمان .

ذلك المظهر : ونجح البابا في تنويع ضيفه الغازي على غرة منه بكنيسة القديس بطرس في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شرلمان ونادى به قيصرا وأوغسطس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شرلمان بأى حال عن الطريقة التي تم بها الأمر ، الذي ظلت ذكره تخرج كرامته ، كأنها هزيمة منى بها ؛ كما أنه ترك لابنه أدق التعليقات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتتويجه ؛ وأن يتناول التاج يديه ويضعه بنفسه فوق رأسه .

وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل اللديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدينية . على أن لويس الورع بن شرلمان أغفل تعليقات أبيه وخضع للبابا خضوعا تاما .

وتمزقت إمبراطورية شرلمان شرمزق بموت ولده لويس الورع ، واتسعت شقة الصدد بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذي تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنرى الصياد ، وهو الذي انتخبته ملكا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم في ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا في ٩٦٢ . وانقرضت هذه الأسرة السكونية في أوائل القرن الحادى عشر وحل محلها حكم آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع المقيمين في الغرب والناطقين بلهجات فرنسية متنوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعق أحفاد شرلمان ، كما لم يحدث قط أن جزءا من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صفار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت مملكة فرنسا في ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى يدهيو كابت ، الذي كان أحفاده يحكمون فرنسا في القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيو كابت إلا منطقة صغيرة نسييا تحيط بمدينة باريس .

وفي ١٠٦٦ هوجت إنجلترا من جهتين في وقت واحد تقريبا ، فزها نورمان الترونج بقيادة هارولد هارد رادا ، كما هاجها من الجنوب النورمان ذوو الطابع

اللاتيني بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازى النرويجي فى معركة جسر ستامفورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستنجز . وفتح النورمانديون إنجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندنافية التيونونية والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من منازعات . وظل الإنجليز مشبكيين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك المدة الضخمة يبددون قواهم فى ميادين القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يثير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلمان تبادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد ، وهو نفس هارون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد - التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وصاعة مائة وأحد الفيلة ومفاتيح النابلس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خبطة محكمة التدبير أراد به تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورشليم ولبن منها حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقت الذي كانت أوروبا تصلى فيه إبان القرن التاسع ناز فوضى الحروب وما يصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوروبا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لا يزالان عندهم محتفظين بنشاطهما القوي ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان في إمكان العقل البشري أن يتنقل في أبراج التفكير دون أن تموجه مخاوف أو خزعبلات . وكذلك اشتدت قوة الحياة الفكرية في إسبانيا وشمال إفريقيا التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون في آرائه إبان تلك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوروبا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التي طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقي من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتخذت

الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناشطين فكرياً في الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية في أثناء القرن العاشر ، وذلك بينما دب ديب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بعلاقة الميدين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرناً ، وحدث في القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك السلجوقيون زحفت على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكماً بالاسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم ، وأسيرا في أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك بنزول الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء في ١٠٧١ في معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاحت الأتراك البلاد قدما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا . ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية وأخذوا يعدون العدة للأجهاز على المدينة نفسها .

دب الرعب في قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكاً في حرب ضروس مع ثلة من الفاطميين النورمان استولت على مدينة دورازو ، ومع شعب تركى شديد الشراسة هو البشناق (البقشنج) ، الذين كانوا يغيرون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو في محنة أن يلتمس للمعونة حيث استطاع أن يجدها ، وبما تجدد ملاحظته هنا أنه لم يلبأ إلى إمبراطور الغرب بل التمس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للنصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثاً بإريان الثانى .

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن ، - والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكرها قوية الإشراف في عقول الناس ، ولا شك أن هذه الكارثة التى أصابت بيزنطة قد تبذرت لعين البابا فرصة ثمينة يعيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف ، وفضلا عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعالجة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتينية إما إزعاج ، وأول الأمرين هو « عادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث الفوضى في الحياة الاجتماعية ، وثانيهما هى طاقة القتال الفياضة التى يقسم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المتصورون ولا سيما الفرنجة منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تشن على الترك مغتصبى بيت المقدس ، كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥) .

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الكفرة .
وراح رجل يدعى بطرس الناسك يحجج الآفاق ويث دعايته في الجماهير بكل من فرنسا
وألمانيا ، وكان يتجول في البلاد في ثوب خشن حافي القدمين ويمتطي حماراً ، وهو يحمل
صليلاً ضخماً ويخطب الناس في الشوارع والأسواق والكنائس .

وكان ينحى على الترك ما يرتكبونه ، ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويذكر
الناس بالمار الذي يعود عليهم من بقاء النواوس المقدس في أيد غير مسيحية ، وعند
ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في استجابة الناس لها .
فلن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربي ، وعند ذلك اكتشفت
النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن عامة الشعب
تحملاً لفكرة واحدة ، شيئاً جديداً لم يعهد له مثيل في تاريخ البشر ، هي شيء ليس له
من ضرب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت
في نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد تحرره من الأسر البابلي ،
كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدي مماثلة لهذه .

ومن المحقق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التي ظهرت في هذا العالم
مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعلمين والمبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وعيسى
والحواريين وماني ومحمد ، كانوا جميعاً معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا
يواجهون ضمير الشخص بأقرب رأسا . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى الفتيشة
والحزبيلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير البشري ، وكان النوع
القديم من الدين يدور حول المعبود ، والكاهن المتدرج في أسرار العقيدة والقرايين
الرمزية ، كما كان يحكم الرجل العادي بالخوف حتى لسكانه العبد الرقيق . أما ذلك النوع
الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنسانا .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة في التاريخ
الأوروبي ، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديمقراطية الحديثة ، وإن
لم يخالجننا شك في أن الديمقراطية الحديثة تحركت فعلا في ذلك الزمان ، وسنجد

تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسال أسئلة اجتماعية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك في أن هذه الحركة الأولى الديمقراطية انتهت بنهاية ألحمة فاجعة ، فإن حشوداً ضخمة من السامة هي في الواقع جماهير محتشة أكثر منها جيوشاً ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوربا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها أو معدات تزود بها ، وهي تريد إنقاذ القبر المقدس وتلك هي « الحملة الصليبية الثمعية » . وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر - الذين دخلوا عندئذ في المسيحية وشكوا كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض الفظائع ، وهب المجرىون فأعملوا فهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلت عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكره كسابقيه فزحف شرقاً بعد أن أعمل الذبح بشدة في يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور حيث هزمهما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحوهما ذبحاً ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوروبية بوصفها حركة شعبية .

وفي السنة التالية (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات المقاتلة الحقبة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية في الروح والقيادة ففتحوا نيقية عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريباً نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . وقد عطلهم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاصرة بيت المقدس في يونيو ١٠٩٩ ، وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت المذبحة التي دارت بها رهبة عظيمة ، فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع أنهاراً ، وما أرحى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سبيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر المقدس وتغلبوا على كل مقاومة في المدينة ؛ وهناك جثوا للصلاة ملطخين بالدماء ، متعينين مكثودين ليكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريق القدس الرومي (الأرثوذكسي) نفسه وهو في ظل اللاتين المتصرين في موقف أسوأ من موقفه في ظل الأتراك ،

واكتشف الصليبيون أنهم وقصوا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاثلون الطرفين جميعاً . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة^(١) بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، في سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسلمين في ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب ولكنها أوقدت أنطاكية من الوقوع في نفس المصير .

وفي عام ١١٦٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية قائد كردى اسمه صلاح الدين الأيوبي ، أصبح حاكما على مصر . فدعا إلى قتال الصليبيين ، واسترد بيت المقدس في ١١٨٧ ، وبذا استفز أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأتراك تماما ولم يحدوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة في ١٢٠٤ .

وكانت زعيمة هذه للقاهرة هي مدينة البندقية الثغر التجارى الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية . ونصب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمة البابوية ، مثلما كان الحادى عشر عصر تفوق الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان ، وفى هذا

(١) الدولة الحاجزة (Buffer State) : دولة محايدة تم بين دولتين متعادبتين ويؤدى وجودها الى التقليل من خطر الحرب بينهما .
[للفرجم]

المصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم للسيحية تحت حكم البابا ، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أى وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفي إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا . أجل إن روما نفسها مرت عليها أدوار حالكة مثينة غير كريهة ؛ قلما جرؤ كاتب على التهوض لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر في أثناء القرن العاشر - فإنهما كانا من الكائنات الكريهة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة في روحها ومعناها ؛ وفي ظلها قضت الأغلبية العظمى من القساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية رائدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى « جريجورى الأكبر » وهو جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤ م) وليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦ م) ، الذي دعا شرلمان ليكون قيصرًا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل دير عظيم ذو سياسة وتدير هو « هلدبراند » ، الذي تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٧٥ م) ، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن الباباوية والتي تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت للبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقاً إلى إيرلندة غرباً ، ومن النرويج شمالاً إلى صقلية وبيت المقدس جنوباً . وجريجورى السابع هو الذى أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخوص إليه تائباً منبياً بكانوسا وانتظار العفو منه ثلاثة أيام بلياليها واقفاً في ساحة القلعة ، في ثوب من الحيش وهو حافي القدمين على الثلج . وفي ١١٧٦ رُكع الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك بربروسا على ركبته بين يدي البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم بيمين الولاء .

لا جدال أن المصدر الأول للقوة الكبرى التي استمعت بها الكنيسة في القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضمائرهم . على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالمكانة الأديبة التي قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذى قضى على ثقة العوام الساذجة في عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعودوا يستجيبون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟

إن أول مصدر لتأعب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها للثروة واستكثارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثير ما جنع من لا عقب لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن المذنبين النائين كانوا يصنعون بفعل ذلك ، لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضى من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا . ومن البدهيات التى لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسمع الناس وتناقلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات .

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد الباباوية الأجنبية ، فإن أراضيمهم التى كان ينبغي أن تحول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكرى للملك أو الأمير ، كانت تعول الأديرة والرهبان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضى كانت في الواقع الذى لا شك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة « التعينات » أعنى من هو صاحب الحق في تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجورى السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضباط رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق في الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما ، ولت الأمر اقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق في جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلى فوق الضرائب التى كان يدفعها لأميده .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبّان القرن الحادى عشر ، وأعنى بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا في ذلك الكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة له ، وعلى الاعتراف بشخص آخر بخلفه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها ، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة ؛ وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثانى عشر من كبح

جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدّهم مراساً ، ومن بث الرعب في أشد الشعوب جوحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لايجوز استمالتها إلا في الظروف الاستثنائية البعثة . ولكن الباباوات راحوا يستعملونها في النهاية بكثرة فلت مضاءهما وأزالت تأثيرهما . ففي الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثاني عشر ، تحرّم اسكتلنده وفرنسا وإنجلترا على التوالى . كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون - حتى تناهى الأمر إلى أن خمدت روح كل شىء صليبي .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعينت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تخرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ، وكانت تقوم بينهم وبين من يجيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ، بل كانوا والحق يقال شطراً من الشعب ، ولكن جريجورى السابع حتم عليهم العزوبة ، وبذلك قطع الرابطة القوية التى كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين قاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بسجلة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخذوداً عميقاً .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة . فهى تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التى يكون القساوسة طرفاً فيها ، بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام وكل من لامعين له ، كما تحتفظ لها حكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والأنسكة والأمن . وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف ، وكان على العلماني أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله في حين أن التزامات السلم وأعباء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجباً إذن أن تنمو في النفوس العداوة والحسد لرجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل مايدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضماير الناس ، فكانت تحارب الحماسة الدينية التى كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة ضعة المعتقد على صاحب الشك البرى ، وعلى المارق صاحب الانحراف في الرأى دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشؤون الخلقية ،

كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون المذهبية ، وعندما أخذ والدو يبشر فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجنده بقمعهم بالبار والسيف وهتك الأعراض وبأشد أنواع القساوت بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وشتموا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرسليا وهم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التى أسسها القديس دومينيك (١١٨٠ - ١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المذهبي كانت موضع التضيد القوي من إنوسنت الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بمذيعاتها السرفة ، وامتيازاتها الأثيمة ، وبعدم تسامحها الحالى من كل حكمة وعقل ، تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو اطلعت على قصة تدهورها لماحدثتك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الأحمال الذى ينخر فيها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أعظم نقاط الضعف في الكنيسة الكاثوليكية في أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله .

فلئن أريد للبابوية أن تفوز حقاً بأطاعتها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً في كل أرجاء العالم للمسيحي ، كان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها في أيد قوية حازمة ، وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التي صنعت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب البابوية إلا رجل كفء قادر في عفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يناقش وإياه في سياسة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بيّنة ، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لظعن . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق في التصويت في انتخاب البابا ، وما إذا كان للامبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت في الأمر ، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسي الهنك (وهو البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، جهداً كبيراً في تنظيم الانتخاب . فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منعه إياها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أى عدة لتعيين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدي منازعات الكرادلة إلى ترك كرسي البابوية شاغراً ، الأمر الذي حدث في بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شيء تتجلى في تاريخ البابوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبدجو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جداً ، وكثيراً ما أعلن رجالان أو أكثر أن كلا منهما هو البابا الشرعي ، وهنالك تعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أى حكم خارجي لبقضى برأيه في النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهى بمخامة تثير التساؤل . وقد تركت الكنيسة بعد موته بغير

رئيس ، وتصبح عاجزة عديمة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محله منافس عجوز كل همه أن يقضى على جهوده ويفتقصها ، وقد يخلفه شيخ ضعيف يترغ على حافة القبر . لم يكن مفر من أن يدعو هذا الضعف الخاص في نظام الباباوية إلى تدخل الأمراء الألمان وملك فرنسا واللوكة النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير في الانتخابات ، وأن يكون لهم في قصر اللاتيران بروما بابا يهتم بمصالحهم ويرعاها ، وكذا زاد البابا قوة وعلا شأنا في الشؤون الأوروبية ، زادت الضرورة إلى تلك التغييرات ، فليس عجيباً في مثل تلك الظروف ، أن يحسكون كثير من الباباوات ضعافاً لا غناء فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالاً شجعاناً أكفاء .

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستثارة لاهتمامنا ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ، الذي كان من حسن حظه أن أصبح باباً قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين ، وكان هو وخلفاؤه يناصرون العداء شخصية تكاد تبرز إمتاعاً وأهمية ، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني ، الذي كان ينعت « أدهوشة العالم » ، وكفاح هذا المعامل ضد روما يعد نقطة تحول في التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهينتها جريحاً جراحاً بلغ من خطورتها أن نفرت^(١) في النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للإمبراطور هنري السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى ، ورث هذه للملكة في ١١٩٨ عند ما كان طفلاً في الرابعة وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية في ذلك الحين حديثة العهد بالغزو النورمانى ؛ وكان بلاط الملك شريعياً أو يكاد حافلاً بطناء العرب الواسى الاطلاع ، وقد أسهم بعض هؤلاء في تعليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم لقوا بعض العناء في توضيح آرائهم له ، فكون في للسيعة رأياً إسلامياً ، كما كون في الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التريبة للزدوجة ، خرج الملك بنتيجة تسعة تعد شيئاً شاذاً في عصر الإيمان ، ذاك هي أن جميع الديانات دجل ، وطالما تكلم بملء حرية في ذلك اللوضوع ، ويسجل لنا التاريخ كفره (هرطقاته) وتعديقاته .

(١) نفر : يقال نفر بمعنى فسد كالجرح إذا سال منه الدم والصدید . [للترجم]

ولما أن شب الفتي ألقى نفسه في نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان يخلو فيما يطلبه من الفتي القاصر ، فلما آن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشرطاً بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على ما بالألمان من كفر وزندقة ، وذلك فضلاً عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه ولم يقدر البابا على كبحه ، وعذا ذلك طلب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضر البر بوعده بأي حال . وفي تلك الأثناء حمل البابا العاهل الفرنسي على شن الحرب على رعاياه بفرنسا ، وهي الحملة الصليبية القاسية الدامية التي شنت على أتباع والدو ، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة في ألمانيا ، ولكن لما كان فردريك أشد كفراً وزندقة من أي « ورعي »^(١) بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهي أنه كان يحوزه التحمس لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعندما حرصه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد في المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ في التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثاني الحصول على التاج الإمبراطوري أقام بصقلية ، التي كان يؤثر الإقامة فيها على اللقام في ألمانيا ، ولم يفعل شيئاً للبر بأي وعد من وعوده لإنوسنت الثالث ، الذي مات في ١٢١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذي خلف إنوسنت ، أن يكون أحسن حظاً مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجوري التاسع عرش الباباوية (١٢٢٧) وقد صمم تصميماً واضحاً على تسوية الحساب مع ذلك الفتي مهما يكن الفن ، فأصدر قراراً بحرمانه وحيل بين فردريك الثاني وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل المزاء والسوى . ومن العجب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصقلي نصف العربي إلا أقل المضايقة . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضاً خطاباً مفتوحاً يسرد فيه رذائله « التي لا يستطيع إنسان إنكارها » ، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام ، فما كان من فردريك إلا أن

(١) الروعيون : (Pietists) هم أتباع والدو كالمو ظاهر من السابق ، وهم يأخفون أنفسهم بالورع الشديد في أبسط صور المسيحية الأولى .
[المترجم]

أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تم عن مقدرة شيطانية ، وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوربا ، كما أنها أوليان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها أنعى بالطعن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوربا بأكملها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاعتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما تستمتع به الكنيسة من ثراء .

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البر بوعده الذي تأخر إنجازها اثنتي عشرة سنة بالخروج في حملة صليبية ، وتلك هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٨٨) ، كانت حملة صليبية تدم مهزلة ، فإن فردريك الثاني ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه في الأمور اراح هذان السيدان - وكلاهما ممن انطوت نفسه على التشكك - يتبادلان آراء متعانسة ، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تنتقل بيت المقدس إلى يد فردريك ، ولا شك أن ذلك كان ضربا جديدا من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والوثائق ، وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على الفأخ رشاش . ولا حدث « بكاء من فرط السرور » ، ولما كان ذلك الصليبي الدهش رجلا محروما بأمر الكنيسة ، فإنه اضطر أن يفتح بتبويب علماني محض كلك بيت المقدس ، متاولا التاج من اللذيع بيده - وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يحبوه ، ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التي غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان ، تلك هي المشاكلة التي استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، في القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبي للانتقام له ، لأن تلك الأيام قد ولت ١١ .

ثم عاد جريجورى التاسع فاستأنف في ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العلني ، التي سبق للبابوية أن لاقت منها شرا مستطيرا ، على أن الحصومة تجددت بعد وفاة جريجورى التاسع ، عندما تولى كرسي البابوية إنوسنت الرابع ، ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطابا مدمرمان ذلك النوع الذي يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كبيراء رجال الدين وقلة تدينهم ، ونسب كل مفسد

الزمان لسكبرياهم وثرأهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة بصورة عامة ، لصالح الكنيسة نفسها ، وهو اقترح لم يخادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبدا .

وسنكشف عن الاسترسال في تتبع أخباره في أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام ، ومن الممكن أن نجمع لك شذرات عن حياة بلاطه في صقلية . كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مفرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحي . ولكن من الواضح أنه كان رجلاً أوتى درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة في البحث النافع . وقد جمع في بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لضم العقل الإيطالي وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو ، والتعليقات التي دونها عليها الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد القرطبي . وفي ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولي ، كما وسع المدرسة الطبية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغدق عليها المال . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتاباً في الصيد بوساطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظة لطباع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالي ولد في بلاطه . وقد بدأ أطلق عليه أحد كبار الكتاب ، اسم : « أول العصريين » ، والعبارة تعبر في حكمة تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

وثمة بادرة أخرى أكثر استعراء للأنظار تدل على تضائل حيوية الباباوية وانهايار الأركان الداعمة لها . ظهرت البادرة عندما اشتبك الباباوات فور ذلك في نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية . فإن ألمانيا تردت في مهاوى التمزق في أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني ، كما شرع الملك الفرنسي في أن يلعب دور حامى البابا وظهره ومنافسه وهو الدور الذى كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من الباباوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتي صقلية ونابولي ، بمساعدة روما ومواقفتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولى الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألماني التي أعقبت وفاة فردريك الثاني ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهابسبرج أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما في التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما في الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية في (١٢٦١) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكنسي الكاثوليكي تماماً ، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط المالك اللاتينية في آسيا ، انتهت عظمة البابا في ربوع الشرق .

وفي ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش الباباوية . وكان إيطالياً معادياً للفرنسيين ، قوى الشعور عظيم تقاليد روما ورسالتها . فظل زماناً يدير الأمور بيد مستأجرة . وقد أقام حفلات اليوبيل في ١٣٠٠ . وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج : « وبلغ من عظم سيل الذهب إلى خزانة الباباوية ، أن عين مساعدان اثنان بالمجاريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس »^(١) بيد أن هذا الاحتفال كان نصراً خادعاً . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في ١٣٠٢ ، وفي ١٣٠٢ أعد البابا العدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك ولكن غليوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله في قصر أسلافه نفسه بيلدة أناجيني . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا للذهور - إذ إنه وجده راقداً في فراشه ويده الصليب - واتهال عليه بالتهديد والإهانة وهب أهل المدينة لإنقاذ البابا بعد يوم أو يومين ، فعاد إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسني وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقذ بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوماً وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجيني للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجيني كانت بلد البابا ومسقط رأسه ، وأمم ما يستلفت النظرها

هو أن للكنيسة القروية ، كان في هذه العجالة الحشنة لرأس السبيحة يعمل مستمناً بكامل استحسان شعبه ، فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم : (النبلاء والكنيسة والعامة) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات للتطرفة ، ولم يتحرك أحد في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، ولم يبد من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجريء الحادش لكرامة رأس للسبيحة للربيع آنذاك على عرش الخبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القائلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » اضمحلت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تفعل البابوية شيئاً لاسترداد سلطاتها الأولى وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت فى الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان فى روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جماء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى ، وقد تأصلت فى أفينيون عاداتهم وعلاقاتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر فى ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس ، وأعلن هؤلاء الكرادلة المشفقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا لمنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع ، ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم ، على أن الباباوات الأصلاء ظلوا فى روما ، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيين موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد المجر وبولندة وشمال أوروبا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا فى أفينيون يظهرون ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء الألمان مختلفون . وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويلعنهم (١٣٧٨ — ١٤١٧) .

أعيب إذن أن شرع كل إنسان ، فى كل أرجاء أوروبا يفكر فى شئون دينه بنفسه ؟ .

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسكانيين ولا التومنيكيين لإعالمين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التى شرعت تنشأ فى المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة وإما لتزقيتها . وهما

أمران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة . وقد تبلت هاتين الجمعيتين فعلا واستفادت بمخدماتهما ، وإن استخدمت في البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى . بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح في إظهار الصيان والانتقاد . فقد ظهر ويكليفي (١٣٢٠ - ١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف : كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأ كسفورد . فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد رجال الدين وقلة حكمتهم ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون لنشر آرائه في كافة أرجاء إنجلترا ؛ ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت تأثرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه مات حراً طليقاً لم تمس حريته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تنطق ترك عظامه هادئة في قبرها . إذ صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنش عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذه الأسقف فلنچ في ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس . وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للحرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد ، بل كان عملاً رسمياً صدر عن الكنيسة .

الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول

ولكن في أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا الكفاح العجيب غير الثمر في سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتواصل أحداثه في أوروبا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطراً قائمة على قدم وساق في مسرح آسيا الأنفوس مجالا. فإن شعباً تترياً من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسلم فجأة غارب السيادة في الشؤون العالمية ، وأحرز طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها في التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو المغول ، كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبيلة من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم الهون قريبا ، فيختدون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس ، ويسيشون في خيام من اللباد . ولقد نفضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى في اتحاد عسكري معهم . كان معسكرهم المركزي على نهر الأونون بسييريا .

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد اضمحل في القرن العاشر الميلادي ، ثم هوت الصين في هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هي إمبراطورية كين (Kin) في الشمال وعاصمتها بيكين . وإمبراطورية صنج في الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) في الوسط . وفي ١٢١٤ شن چانگيز خان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كين واستولى على بيكين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غرباً وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل في الهند حتى لاهور ، وفي جنوب روسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات چانگيزخان وقد صار سيداً على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر .

وأسس خلفه أوجداي خان عاصمة دائمة له في «قره قورم» بمنغوليا وواصل سيرة ذلك الفتح للدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من الكفاية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صيني جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة .

«وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط في وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، في عمليات حرية تمتد من الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربي . . لم يكن في أوروبا قائد واحد - وفي مقدمتهم فردريك الثاني - لا يعد غمراً (١) قليل الدربة في الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتاي . وما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك الغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز الجبر السياسي وبالأحوال الدائرة في بولندة - ذلك أنهم حرصوا مقدماً أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجرين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن المغول وإن أحرزوا النصر في لجنز إلا أنهم واصلوا تقدمهم غرباً . ذلك أنهم أخذوا يدخلون في أرض تكسوها الغابات والتلال ، ولا تتناسب وطريقهم في القتال ، لذلك انحرفوا جنوباً واستمدوا للاستقرار ببلاد المجر ، وأخذوا يعملون الدبج في ذوى قرباهم من المجرين أو يتمثلونهم ، على نحو مافضل هؤلاء من قبل في الإسكنديين والآفار والمون الذين اختلطت دماؤهم هناك ، ولعلهم كانوا ينفون أن يقوموا من وادي المجر بالإغارة غرباً وجنوباً مثلاً فعل المجريون في القرن التاسع والآفار في السابع والثامن والمون في الخامس ، ولكن أوجدأى خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش في ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

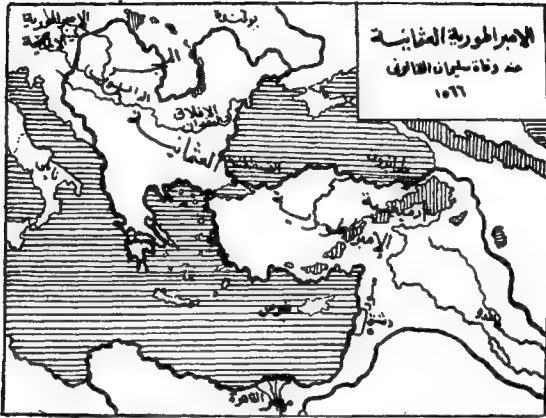
ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية ، فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى نشعوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه «مانجو خان» في منصب الخان الأكبر في ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاي خان حاكماً على الصين . وأصبح قوبلاي خان إمبراطور الصين المعترف به في ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التي دامت حتى ١٣٦٧ . وفي نفس الوقت الذي كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها في بلاد الصين ، كان أخ آخر لمانجو هو «هولاكو» ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول في ذلك الزمان

عداوة مريرة للإسلام ولم يكفوا بتذيع سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا في تدمير نظام الرى السحيق القدم الذى ظل على الدوام يجعل من أرض الجزيرة بلادا رغيدة آهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التسة يابا من الخرائب والأطلال ، لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان . ولم يدخل المغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشاً لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وانحسر سيل النصر المغولى بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذيي كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نقض الصينيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان في ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التى ازدهرت من ١٢٦٨ إلى ١٦٤٤ على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية في السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ عندما نبذ غراندوق موسكو ولاءه ووضع أساس روسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة المغول أمدا وجيزا فى القرن الرابع عشر فى عهد تيمورلنك ، وهو من سلالة جنكيزخان . فوطد ملكه بالتركتستان الغربية ، واتخذ لقب الخان الأعظم فى ١٣٦٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلمى . ولكن الإمبراطورية التى أسسها انتهت بموته . ومهما يكن من شئ ، فإن حفيدا لذلك الفاتح تيمور وهو مغامر اسمه بابر استطاع فى ١٥٠٥ أن يجمع جيشاً مزودا بالمدافع هبط به على سهول الهند . وما لبث حفيده أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) أن أتم فتوحه ، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلمى قسبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن عواقب الاكساح المغولى الكبير الأول فى القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركتستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانهم بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . واتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة فى بحر من العثمانيين . وفى ١٤٥٣ استولى السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد أن هاجمها من الجانب الأوروبى بعدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجا عظيما فى أوربا ، وتحديث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطة رقم (١٣)

ولم ينقض القرن السادس عشر حتى تم لسلطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر ومصر ومعظم إفريقيا الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك في القرن الخامس عشر إلا شيخان عوضا المسيحية عما أصابها من نقص في الملكات . وأول هذين الشيخين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ، وثانيهما استرداد المسيعيين إسبانيا رويداً رويداً من يد العرب . ففي ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك أرجونه وزوجته إيزابلا ملكة قشتالة . ولكن كبرياء الترك لم تكسر شوكته إلا في ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية التي أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدي المسيحيين .

الفضل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوربيين

ظهرت إبان القرن الثاني عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوربي أخذ يسترد شجاعته وينتفضع فرصته الموائمة ، ويستعد ليتناول من جديد قصب المفامرات الذهنية الذي حمّله أول من يحنوا في العلم من الإغريق ، وصولجان النظر التأملى الذى تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطالى ، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية الممهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستشارة التى أحدثتها تلك الحملات فى عقول الناس بما جلبته إليهم من خبرات . أخذت التجارة تنتعش ، وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين الملانين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسا وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأنفرس وهامبورج ونورمبرج ونوفغورود وويسى وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، ويدهش أنهم حينما تجر الناس وسافروا تحدثوا وفكروا . وكانت المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى فى اضطهاد من يهتمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك فى سلطان الكنيسة وإلى التساؤل والنقاش فى المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل فى إرجاع أرسطو إلى أوروبا ، وكيف أن أميراً مثل فردريك الثانى كان كالمجاز الذى استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعملوا عملهما فى العقل الأوربي الناهض ، على أن اليهود كانوا أعظم أثرًا فى تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود فى حد ذاته مثار استفسار حول مدعيات الكنيسة . ولا تنس أخيراً أبحاث قدامى الكياويين السرية الفاتنة ، وكيف أخذت تنتشر فى كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم فى العلم التجريبي ، بصورة مثقلة وخفية إلا أنها مشمرة أيضاً .

والحركة التي دبت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأي حال على الأثر على المتعلمين . فإن عقل الرجل العادي يتقبط في هذا العالم ، على شاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الخثار الفكرية حينما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد ، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك إذا لزم الأمر الشجاعة التي تفيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

وأخذت رحي المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن بهيد يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كما أن جامعات عظيمة ناهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من المراكز العامة . وهناك شرع علماء القرون الوسطى يشيرون من جديد طائفة من المسائل تتصل بقيمة السكيات ومعناها ويقتلون بها بحثاً ، وكان هذا تمهيداً لأبد منه للتفكير الصافي في أثناء عصر العلوم الذي جاء في أعقاب ذلك . وهناك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ يمتاز ، هو روجر باكون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابة ١٢٩٣) ، وهو راهب فرنسكانى من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أب العلم التجريبي المصرى . ولا شك أن اسمه جدير بأن يمجّد ويخلد في كتابنا هذا تمجيذاً لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتاباتُه إنما هي حملة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهلة ، وهو شيء ينطوى على جرأة لا يصدقها عقل ، وربما استطاع إنسان في هذه الأيام أن يخبر عالمه أنه سخيف قدر ما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليبه لا تزال سمجة شبيهة بعث الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأى أذى جنائى كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا — حين يخلو وقتهم من اللذائج أو من أن تعمل فيهم يد المجاعة أو الأوبئة فثكا وإبادة — موقنين يقيناً عنيفاً بحكمة معتقداتهم واكتناها وأنها خاتم المعتقدات جيماً ، نزاعين إلى الغضب المرر من وضعا موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجر باكون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصار في ظلمة ليل حالكة . وقد مزج مجامته على جهالة عصره بطائفة ثمينة من المقترحات الهادفة إلى زيادة المعرفة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبث حياة من جديد حين ترى تممه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنعمة

التي لم يفتأ روجر باكون يرددها ، والتبته التي رفعها على كواهلها ، هي : « التجريب ، والتجريب » .

يبد أن روجر باكون شنع على أرسطو . ولم يسلك ذلك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقعون في يوتهم مكبين على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطيع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب في لهجته المتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرق كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجهل » . وهو شعور ربما رده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعبد عبادة - مع أنها مدونة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح لك روجر باكون .

وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من التقية دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحكمم المذاهب الاعتقادية والسلطات المتحكمة ، وانظروا إلى عالمكم ! » ولطالما شهر باكون بمصادر أربعة للجهل هي : احترام ذوى السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة للتعلم مع اتصافها بالغرور والكبرياء . « فلو لم تغلبوا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة » .

« في الإمكان وجود آلات تمخر البحر دون مجدف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة الالفة للنهر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك ، يمكن صنع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Gum impeto Inoe Stimabile ، وهي الصورة التي تصورها للعربات ذات الناجل التي كان القدماء يحاربون فوقها . ثم إن في الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير » .

هكذا كان روجر باكون يكتب ، ولكن كان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته للنظمة في ارتياد خبيثات القوى المجهولة المخزنة ، التي أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذى يحجب الشئون البشرية .

على أن العالم العربى لم يمنع المسيحية حافزاً يحفز فلاسفتها وكبائرها فقط ، بل أعطاها الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذى جعل فى الإمكان استعاش أوروبا فكرياً .

نشأ الورق أصلاً فى الصين ، حيث يرجع استخدامه فى الراجح إلى القرن الثانى ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين فى سمرقند عام ٧٥١ م ؛ فردوم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم مخطوطات مسطرة على ورق عربى مصنوع فى القرن التاسع فما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية إما بطريق بلاد اليونان وإما بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس فى أثناء استرداد المسيحيين لإسبانيا ، على أن الإنتاج تدهور فى ظل الإسبان المسيحيين تدهوراً محزناً . ولم يتيسر صنع الورق الجيد فى أوروبا المسيحية إلا فى نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا رائدة العالم فى هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا فى القرن الرابع عشر ، على أنها لم تكثر ويرخص سعر الورق رخصاً يحمل طبع الكتب أمراً محكماً إلا عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لا بد منها ، ذلك أن الطباعة أبسط الاختراعات وأشدّها ظهوراً للعيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية فى طور جديد أقوى كثيراً من كل ما سبقه . وكفت عن أن تكون رشحاً ضئيلاً يتسلل من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضاً غامراً ، اشتركت فيه آلاف من العقول تضاعفت للفور فندت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

ونتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة ، هى ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب المقدس فى العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هى رخص سعر الكتب المدرسية . وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريعاً فلم يزد عدد الكتب فى العالم زيادة عظيمة وحسب ، بل إن الكتب التى كانت تطبع آنذاك كانت أوضح لبصر القارىء ، ففى لذلك أسهل عليه فهمها وبدلاً من الإكباب فوق متن كتابية معقدة ، ثم محاولة فهم مدلولها ، أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا فى أثناء القراءة دون أن يعوق

تفكيرهم عائق . وبفضل هذه الزيادة في سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكف الكتاب عن أن يكون ألعبية مبرقشة شديدة الزخرفة ، أو طلسمًا ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس في كتابة الكتب ليقراها عامة الناس ويستمتعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية ، فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربي .

ظللنا حتى الآن نعالج نصيب العرب في النهضة الأوربية ، فلنتجه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فلها أثارته الخيال الجغرافي لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوربا الغربية تتمان ردها من الزمان في ظل الحان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فانفتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعا ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الحان في قره قورم . وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التي فصلت بين أوربا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلقت الباباوية آمالاً كباراً على إدخال المغول في المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحين هي الشامانية^(١) ، وهي ضرب بدائي من الوثنية . فاجتمع في بلاط المغول مبعوثو البابا ، وكهان بوذيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسلم القدر الكافي من الحديث عن حجم الاستطلاع ورغبتهم في العلم .

وقد كان فضل المغول جسدياً وأثرهم في تاريخ العالم عظيماً . لا بوصفهم شعباً ذا أصالة واستعدادات ، بل كمنقلة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جانكيز أو قوبلاي (الرومانسية) المبهمة ، يمنح إلى تقوية الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لا يقلون في الفهم والابتكار عن أى من الإسكندر الأكبر ، ذلك الإنسان الزاهي الوهاج والأناي أيضاً ، أو شلمان ذلك اللاهوتي الأسمى الناشط الذي ابتعث أشباح الماضي السياسي .

ومن أمتع هؤلاء الزوار للبلاط المغولي رجل من البندقية اسمه ماركو بولو ، دون قصته فيما بعد في كتاب . ذهب إلى الصين حوالي ١٢٧٢ مع أبيه وعمه ، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين في نفس الحان الأعظم عظيماً ،

(١) الشامانية : ديانة شمال آسيا وتقوم بوجه خاص على السحر والشموعة . [المترجم]

وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ، فأعادها إلى بلادها التماسا للبحث وطلب المعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية متنوعة أثارت حبه للاستطلاع ، فكان زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث في رحلتهم السابقة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لابدأها سهلت عليهم السفر تسهلا عظيما ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئا من زيت القنديل الذي يوقد في بيت القدس عند النافوس للقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية ، إذ اضطروا إلى التوغل شمالا على تلك الشاكلة إغارة سلطان مصر في ذلك الوقت على ممتلكات المغول . ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي ، كأنما يزمعون الرحلة بطريق البحر . والتفوا في هرمز ببعض تجار الهند . على أنهم لسبب مالم يلقوا بالسفن ، بل عرجوا بدل ذلك شمالا محترقين الصعاري الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلغ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبتريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادي نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك بكين استقبلهم الخان الأعظم بمحاوطة بالغة .

وسر قوبلاي بوجه خاص من ماركو ، الذي كان صغيراً ذكي الفؤاد ، ومن الجلي أنه كان يتقن اللغة التتارية تماماً فعين في أحد المناصب الحكومية وأرسل في مهام كثيرة وبخاصة في جنوب الصين الغربي ، والقصة التي يرويها عن وجود مقسمات مترامية من الأراضي البسامة الرغيدة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة الممتازة المعدة للمسافرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعرائش كروم بديمة وحدائق وحقول » ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والرهبان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب ، وأنواع كثيرة من قماش التفاه المتنازع ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار في البداية عاصفة من التشكك في أوروبا ، ثم عاد فألهم خيال أوروبا بأجمعها ، وتحدث عن بورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هم ناشبة^(١) المغول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح المغول لبيجو (pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالغ كثيرا في مقدار ما في تلك البلاد من الذهب . وظل

(١) الناصب : صاحب الشاب أي السهام والرامي بها والجمل ناشبة . [للترجم]

ماركو ثلاث سنوات كما على مدينة يانج تشو ، ولعله — كأجنبي — لم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أى تترى آخر : ولعله أرسل كذلك فى بشة إلى الهند . والسجلات الصينية تذكر شخصاً اسمه بولو ألحق بالجلس الإمبراطورى فى ١٢٧٧ وهو تأكيد عمن جداً لما تنطوى عليه رواية بولو من مسحة عامة من الصدق .

وأثر نشر رحلات ماركو بولو تأثيراً عميقاً فى الخيال الأوروبى ، فإن الأدب الأوروبى فى القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوروبى يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو بولو مثل كاثاى (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وماشاهما .

وبعد ذلك بقرنين اطلع على « رحلات ماركو بولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولمبس ، الذى تصور خياله الألهى فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم . وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشيلية نسخة من « رحلات بولو » على هوامشها بعض ملحوظات بخط كولمبس . وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة ، ذلك أن القسطنطينية ظلت ، حتى سقوطها بيد الأتراك فى ١٤٥٣ ، سوقاً محايداً للتجارة بين العالم الغربى وبلاد الشرق ، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة . ولكن البنادقة اللاتنيين منافسى جنوة الألداء ، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم) ، فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجارة الجنوبية مجال بها ، وفى تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد ، والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس . لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حد ما ، وكان يشجع على القيام بها أمران . أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت فى تلك الأثناء ، وبفضلها لم يعد الناس تحب رحمة ليل صافى السماء بآدى النجوم لتحديد الاتجاه الذى يحرون إليه ، وثانيهما أن النورمان والقطلونيين والجنوبيين والبرتغاليين انطلقوا قبل ذلك فى عرض المحيط الأطلسى ، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس .

ومع ذلك فقد اضطر كولمبس أن يتغلب على صعاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ يتنقل من بلاط ملكى فى أوروبا إلى آخر . حتى استطاع فى النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنزعة حديثاً من يد العرب ،

على مناصرة فرديناند وإيزابيلا . ورعايتهما لمشروعه . وأن يحترق مجاهل المحيط
الخصم بثلاث سفن صغيرة . وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة ، ثم بلغت
أرضاً زعم كولبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة جديدة لم يقدر
العالم القديم وجودها قبل ذلك أبداً .

ثم عاد كولبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والفضة والحيوانات الغريبة واثنين من
الهنود المنقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة مالبث أن عمدتهما مسيحيين . وقد
أطلق عليهما كولبس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته ، أن الأرض التي استكشفها هي
بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذي ضم إلى موارد العالم
القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان للنجاح الذي لقيه كولبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائل .
فدار البرتغاليون في ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ولم يحل سنة ١٥١٥ حتى
كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفي ١٥١٩ أفلح ماجلان ، وهو بحار برتغالي يعمل في خدمة الإسبان ، من مدينة
أشبيلية بخمس سفن انجه بها غرباً ، لم تعد منها إلا واحدة هي فيكتوريا . التي دخلت
النهر حتى بلغت أشبيلية في ١٥٢٢ . وهي أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها
واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مائتين وعشرين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان
فإنه قتل مجزأ في الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوربي أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق المطبوع ،
وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شيء في متناول اليد تماماً ، وانبجست
أيضاً صورة جديدة لأقاليم غريبة وحيوانات ونباتات غريبة وعادات عجيبة ومستكشفات
تمت وراء البحار وفي أطباق السماء وفي أساليب الحياة وموادها ؛ فأقبلت العقول بسرعة
على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال العهد بدفنها ونسيان الناس
لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبتقاليد عصر تنقياً خلال الحرية
والكرامة في أكناف الحكم الجمهوري .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوروبا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل في نشر لوائهما من جديد بها ؟ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يخضعان لتنظيم يحدهما ويقيدهما في عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتيني يقترب عندئذ من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا ينفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين والقول للنبيه للحقول ، وبفضل الشور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؟ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى منزلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

القصيد الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هائلاً بهذا البعث العقلي . لقد برزت منها أجزاء ولم ينبج الجزء الذى بقى منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولى الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكلها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف اضمحل بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها للناس ونظامها المركزى إلى تحاميل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها ، وهى الحماسة التى كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعاتها ، وذكرنا كيف أمر مكر فردريك الثانى وتشككه ثمارهما على صورة ما تجلى من الأمراء من عصيان لم يرح يزداد وينمو .

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزى فى كل أرجاء أوروبا . وحدث فى ١٣٩٨ أن عالماً تشيكياً هو برون هس ، ألقى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة كونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس للكنيسة بكامل هيئتها ليفصل فى الصنع الأعظم . ودعى هس للشول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان فى الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً (١٤١٥) . وبدلاً من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يفضى إلى تمرد أتباع هس بتلك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فائحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية . وعند ذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للمسيحية يوم أعيد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، قبأت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل مثيردى أوروبا

وزعانهم المتعطلين ، مثلما سير الزعانف بالضبط في القرن الثالث عشر على أتباع والدو. بيد أن أهالي بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والدو يؤمنون بالمقاومة المسلحة . ولم تكد الحملة الصليبية السيرة على بوهيميا تسمع قمعة عجلات أتباع هس وأناشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبخرت وتسلفت من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها أنها لم تنتظر قط حتى تقا تل (معركة دومازليس ١٤٣١) . وانقعد بمدينة بال في ١٤٣٦ مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم تولد عنه انهيار النظام الاجتماعي إلى درجة كبيرة في كل أرجاء أوروبا ؛ ولقي العامة من هذا الوباء عنتاً وتعامساً شديدة وانتشر بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا وفرنسا وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس وتفتت بقناع ديفي . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قوياً زاد في ذلك التطور ؛ إذ إنه لما انتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة في هولندا ومنطقة الرين يستخدمون حروفاً قابلة للحركة والتركيب . ثم انتشر فن الطباعة في إيطاليا وإنجلترا ، حيث كان كاستون يعمل في طبع الكتب بوستلمستر في ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذبوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح العالم الأوربي عالم قراء ، إلى حد ليس لأى مجتمع في الماضي عهد بمثله : ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة ، على هذه الصورة المفاجئة ، بالأفكار التي هي أكثر وضوحاً والمعلومات التي هي أقرب مثلاً ، حدث في وقت غشها فيه الارتباك والفرقة ، وأصبحت في موقف لا تستطيع فيه أن تبذل دفاعاً فعال الأثر . وفي يوم كان كثير من الأمراء يعيشون عن وسيلة يضعفون بها قبضتها على الثروة الهائلة التي كانت تدعى امتلاكها في بلادهم .

أما في ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى مارتن لوتر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيراً بعض اعتراضات على أنواع شق مما تمارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

في بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام المطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه في كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلاً على هس . ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر لصداقته وكآتم لها ، خالوا بينه وبين ورود ذلك للصير .

ومما يجعل ذكره عن ذلك العصر الذي تكاثرت فيه الأفكار وضعت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصلحتهم في قصم عرى الروابط الدينية التي تربط شعوبهم بروما ، فعاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي أقوى . فأخذت كل من إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الديني الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرة .

ويدهى أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الخلقية أو الذهنية ، وكل مافي الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما . على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية الخماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيمنة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوى دائماً على حيوية عجيبة ، فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع - علمانيا كان ذلك أو دينياً . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن يفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التي لاتعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت في إنجلترا واسكتلندة مثلاً عدة طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة ، متخذة منه هادياً الوحيد في الحياة والعقيدة ، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترا باسم اللشقيين (Non Conformists) ، وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً في سياسة تلك البلاد في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر ، وبلغ من قوة اعتراضهم في إنجلترا على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) ، ثم أقاموا بها حكومة جمهوريه من اللشقيين دامت إحدى عشر عاماً حافلة بالرخاء والرغد .

وانتقال هذا الشطر الكبير من أوروبا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الديني » . على أن وقع هذه الحسائر الجسيمة ذاتها وشدة قوتها أحدث في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في عمقها عنها في أى مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتفضل روح جديد في حياتها ، وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندى إسباني شاب يدعى أينيجو لويزدى ريكالدى ، وهو الذى يعرف فى العالم باسم القديس إغناطيوس دى ليولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً فى (١٥٣٨) بعد أن بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حد ما ، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التى ظهرت فى العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر فى إيقاف الانحلال السريع الذى انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلى فى كل أرجاء العالم الكاثوليكي ؛ وبفضل منافستها نشطت أوروبا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة فى التعليم مجارة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية الشديدة المراس فى العهد الحاضر ما هى إلا الثمرة البانعة لهذا الانتعاش الجيزوي .

الفصل الحادى والعشرون

الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن فى عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أعجب من شهدتهم أوروبا من الملوك . وقد ظل رديحاً من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان .

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه ، بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسميليان (١٤٦٩ - ١٥١٩) . ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالمى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يلقه بالمؤامرة والتدبير . أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتدأ مكسميليان حياته عاهلاً للنمسا وإستيريا ولجزء من الألزاس ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فتزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يعنينا هنا فى قليل أو كثير) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أقفلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتانى بفرنسا فلم يوفق ، وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريدرىك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقه ميلانو أوغل تزوج دوقها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابيلا الضيفة العقل وهما نصيرا كولبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيدوسردينياوالصقليتين^(١) ، بل حكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشرلكان^(٢) حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية ، وقد يتراوح بين ثلث مالم يقع من أوروبا ونصفها بأيدى الترك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ فلما توفى جده فرديناند

(١) ويقصد بهذا جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا .
(٢) شرلكان : هو شارل الخامس نفسه .

[الترجمة]
[الترجمة]

في ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكاً على الدولة الإسبانية اللترامية نظراً لبلاهة أمه وضعف عقلها ، حتى إذا مات جده مكسميليان في ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لازال في العشرين ، سن نومة الأطفار نسياً .

كان شاباً أشقر لاتبدو على وجهه غايل العجاية ، فشفته العليا غليظة وذقنه طويل قبيح . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتية القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكفاء ، منهم فرنسيس الأول الذي تولى عرش فرنسا في ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ في سن الثامنة عشرة . وهو عصر بابر بيلاد الهند (١٥٣٦ — ١٥٣٠) ، وسليمان القانوني بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلاً ممتازاً جداً . وحاول البابا بمعاودة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شريكان لعرش الإمبراطورية لما خشياه من ترك ذلك القدر الهائل من السلطان في يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنري الثامن يعرضان نفسها على ناخي الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليداً مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ونشطت الرشوة حتى كفلت لشريكان النجاح في الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه العوبة فاخرة رقيقة في أيدي وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . وما لبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامي من مقدمات خافلة بالأخطار . وأحس أنه وإن كان مركزاً فاخراً فإنه ضعيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجهه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذي أوجدته الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا في انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التي دعت إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الديني . ولكنه نشأ في إسبانيا بلاد الكاثوليكية المتعصبة ، ومن ثم قرر أن يناصب لوثر العداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستنت وخاصة منتخب سكسونيا ، وعند ذلك وجد نفسه يواجه صداقداً أخذ يتسع ويتهدد بتمزيق الوحدة البابية للسليحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل في سبيل رأب ذلك الصدع جهوداً مضنية شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاحون في ألمانيا

بشورة متسعة الأطراف ، اختلطت بالفتن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . وما زاد الأمر تعقيداً اجتماع هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارشرلكان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجريء الطموح . ونازعه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذلك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وممتلكاتها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال إسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل ، ولكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيداً . فاضطرته صانقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسى بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تنقسم بالبلادة والغباء ، كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شيء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلانو من يده ، وحوصر بمدينة پافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول پافيا حصاراً طويلاً بالفشل ، ثم حاصرت قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً . وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شرلكان لما كان يساورهما دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط ، وماعمت القوات الألمانية المقاتلة في ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت إعطياتها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما ، وهناك فتحوا المدينة عنوة وانهبوا فيها (١٥٢٧) .

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل الميرون النهب والقتل في المدينة ، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمئة ألف بندقي^(١) ، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشر سنين لقيت منها أوروبا الفقر والإفلاس ، حتى زامى الأمر في النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفراً في إيطاليا ، ومائشب البابا أن توجه في ١٥٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو .

(١) البندقى (Ducats) هو عملة ذهبية مصدرها البندقية .

وفي نفس ذلك الوقت كان الأتراك يحتاحون بلاد المجر اجتياحاً . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في ١٥٢٦ ، ثم استولوا على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في ١٥٢٩ . واغتم الإمبراطور غما عظيماً لهذا التقدم ، وبذل كل ما في استطاعته لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقي أعظم العسر في جمع كلة أمراء الألمان على الرغم من وجود ذلك العدو القوي العاني على أبوابهم جميعاً . وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردحاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه (١٥٣٨) وحمله على التزام جانب المودة إزاءه . بعد أن أعمل في جنوب فرنسا يد النهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شربل كان محالفة ضد الترك .

ولكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا المزم على الانفصال عن روما ، كانوا قد كونوا وقتذاك ضد الإمبراطور حلفاً ، هو حلف الشملكلد Schmalkaldic فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت عناصره تتجمع في ألمانيا ، بدلا من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين ويضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يعمر طويلاً ، فلم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشبت فيه . وقد انصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل ، اقتتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تندلع نيرانها أحياناً فتصبح حرباً عنيفة تأثي على الحرث والنسل وتجرح واءها الخراب ، أو تهبط فإذا هي مؤامرات ومؤامرات ديبلوماسية ، لقد كانت ألمانيا تجرأب مليء بالأفاعى من الأمراء ، الذين ظلت سياساتهم تتلوى في ذلك الجراب وتقع إلى مالا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، وما زالت هذه الديبلوماسية تعمل في أوربا الوسطى تدميراً وتخريباً مرة في إثر أخرى .

ويلوح أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التي كانت تعمل عملها في تلك المتاعب التي أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لصره ومركزه رجلاً فاضلاً إلى أقصى حد ، والظاهر أنه نوه أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوربا إلى أشلاء متناحرة إنما هي خلافات دينية حقة ، فأكثر من عقد مجالس الدايت^(١) والمجامع الكنسية محاولاً بذلك التوفيق والصلح دون جدوى . وكم من مرة أعيد البحث في قانون الإيمان الكنسي

(١) الدايت : مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) المقدسة .
[المترجم]

وفي مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألماني مضطر على الرغم منه أن يكبح القناسا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الديني . والتسوية التي أقرها دايت راتسبون و صلح أوجزبرج وما إليها . وهي أمور لا تذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ ، تلك الحياة التبعة الزاخرة بالحموم . والواقع الذي لاشك فيه أن واحدا من هذه الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وما كان الاضطراب الديني الذي عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة في الحق والصدق والبر الاجتماعي ، ولا انتشار المعرفة في ذلك ، ما كانت هذه الأشياء جميعا إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخيلة الأمراء وديبلوماسياتهم ، مثال ذلك أن هنري الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يندد فيه بالكفر والزندقة ، والذي كافأه البابا بالإنعام عليه بلقب « حامى العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت في ١٥٣٠ ، لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى إثارة منه لغتاة صغيرة تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضا أن ينتهب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ، ومن قبله كانت السويد والدانمرك والنرويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في ١٥٢٦ بعد وفاة مارتن لوتر ببضعة أشهر . ولسنا في حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال ، وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسوني البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فليب ، أمير هيس ، آخر وأكبر خصم للإمبراطور قبض عليه وأخذ أسيرا بطريقة تداني تقض العهد ، واشترى رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات في ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل في ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأمواره ، وأخذ يبدل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم الإسلام فيه . فلما وافت سنة ١٥٥٢ حق اندلع لهيب الحرب في كل أرجاء ألمانيا ، ولم ينج الإمبراطور من الأسر في إنزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة بساو فأحدثت في سنة ١٥٥٢ هدوءا آخر غير ثابت الأركان .

تلك هي المعالم الموحزة لسياسة الإمبراطورية في مدى اثنين وثلاثين عاما . ولا يغوتنا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان مركزا عاما حول فكرة الكفاح من أجل إحراز نصب السيادة في أوروبا . وذلك أن أحدا ممن عاشوا في ذلك الزمان - لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان - لم يحس حتى ذلك الحين بأى اهتمام سياسى بقارة أمريكا العظيمة ، ولم يدرك أى مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ؛ فإن كورتيز انطلق بمحنة من الرجال وفتح باسم إسبانيا إمبراطورية المكسيك النيولثية^(١) العظيمة ، كما أن يزارو عبر مضيق بنما (١٥٣٠) ، وأخضع قطعاً آخر من أقطار العجايب هو ييرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق الفضة إلى الخزنة الإسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل في إظهار أصالته الذهبية الميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو . إذ اعتراه عند ذاك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه المناقصات الأوربية عبث لا يطاق ولم تكن بينته سليحة جداً في أى يوم من أيام حياته إذ كان بفطرتة ميالاً للخمول والكسل ، كما كان يقاسى من النقرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ؛ ونقل كل سلطانه الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضى المنخفضة لابنه فيليب ثم انسحب يظله جو من الجلال والامتعاض إلى دير بمدينة بوست ، تحيط به أحراش البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادى التاجة . وهناك قضى نحبه في ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخلياً عن العالم من ذلك الجبار السكودود الجليل الذى برم هذه الدنيا والتمس السلام في أكناف الله عن طريق العزلة الصارمة ، ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه محبب معه حوالى مائة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاد من نفامة ملذات مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثانى كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب النفاذ .

ولئن قد شارل كان كل اهتمام حق بإدارة شئون أوروبا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لانكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بين كوكيسادا أو جازنللو ، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ماحول طعام الإمبراطور أو مرضه .

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يعقب الآخر بصورة طبيعية كأنه تعليق مستمر عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار الرسائل مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولا بد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً في الاحتفاظ بوقاره في أثناء تلاوته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب . وتلقى الرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمراً بأن ينحرف عن طريقة السوى لير على جارانديلا ، ويحضر للمائدة الملكية ما يلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه في يوم الصيام الذي يليه . فإن شارل كان يرى أن ممك التقط الموجود بالمنطقة التي يعيش بها صغيراً جداً ، ولذا رحب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجماً . وكانت الأسماك بجميع أنواعها تلذ له وتعجبه ، وكل شيء يدانى السمك في طبيعته أو عاداته . فثمايين الماء والصفادع وأم الحلول تحتل مكاناً عالياً في قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف العاهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدرأ كبيراً من الأراضي المنخفضة ، وإنه لملوح بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء ... » (١) .

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التخلّة من الصوم ويبيح له الإفطار في الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار المقدسة .

أكل وتطيب !... إن ذلك رجوع إلى الأشياء البدائية الأولى ، لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، ولكنه كان يصفى إلى من يقرأ عليه في أثناء تناوله الطعام جرباً على عادة شرلمان ، ثم يلقى على ما يسمع « بتعليقات حلوة سماوية » - كما عبر عن ذلك أحد الرواة .

وحكثيراً ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية ، أو النظر في شئون الإمبراطورية التي لم تقفأ تقاطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التي اشتد بها تعلقه ، سبباً في تحول عقله نحو الدين ، الذي اتخذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد دأب في كل يوم جمعة من أيام

الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان عن طيب خاطر جلدا كان يبلغ من الشدة أن تدعى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هي والقرس بشر لكان إلى حال من التعب كانت اعتبارات السياسة تكسبها حتى تلك الساعة ، فأثار حقنه ظهور التعاليم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القرية . وكتب يقول : « أبلغ عنى القاضى الأعظم لمحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه ، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستفحل » ...

وإنه ليبدى الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكريه الاستثناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأذى شفقة « خشية أن يعطى المجرمون ، إذا عفى عنهم فرصة العود إلى جريمتهم . » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى المنخفضة ، « حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة » .

ويكاد انشغاله بالجنائزات يكون رمزاً لمركزه فى التاريخ وكأن ضرباً من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيماً بأوروبا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » ، قد أزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام فى بوس ، بل كان يقيم صلاة الجنائزاة على الموتى الغائبين ، وأقام جنازا زوجته يوم ذكرها السنوية ، ثم أقام فى النهاية جنازته هو : « جللت جدران الكنيسة بالسواد ، لذا لم يكن نور مئآت الشموع التى أوقدت كافياً لتبديد سدف الظلام التى رانت على المسكن ، وتجمع الرهبان فى ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعاً ، وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة ، حول نعش ضخم قد جلد هو أيضاً بالسواد ورفع فى وسط الكنيسة ، وعند ذلك أدبت صلاة دفن الموتى ، وتصاعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان المحزون ، داعية لها بأن تلقى فى الآخرة منازل الأبرار . وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعاً وأسى ، إذ تصورت لحواطمهم صورة وفاة مولاهم ، أو لعلمهم مستهم الرحمة لهذا المظهر المحزون من مظاهر الضعف . وتنفش شارل برداء أسود وحمل فى يده شمعة موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى الحفل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس رمزاً لتسليمه ، روحه للقوى القاهرة » .

توفي الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانطوت بموته العظمة الصغيرة الأجل التي حظيت بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أشبه بجليل يعاني سكرات الموت . ولا تزال تقاليدنا البالية الرميم تسمم الجو السياسى إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني والخمسون

عصر تجارب سياسية

وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تخبطت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية للقدسة في دركات الانحلال المفرط ، وأصبح تاريخ أوروبا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تتلمس في دامن الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات في العصور الحوالى وفي آماذ طويلة من الزمان تمس الأسر المالكة ، بل حق الجنس الحاكم واللغة الغالبة دون غيرها . ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والمعبود ظل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قدما . على أن تغيرات الأسر المالكة في أوروبا الحديثة هذه ، أى منذ القرن السادس عشر لم تعد تهم أحداً في قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصباً على تلك الأنواع الكثيرة للزيادة العدد من التجارب التي تجري في حقول التنظيم السياسى والاجتماعى .

والتاريخ السياسى للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لاشعوريا إلى حد كبير ، أنفقته الإنسانية رغبة منها في تكيف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت في العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها ، هى أن الظروف نفسها كانت تغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن وتوانياً وتخلفاً عن الظروف المتغيرة ، خاصة وأنه كان في الغالب تكيفاً لاشعوريا يحدث في جميع الأحوال تقريباً عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان في جلته يكره التغير الإرادى) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مثيرة للقلق والكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على حكره للحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تمهيدا واعيا عمليا لمواجهة الحاجات والإمكانات التي لا عهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها .

فما هذه التغيرات التي اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتي أفسدت ذلك الانزان الذى كان ينجم على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر ، مع إيقافها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ، التي عرضت أحوال الناس في العالم القديم لنوع من الموجات المتتابعة التي دامت أكثر من مائة قرن ؟ .

لا شك أن هذه التغيرات متنوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك إلا لأن الشئون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد ، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التي بدأت أولا وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكىاء - وانتشرت ببطء في البداية ، ثم بسرعة عظيمة جداً في القرون الخمسة الأخيرة - بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيراً عظيماً يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنباً إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالاً خفياً دقيقاً . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين النور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هي حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها في كل شئونها . تلك هي الخصيصة العامة التي تشترك فيها الديانات العظمى جميعاً التي انتشرت في كافة أرجاء العالم في أثناء النيف والعشرين قرناً الأخيرة من حياة البشرية سواء في ذلك البوذية والمسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعها الديانات القديمة . فهي قوى تختلف تماماً في طبيعتها ومفعولها عن ديانات القران الدسمى الفتيشية القديمة بكاهاها ومعبدها ، التي عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت في الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والمسئولية في كل الشئون البشرية العامة مما لم يسبق له مثل بين أناس الحضارات الحالية .

وكان أول تغير جسم الم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية تبسيط الكتابة في الحضارات القديمة واتساع مدى استخدامها وهو أمر جعل قيام إمبراطوريات أكبر حجماً ونشوء نظام سياسى أوسع مجالا ، شيئاً ميسوراً بل أمراً لا بد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للمواصلات ، وحين استعملت المركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضى . ثم حلت في أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة ، وعن تغير طبيعة الديون والملكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضار معا ، فزادت الإمبراطوريات سعة ومجالا ، ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم آن أوان اختفاء الآلهة المحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (الثيوكرازيا) فعهد تعاليم الديانات العالية الكبرى . وأقبلت أيضا تبشير التاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة ، وإدراك الإنسان جهله المطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر جبل الطريقة العلمية الذى بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسى والاجتماعى لقي أعظم الضرر والعنت من جراء غارات البرابرة النيتون ، وزحف الشعوب الغولية نحو القرب وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا انقضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من المطبوعات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية وللتعاون الاجتماعى . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعداً مجموعة متزايدة العدد من المستعذبات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل ، وكانت نتاجا ثابوتا للتفكير المنظم لا مفر منه . وكانت كل هذه المستعذبات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة المنافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة عجبها لم تزل في ازدياد يوما في إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهياة لشيء من ذلك القليل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم حلول الكارثة الكبرى في أوائل القرن العشرين وتنشيطها للأذهان - إلا أقل القليل يحدّثك به عن أية محاولات مصممة بمحكمة لمواجهة الظروف الجديدة التى كان يخلفها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأنى بتاريخ الإنسانية في أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة نائم حبيس يتحرك في قفل وتعملل بينما تندلع النيران في السجن الذى يؤويه ويقيده حريته ، دون أن يستيقظ ، بل

تدخل طقطقة النار ودفؤها في أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام - أشبه بهذا كله منه بحال رجل في يقظة شعورية يحس بالخطر المهدق والفرصة الدنية القطوف .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الأفراد ، لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التي تظهر في صفحات السجل التاريخي مستعذات لها أثرها بين الناس من مواصلات . وأهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة في أثناء القرن السادس عشر ظهور الورق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلة البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليات النشاط السياسي الجهورية . وأما الاختراع الثاني فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متأسكة . ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها المقول إلى الغرب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال التحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحطمت الحصانة والمنعة التي حظي بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم السورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا تنس أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك ، وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حبال ما أصابها من رعب من مدافع الإسبان .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل شأنًا من سابقه ، وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس باكون (١٥١١ - ١٦٢٦) ، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير مالية إنجلترا . كان تلميذا لعالم إنجليزي آخر بل لعله هو اللسان المعبر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جليوت فيلسوف كولشستر التجريبي (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ، وكان باكون الثاني هذا يدعو الناس كسمية الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقه القصص اليوتوبى الملهمة المثمرة في كتاب له أسماء « الأطلانتس الجديد » وسيلة يعبر بها عما يحلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها ، لم تصبح هذه

الجمليات العلمية الأوربية بنابيع فقط تنضج بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضا منبعاً لتتجد المدام الذى قضى فى النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتى العالمى المضحك الذى تسلط على الفكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق فى حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإت تجمعت فى أثنائها المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتى ثمارها كاملة فى القرن التاسع عشر . وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسمانيا وأستراليا وزيلندة الجديدة فى المصورات الجغرافية . وشرع الناس فى بريطانيا العظمى يستخدمون كوك الفحم الحبرى فى صناعة المادن ، فأدى ذلك إلى رخص ثمن الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما مما كان يستطيع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان الفحم النبأى هو المستخدم فى صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات العصرية الحديثة .

والعلم كأشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكام والأزهار والفار فى نفس الوقت وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتى ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات الضي ، وتلتها السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة والمباني الكبيرة والمساكنات التى لا حد لقوتها تقريبا ، ولاح أن فى الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وغزارة لم يسبق لها مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شهبنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقا فى أحلامه والسجن يحترق من حوله . وكان الأوربى فى القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا فى أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدائرة ، أى حله بإمبراطورية رومانية مقدسة تتحدد كلفتها بزعماء الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الذى حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التى لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب فى بعض الأحيان على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفا وتدميرا فى مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس فى هذا الحلم الوجه النائم للإمبراطور شارل الخامس ومعدته المتهاقة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولوتر يمزقان وحنة العالم الكاثولىكى إربا .

وتحول الحلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة . فلا يكاد تاريخ أوروبا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصورة مختلفة ، محاولة ما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان أهلها استبدادياً مطلقاً وبسط كلتها على الضعفاء من جيرانها ، أو تقص على مسامعنا حديث المقاومة الدائمة التى يظهرها أصحاب الأراضي ، كما تحدثنا عندما تزايد التجارة الخارجية والصناعة فى الداخل عن مقاومة طبقة التجار والمالين التى تزداد عند ذلك عدداً - تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكل تدخل للتاج فى شئونهم أو فرض يفرضه عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصراً شاملاً أو حاسماً ؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلية العليا ، بينما يتغلب صاحب الأملاك فى مكان آخر على العاهل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك منار عاله القوى وقطب رحاه على حين نجد وراء حدوده الناحية له تماماً طبقة تجارية قوية الشكيمة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفترة تجريبية بحثة ، أو عارضة أنتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً فى هذه المسرحيات القومية ، هى « وزير الملك » الذى كثيراً مايكون فى الدول المستمكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقفا يقف من وراء الملك ، ويخمدمه ويسلط عليه بما يؤديه من خدمات لا يستغنى عنها .

ولا يتسع المقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندا التجارى تحول إلى المذهب البروتستانتي والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وابن الإمبراطور شارلكان . فأما إنجلترا فهى الثانى وزيره ولى للملكة إليزابيث ووزيرها بورلى ، وضعوا أسس نظام استبدادى حطمته حماقة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت رأس الملك شارل الأول جزاء له على خيائه لشعبه (١٦٤٩) ، وفى ذلك تحول جديد لمجرى الفكر السياسى بأوروبا . وانقضت بعد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلترا جمهورية (حتى ١٦٦٠) ؛ ثم غدا التاج مزروع القوى تخليه كثيراً كلمة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٨٦٠ - ١٨٢٠) جهداً عظيماً وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه . على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوروبا توفيقاً ونجاحاً فى النهوض بالملكية إلى حد الكمال . فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢)

ومازاران (١٦٠٢ - ١٦٦١) شاداه بتلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرها طول عهد الملك لويس الرابع عشر (للقب بالعاهل الأعظم ١٦٤٣ - ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الحارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان للملك للثالثى الذى تحتذيه أوروبا كلها . وكان - على مابه من معاييب - ملكا ذا اقتدار استثنائى ، كما أن مطامعه كانت أقوى من شهواته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإنفلاس بتورطه فى سياسة خارجية مفرطة النشاط مع هيئة وكرامة عظيمة لاتزال تتزعج منا الإعجاب انتزاعا . وكانت الرغبة المباشرة التى رانت عليه هى توحيد بلاده وبسط تخومها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضى المنخفضة الإسبانية ، أما فكرته البعيدة التى هدف إليها فهى أن يصبح بلوك فرنسا خلفاء لشارلمان فى دولة رومانية مقدسة يعاد بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثانى ملك إنجلترا يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين سنصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول إن تقوده أو بالحرى تقود الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغله الشاغل كان الأبهة والفخامة . فإن قصره العظيم بفرساي بما حوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة ونافورات وجنات غناء ومجالات تخرج فيها الأنظار - كان ماثرا حسد العالم وإعجابه العظيم .

وتبارى من حوله المقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوروبا يشيد قصره على نمط قصر فرساي متجاوزا بذلك موارده . ولكن على قدر مايسمح له رعاياه ودائره! وهب كل النبلاء فى كل مكان يعيدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة فى صناعة للنسوجات والأثاث الجميلة وازدهرت فنون الكماليات وتحف الترف فى كل مكان ، فانتشعت صناعات نحت الرمر والقاشانى وأشغال الخشب المذهب وصياغة المعادن والجلد المضغوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الموسيقى والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الأنيق وأبدع الحزف وأعجب الخمر . وبين هذه المرايا الصقيلة والرياش الفاخرة ، كان جنس عجيب من السادة يقدو ويروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذرت عليها المساحيق ويرتدى الحرائر والحمرات (الدتلا) ويترنج فوق أحذية ذات كهوب عالية حمراء حافظاً توازنه بعضى مونة مدهشة ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنافوق رءوسهن أبراج من الشعور النعطاء

بالمساحيق ، وعلى أجسامهن مقادير ضخمة منفوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك .
ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقعت شخصية لويس العظيم ، شمس عالمه النيرة ، غير شاعر
بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحاققة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها
أشعة شمس .

ظل الشعب الألماني منقسماً على نفسه سياسياً طوال تلك الفترة التي سادتها الملكيات
وعمل التجارب في أنواع الحكومات ، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء
يحاكي كالفردة أبهة فرساي كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ،
١٦٤٨) وبالا على الألمان ، إذ إنها ظلت جرحاً دامياً يترف منه نشاطهم ومهمتهم لمدة مائة
عام بعد ذلك ، وهي نزاع غريب نشب بين الألمان والسويديين والبروسيين على منغام
سياسية متقلبة غير ثابتة . ولا بد للقارئ من خريطة يشهد فيها هذا التوزيع
الجنوني الذي انتهى به ذلك الصراع ، وهي الخريطة التي تصور لك أوروبا بعد
صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيها تجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات
والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ماهو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو
خارج عنها من ناحية أخرى . وسيلحظ القارئ أن ذراع السويد توغلت كثيراً في
أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الراين على الرغم من امتلاكها لقطع
متباعدة من الأرض تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا
(التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبة الصدارة وتشن سلسلة
متصلة الحلقات من الحروب الظافرة الموقفة . وأقام فريدريك الأكبر (١٧٤٠-١٧٨٦)
قصره الفرسالي الطراز عند بوتسدام ، وكانت الفرنسية لغة بلاطه . فهو يتحدث بهار ويقرأ
الأدب الفرنسي ويناقش الملك الفرنسي في ثقافته .

وفي ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكاً على إنجلترا ، فزاد فرد آخر في قائمة الملوك
الداخلين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمساوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري ، كما احتفظ
الفرع الإسباني بإسبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور للشرق ، ذلك أن

عظيمة ونافورات ومساقط مائة (شلالات) ومعرضا للصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لغة البلاط في روسيا مثلما صارت من قبل لفته في بروسيا .

ومن سوء حظ الملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع النعس بين روسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندة دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرص كل منهم على عظمتة الفردية حرصاً شديداً حتى لا يطبق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذي كانوا ينتخبونه . وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفاً مستقلاً .

وكانت سويسرا في ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « الكاتونات الجمهورية » ؛ ثم إن البندقية كانت هي الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كمعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم في دولته البابوية حكماً يحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقى موالياً له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجزؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تذكر العالم بدولة النصرية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقاً أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماماً بين براتن الفرق واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الحطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لكل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدواني . ونحن الأوربيين لانزال نعيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لانزال نكابذ الآلام من تلك الكراهِيات والعداوات والشكوك التي تولدت عن تلك الرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضاً في الأعراض تهجمه أذن الناقد العصري الألمي . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليفة هذا الملك أجبت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتثور ريج القيل والقال فتركم أنف الدارس الذكي بأخبار الرشوة والنفاسات وتملاً نفسه استمئزاً . على أن هناك حقيقة

مائلة ولها دلالتها التي لا تنقطع ، هي أن القراءة والفكر لم تكف مع ذلك عن الانتشار والانتساع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر ، على الرغم من تلك العشرات من الحدود والتخوم التي تفصل بين الدول . وظهر في القرن الثامن عشر أدب عميق في تشككه ، نفاذ في نقده لبلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو أنك قرأت كتاباً كقصّة فولتير المسماة « قنديد » لشهدت فيها بوضوح تمييزاً صريحاً عن حالة لا أحد لها من التبرم بوقوع أوروبا في لجة الارتباك دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت الذى ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذى رأيت ، راح سكان غرب أوروبا ، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين يمدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت الطبعة قد دفعت بالأفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين فى بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثانى : السفينة الشراعية التى تحترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة .

ولاشك أن أول ما أقام وراء البحار من مستقرات الهولنديين ، النازليين حول القطب الشمالى من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستثمار ، بل التجارة والتعدين . والإسبان أول من اتعمق البلدان ، فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد المسمى أمريكا . ومع ذلك فرعان ماطالب البرتغاليون بنصيبهم فى الغنيمة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السابقين إلى الارتياح والفتح ، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطاهما كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردى ، كما منع مابقى بعد ذلك لإسبانيا (١٤٩٤) ، (وكان ذلك من أواخر الأعمال التى قامت بها روما كسيدة للعالم) وفى ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمترك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحل ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دى جاما قد أبحر من لشبونة حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوت ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمر فى ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين يفتشون المخطات التجارية ويحصونها على سواحل المحيط الهندى . ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا وتملكيتين صغيرتين أخريين بالهند وماكاو بالصين وجزءاً من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التي استبعدت من أمريكا بحكم التسوية الباباوية لم تعر حقول إسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام ، وسرعان ماشرع الإنجليز والدانمركيون والسويديون من ورأهم والهولنديون يدعون الدعاوى في امتلاك أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكي الورع لم يعر تلك التسوية الباباوية من الاهتمام إلا بقدر ماأعارها أى أمير بروتستانتي خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوروبا إلى مناطق هذه الدعيات والممتلكات .

وكان الإنجليز في النهاية أبحح من دخل حلبة هذا السباق على الممتلكات وراء البحار مذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد في شئون ألمانيا المضطربة المعقدة ، بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد في ميدان القتال على يد ملك فاتن جذاب هو جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتي . ومالبت الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن الهولنديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين . وكان أهم المتنافسين في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والإسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظمى تحميهم منها وهي بحر المانش ، تلك النخوم المائية السماة « الشعاع الفضي silver streak » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا في شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة في الاهتمام بالشئون الأوربية فظلت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضيع مايسنح أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها في التسلط على إسبانيا وإيطاليا وعلى تلك الفوضى المبهمة السماة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية ببريطانيا إبان القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطدت بها أقدامهم وتزايد عدهم وتكاثر نسلهم ، الأمر الذي عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددي في أثناء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في ١٧٥٦ ، ١٧٦٠ كندا التي سقطت بيد البريطانيين ورجلهم مستعمري أمريكا ، واتقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجدد نفسها مهيمنة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية العظيمة التي شاهدها بابر وأكبر وخلفاؤها ، قد نخر فيها الآن سوس الانحلال الشديد ، كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هي شركة الهند البريطانية الشرقية) من أعجب ما حوى تاريخ الفتوح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابيث إلا شركة من مغامرى البحار ، واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء العيوش وتسليح السفن ، وعلى حين لجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تقاليد أساسها الربح والمكاسب أنها لاتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاى والجواهر ، بل وفي إيرادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشتري وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تعدى إجراءاتها . أفصحب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبها وعامة جنودها ، كانوا يعودون إلى انجلترا عمليين بالأسلاب ؟ !

ومن البدهى أن الرجال الذين يمشون في مثل تلك الظروف ويجدون تحت رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا لا يستطيعون وما يجوز وما لا يجوز ، فالهند في نظرهم أرض عجبية ذات شمس عجبية : كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعباً مختلفاً عنهم يخرج تماما عن مجال عطفهم ، هذا إلى أن معابدها الفاضة تدعو إلى معايير لسلوك غريبة وخيالية . وتحيرت عقول الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليراشقوا بالتهم القذرة الشيعة بين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان على كلايف قراراً بالقوم ، ومالبت أن اتحر في ١٧٧٤ ، ثم حوكم وارن هاستنجز في ١٧٨٨ ، وهو مدير عظيم ثان لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله في ١٧٩٢ . حقا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة في تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزي ألغى نفسه بحكم من وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيرا وأكثر سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعا . وكانت الكثرة العظمى من الشعب الإنجليزي تعد الهند بلداً قسريا لايمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع بلوغه ، ينطلق لإنه الشبان المقامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات حمة كهولا واسمى التراء ذوى أخلاق شكة غنية - وعسر على الإنجليز أن يتصوروا طريقة



خريطة رقم (١٥)

عيش هؤلاء الملايين التي لاحصر لها من السمر السابحين في ضياء شمس بلاد الشرق . ذلك أن أخيلتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا « رومانسيا » لا تمت إلى الواقع بأذى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن يقوموا بأي إشراف فاصل أو هيمنة مشمرة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صلحة كل محيط في هذا العالم ، حدثت بآسيا غزواتان برتان عظيمتان فإن الصين ألقت عن كواهلها نير النور في ١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد شعب المانشو ، وهو شعب مغولي آخر ، وظل سيدا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ . وفي نفس الحين كانت روسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم .

ولاشك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم ، التي لاهى إلى الشرق تماما ولاهى إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية ، ويعود الفضل في توسعها ذلك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي بمنطقة السهوب بها ، هو شعب القوزاق ، الذي أقام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين يولندية والمجر في الغرب وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضارى القاطن شرق أوروبا ، وهم يشبهون من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضارى في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل من أحق عليه روسيا حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء المضطهدين . وفيهم الموالى الثائرون والطوائف الدينية واللصوص المنتشرون والقتلة ، كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا . ويقاثلون من أجل الحياة والحرية كلا من البولنديين والروسين والتتار على السواء . ولا يخالجننا أدنى شك في أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل رويدا رويدا في خدمة القيصر الروسى العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر مرتفعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منحتهم الحكومة أرضا جديدة بآسيا حيث أصبحوا سلاحا حادا لها ضد قوة النور الرحل الداوية المتنافسة ، فعلموا أولا بيلاد التركستان ثم توغلوا عبر سيبيريا حتى نهر عامور .

ومن الصير تفسير الاضمحلال الذى طرأ على قوة القول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقضى على أيام چانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبى الذى سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى - والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض الثقاة أن انتقال التعاليم البوذية إليهم فى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهدئا لنفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن انتشار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يفزون فى بلادهم ويلزمون بالخضوع أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من روسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

وانقضى القرن السادس عشر بأ كله والقوزاق ينتشرون شرقا من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها التخوم وتتحرك دائما إلى الأمام وتحمى هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يرحب التركمان أقوياء ناشطين ؛ على أن روسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبدا حتى بلغت المحيط الهادى نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوروبا النقسمة على نفسها وهي في حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدها محرومة من كل فكرة سياسية أو ديلية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مختلة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستتارة المائلة التي أحدثها في أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع والخريطة للطبوعة ، والفرص التي خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوروبا ضرب من حمى اللغامة العسكرة التي ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة ، أو تكاد ، هيبت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه للزايا التي اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والحالية إلى حد كبير من السكاكث امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوروبا . كما حيزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندة لتسكون وطناً معداً لسكان من الأوروبيين .

ولم يكن مبعث كولبس إلى أمريكا أو فاسكودي جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث في الشرق الأهل آتفا بالسكان والحافل بالمنتجات ، أن الباعث التجاري ظل غالباً متسلطاً وظلت مستقرات الأوروبيين به تجارية بحتة ، وكان سكانها (الأوروبيون) يرجون دائماً أن يعودوا إلى أوطانهم لإعناق أموالهم ، فإن الأوروبيين في أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التثبث بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجي أخفض كثيراً جداً . ولقد ذهب الأوروبيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن للمادن النفيسة ومعدنين ومتقنين عن للمنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة ، وكانوا في المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استلزم للناجم وللزارع قيام للمستقرات (للمستوطنات) . فسكانهما اضطرا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم

وراء البحار . ثم رآى الأمر أن أصبح الأوروبيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطانا جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث في بعض الحالات عند ما هاجرت طائفة من البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلند بأمريكا في أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الدينى ، وكما حدث في القرن الثامن عشر عند ما أرسل أوجليثورب أقواما استخلصهم من سجون الدينين بالهتلرا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث في نهاية القرن الثامن عشر عند ما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوروبيين إلى أراضى أمريكا واستراليا الجديدة الخاوية . ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كائما هو هجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوروبيين ، وانتقلت الثقافة الأوروبية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التى نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التى أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت في الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها إنسان أو حتى يدرك وجودها ، ولم تنبأ السياسة الأوروبية بظهورها ، لذا لم تعد أية خطة لمواجهة أو فكرة لمعاملتها . فظل ساسة أوروبا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية في جوهر أمرها ، وموارد إيراد للدولة أو « ممتلكات » - أو « بلادا تدين بالنتيجة » ، وذلك بعد أن تأصل في سكانها بزمان طويل إحساسهم الحاد بانفصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمان مديد في داخل البلاد وأصبخوا بعيدين عن طائلة أى عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب ألا يضرب عن بالنا ، أن السفينة السراعية الماخرة للمسيط كانت همزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماماً بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبرح هي الحصان ، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدها في البر محدودا بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وما إن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطانى وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما عدا

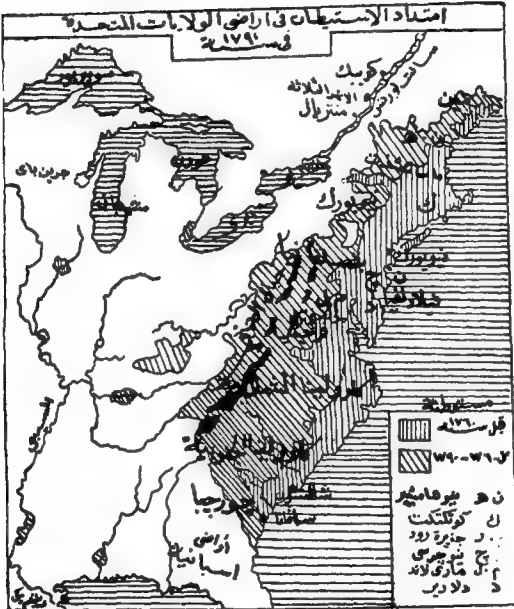
البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين - فإن منطقة فلوريدا ولوزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان نابعاً لإسبانيا . وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر اللين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد .

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في مملشتها وصفاتها . فقد قامت بها المستقرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلاً عن البريطانية ، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستنت ، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزرعون أراضيهم ويعيرون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وما وراءها جنوباً كانوا زراعاً يستخدمون عدداً متضخماً من العبيد الزنوج الملوكيين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالبية لا تسكاد متاعها تقل عن مشاق عبور الأطلسي .

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرضاً أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغاؤها . ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى في إتفاق تلك الضرائب ، وكان تجارتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يفرقهم تيار الشعب البربرى الأسود الذى لا يفتأ يزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم الملكى يتصف بالقوة والشدّة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٣٠) إلى دفع للمستعمرات دفْعاً إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

ومما عجّل باندلاع هيب الصراع ذلك التشريع الذى آثر بالتفضيل مصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين . لذا هاجمت ثلّة من الرجال



خريطة رقم (١٦)

تسكرت في زى المنود الحرف في ١٧٧٣ ثلاث سفن ببناء بوسطن وألقت في الماء بما كانت تحمل من الشاى الذى استورد في ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا عام ١٧٧٥ عندما حاولت الحكومة البريطانية أن تعتقل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكنجستون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكنجستون وتلاحم الجمعان في أول قتال بينهما قرب كونسكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل الستمعون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة في قطع علاقاتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ ، وعين جورج واشنطن قائدا عاما للجيوش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب في أثناء الكفاح الذى نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان . وفي عام ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجون واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا في أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفي نفس تلك السنة أعلن الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيل بالغا . ثم طرق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنواليس شبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح ياريس في ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحادا مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضعيفة السلطان تتولى الشئون بمقتضى بعض مواد لدستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولا في أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أدبا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما عدااء البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين شيئا من الرغبة في الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة . وتنبه القوم فوضعوا في ١٧٨٨ دستورا اعتمدوه للفور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جدا ، وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين في ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضنف في الصعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث إنها لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [وهي الحصان] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوروبية وفي مثل اتساعها كان أمراً لا مفر منه بمضى الأيام ، إذ لم يكن لحضور الجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطيرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية ، فضلاً عن أن العوائق التي كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطاع تذليله ، ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك في العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفاً تاماً ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البحارى النهري ثم السكة الحديد والتلغراف ، فأخذت الولايات المتحدة من التمزق ، وضمت أهلها المشتتين في نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وما هي إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها في اتحاد يجمعها نظراً لشدة توزعها في أرجاء القارة ، ولانقطاعها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحارى وغيابات وإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدويلات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل في البداية لإشعال نادر الحروب فيما بينها والثورات في داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقاً آخر إلى ذلك الانقصال الذى لم يكن منه مفر . إذ حدث في ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية ، ففرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان ، أمست البرتغال هي التابعة تقريباً للبرازيل وليس العكس . ثم أعلنت البرازيل استقلالها في ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقاً بين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل يهدوء إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن في ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بآثر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا

لم تكذب بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكا حتى قبض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت في قلب الملكية العظمى نفسها ، أن تذكر أوروبا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شيء وفق تماما لا دوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوروبا ، وذكرنا أنها كانت مشار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو الصغرى ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان أفضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحي هائل . أجل إنها انصفت بالذكاء والشجاعة والعدوان . ولكنها فرطت في حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التي تعفيهم والتي تلقى على عواتق الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ، وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألفت نفسها مفلسة خاوية الوفاض في ١٧٨٧ ، وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلي الطبقات المختلفة بالملكة لتشاوهم في أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدة زيادة المصروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساي في ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يمثل إلى حد ما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزي ولم يعقد ذلك المجلس منذ ١٦١٠ ، وهي فترة من الزمن كانت تحكم فرساي أثنائها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تذمرهم القوى المديد الأجل وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث . بسبب إصرار الطبقة الثالثة وهي العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت للعامة الغلبة في هذه المنازعات ، فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام ، مثلما ألزم

البرلمان البريطاني التاج البريطاني حدود النظام ، وتيأ الملك لويس السادس عشر للكفاح واستحضر الجند من الأقاليم ، فارت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان انهيار الملكية المستبدة سريعاً جداً . فهدم سكان باريس سجن الباستيل الجهم القبيح الصورة ، وسرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت أيدي الفلاحين في الشرق والشمال الغربي إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقوها ، ومزقت براءات ألقابهم بكل عناية ، كما قتل أصحابها وطردهوا شر طردة ، فلم ينقض شهر واحد حتى انهيار نظام الأرستقراطية القديم النادر ، واضطر إلى الفرار إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال البلاط من حزب الملكة . وأقيمت بباريس ومعظم المدن الكبيرة الأخرى حكومة مؤقتة للمدينة . وأنشأت حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هي الحرس الوطني ، وهي قوة مسلحة أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التاج ، ونظرت الجمعية الوطنية حولها ، وإذا هي تستدعي لإيجاد نظام سياسي واجتماعي جديد لمهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية ، وهكذا تخلت فرنسا من أهم ما كان يهبطها من مظالم الحكم المطلق المستبد ، فألغت الاعفاء من الضرائب والرق (موالى الأرض) وألغى الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم في باريس صرح ملكية دستورية ، فزاد الملك فرساي وأبنتها ، وعاش عيشة متواضعة بقصر التويلري بباريس .

ومرت سنتان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية ستستمر في كفاحها حتى تلتقي حكومة قوية ذات طابع عصري ، فأنتجت أشياء كثيرة صائبة دامت إلى يومنا هذا وإن كان كثير من إنتاجها تجارياً لم يكن بد من نقضه .

على أن كثيراً مما أنتجت لم يكن له أي أثر ، فراحت الجمعية تصفي قانون العقوبات وتنقيح من الشواهب ، وألغت التعذيب والحبس التعسفي والاضطهاد بسبب الزندقة . وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا القديمة كنورماندى وبرغندي وأمثالهما وفتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة ، وأنشئ نظام للمعاكم ممتاز وبسيط ، وإن أفسد قيمته كثيراً جعل تعيين القاضى فيها بالانتخاب العام إلى مدة قصيرة من الزمن . فكان الجمهور قد أصبح بذلك ضرباً من محكمة استئناف نهائية عليا

كأصاار القضاة كأعضاء الجمعية الوطنية مضطرين إلى أن يثملقوا الجمهور ويسعوا إلى مرضاته واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة وتولت إدارتها بنفسها ، وحلت جميع المؤسسات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان ، وأصبح الشعب هو الذي يعمل مرتبات رجال الدين ولم يكن في ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسبة لكبار رجال الدين الأثرياء . وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة بالانتخاب . وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيها السلطات المركزة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل . والواقع الذي لاشك فيه أن الجمعية الوطنية شادت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستانتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث المذهب . ونشبت المنازعات في كل مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين عليها (الذين أبوا أن يقسموا بيمين الولاء) والذين ظلوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بقة تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بما فعله الملك والملكة حين تأمرا مع أصدقاؤهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج . ونجمت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية ، وانسل الملك والملكة وأطفالهما في إحدى ليالى شهر يونيه من قصر التويلري فارين للانضمام إلى الأجانب والنفيين الأرستقراطيين . قبض عليهم في فارن وأعيدوا إلى باريس ؛ وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهب الثورة القومية الجمهورية ، وأعلنت الجمهورية على الفور ، واندلع لهيب الحرب بين الفرنسيين والنمسا وبروسيا ، وحوكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ، على نفس النسق الذي استتته إنجلترة من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج لهيب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية . وأحس الناس أن لابد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل وكل صلح مع الأعداء في الخارج ، فكان لابد في الداخل من استئصال شأفة الملكييين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ، وكان لابد لفرنسا من أن تحمي في الخارج كل حركة ثورية وتقدم لها العون ، ورأت فرنسا أن لابد لأوروبا بأكملها (بل العالم كله) أن تمتنق النظام الجمهوري ، وتدفع شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها نشيد جديد عجيب هو المارسليز الذي لا يزال يلهب السماء في العروق كاتلبها حميا الكأس . انهارت الجيوش الأجنبية

ورجعت القهقري أمام ذلك الشيد الحاسى والطواير الفرنسية الوثابة من حملة السونكى ومدافعهم التى تديرها حماسهم المتوقدة ؛ فلم تسكد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثيراً من كل ما بلغت فتوح لويس الرابع عشر ؛ إذ كانوا يقفون فى كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية . فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم يجتاحون مملكة سافوى ، وهم يتقدمون فيشنون العارة على ماينس Mayence ، وهم قد استولوا على إقليم نهر الشلت من هولندة . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تغفر ، إذ أحرقها طرد ممثلها من إنجلترا عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التى منحت فرنسا حبشاً من المشاة شديد التحمس ومدفعية ناهية مبرأة من ضابطها الأرستقراطيين ومن كثير من الظروف الموقعة للتقدم ، قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للانجليز التفوق المطلق فى البحر . وإزاء ذلك التحدى والاستمزاز اتحدت كلمة إنجلترا بأكلها ضد فرنسا بعد أن ظهرت بريطانيا حركة ضخمة جداً تدعو إلى التسامح مع الثورة والمطف عليها .

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذى نشب بين فرنسا فى السنوات القليلة التالية وبين تحالف تسكون ضدها من الدول الأوروبية . وبحسبنا أنها طردت النموسين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندى وقد تجعد من حوله الماء فى نهر تكسل Texel ، لحفنة من الحمايلة الفرنسيين دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . وصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردهاً من الزمان ، فلم يتهياً لها تقدم إلا فى ١٧٩٦ عند ما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيوش الجمهورية الجامعة للهلهلة الشباب إلى ميادين النصر بإيطاليا ، فاحترق بيدمونت إلى ماتوا وفرونا . يقول س . ف . أنكسون^(١) :

« إن أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتباطاً لم يكن ثمة شئ يستطيع أن يحوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من نقود ، ولو وجدت لما كان من الممكن

(١) فى مقاله التى نشرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان :

« French Revolutionary Wars » .

نقلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات ، التي ربما لزمّت كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن المتاعب التي كانت تدعو إلى فرار الجنود بالجملة من الجندية في العيوش القديمة المحترقة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا في عام ١٧٩٣ — ١٧٩٤ . ولم يكن معقولاً أن يستطاع نقل مؤن لجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التي يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية وعسكرة الجنود بلا خيام في الغراء ، وعيشهم على حساب الأهالي واعتمادهم على القوة بدلا من المداورات الحذرة والجيوش الصغيرة المحترقة والخيام والأطعمة والجرايات الكاملة والتلاعب والحداع . فالجيوش الأولى تمثل الروح التي تستلزم حسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل . . . »

وبينما كانت هذه الجيوش الرثة الثياب من التحمسين تنشد المارسييليز وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماماً ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدفقت فيها أو تحررها ، كانت الحماة الجمهورية يباريس تتلاشى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التعصب ، هو روبسبير . ومن السير علينا أن نقضى في هذا الرجل برأى ؛ فإنه كان رجلاً ضعيف البلية جباناً بفطرته مغترّاً مزهواً بنفسه . ولكنه أوتى أزم الصفات بلوغ القوة ، وهي الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصوره ، كما أنه كان يتوهم أنه لا منقذ لها إلا شخصه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراسخة أن بقاءه في الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحية للجمهورية قد نشأت عن تذبذب المسكين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض الفتن ، شبت إحداها في الغرب بمنطقة لاندييه La Vendée ، حيث ثار الأهالي بزعامه بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجاً على أخذهم جنوداً في الجيش ، وعلى حرمان رجال الدين المستمسين بعقيدة السلف الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى في الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا ، وسمح أنصار الملكية في طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول برأ . فلم يكن لدى روبسبير فيما يبدو من رد فعل على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية .

وابتدأت محكمة الثورة عملها ، وابتدأ بذلك سيل منهر من الذبح والتقتيل ، وجاء اختراع القفص (الجيولوتين) في أنسب الأوقات لهذه النزعة الدموية . فأعدمت المسكة

بالمقصلة ، وكذلك أعدم معظم خصوم روبسيير بالمقصلة ، وأعدم بالمقصلة أيضاً كل كافر أنكر وجود الكائن الأعلى « الذى آتخذه روبسيير رباً » ؛ وانقضت الأيام يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة تحز الرؤوس بعد الرؤوس وتقول هل من مزيد ! ولا إخال إلا أن حكم روبسيير كان يعيش على الدم ؛ ولا يزال يطلب المزيد منه فالزيد ، كدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد فالزيد .

وأخيراً جاء دور روبسيير نفسه فعزل وأعدم بالمقصلة نفسها فى صيف ١٧٩٤ ، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمسة رجال واصلت الحرب الدفاعية فى الخارج وجمعت كلمة فرنسا فى الداخل مدة خمس سنوات . وكان حكمهم أشبه الأشياء بفواصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العنيفة . فتناولوا الأمور كما وجدوها . وفى عهدهم دفعت حمية الدعاية للثورة الجيوش الفرنسية إلى هولنده وبلجيكا وسويسرا وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان الملوك يطردون فى كل مكان وتقام فى مكانهم الجمهوريات . ولكن حمية الدعاية التى كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب حكوز الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التى نزلت بالحكومة الفرنسية . وما لبثت حروبهم أن المحت رويداً رويداً عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية ، وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن اليهود القديمة . وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى . فأنت ترى تلك التقاليد فى أيام حكومة الإدارة قوية عاتية كأنما لم تسكن هناك أية ثورة !

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من المجد ثم ختمها بمذلة المهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك الرجل سوى نابليون بوناپرت عينه الذى قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظان هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدبر الخطة لرفع شأن نفسه . وأخذ يرقى بالتدرج إلى منزلة الصداوة والقوة العليا . كان فهمه محدوداً إلى درجة كبيرة ، ولكنه كان صاحب همه عظيمة ، قصداً إلى هدفه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوادة . بدأ حياته نصيراً ماطر فمدرسة روبسيير ، فهو مدبر بترقباته الأولى إلى انحيازها إليها . ولكن أنى له أن يدرك حقاً تلك القوى الجديدة التى كانت تعمل عملها فى أوروبا ، إن قصارى تصوراته فى السياسة لم ترتفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زائفة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية ، فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، فاقصدا أن يستبدلها بأخرى مركزها باريس ، واضطر الإمبراطور في فيينا أن يتخلى عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة مكتفيا بلقبه الأصلي كإمبراطور للنمسا فقط . وطلق نابليون زوجته الفرنسية لينزوج من أميرة نمسوية .

أصبح بالفعل عاهلا لفرنسا حين عين قسلا في ١٧٩٩ ، كجاءل نفسه إمبراطوراً لفرنسا في ١٨٠٤ بحكاية منه لشرلمان مباشرة . وتوجه البابا بياريس ، حيث تناول منه التاج ووضع نفسه على رأسه كما أوصى شرلمان . وتوج ابنه ملكا على روما . وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل في أثناءها من نصر إلى نصر . ففتح معظم إيطاليا وإسبانيا ، ودحر بروسيا والنمسا ، وتسلم على كل أوروبا غربي روسيا . ولكنه لم يفر قط بانتراع منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين ، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأميرال نلسن البريطاني في موقعة الطرف الأغبر (١٨٠٥) . واثارت إسبانيا عليه في ١٨٠٨ ، وراح جيش بريطاني بقيادة ولنجتن يدفع الجيوش الفرنسية يبطء نحو الشمال حتى طردها من شبه جزيرة أيبيريا ، وفي ١٨١١ دب ديب الخلاف بين نابليون وبين القيصر إسكندر الأول ، ثم غزا روسيا في ١٨١٢ بجيش عظيم غلظ عدته (٦٠٠.٠٠٠) ستمائة ألف رجل ، وهي حملة هزمها الروس بمعاونة شتاء بلادهم القارس ودمروها إلى حد كبير . وعندئذ شقت ألمانيا عصا الطاعة عليه ، وانقلبت السويد عليه . فارتدت الجيوش الفرنسية متهزمة كبيرة الجناح ، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فونتينبلو (١٨١٤) . ففنى إلى جزيرة إلبا ، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم في جعبته في ١٨١٥ ، ولكنه هزم في وآرلو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين .

لقد تبددت القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها وذهبت أدراج الرياح ، والتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم للحلفاء الظافرين يستهدف أن يعيد جهد المستطاع الظروف التي مزقتها الزوبعة المظيعة كل ممزق . وأسفر المؤتمر عن احتفاظ أوروبا مدة تقارب الأربعين عاماً بنوع من السلام الناجم عن تبدد القوى وتشكت الجهد .

الفصل السادس والعشرون

السلم الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

حال سيبان رئيسيان دون استتباب السلم الاجتماعى والدولى خلال هذه الفترة ، ومهدا السبيل لدورة الحروب التى نشبت بين عامى ١٨٥٤ ، ١٨٧١ ، وأول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المحسنة بالشعوب وإلى التدخل فى حرية الفكر والكتابة والتعليم ، وثانيهما هو تلك الحدود العقيمة المستعيلة التى رسمها ساسة فيينا .

وقد تجلّى فى إسبانيا أولا بأوضح صورة جليلة ميل الملكية المتأصل إلى العودة إلى الأحوال والأوضاع القديمة البائدة ، وإذا هى تعيدها جميعاً حتى عهاكم التفتيش نفسها . ومن قبل ذلك فيما وراء الأطلنطى كانت المستعمرات الإسبانية قد حذت حذو الولايات المتحدة ، وثارّت على نظام الدول العظمى الأوربي ، عند ما نصب نابليون أخاه جوزيف على عرش إسبانيا فى (١٨٠٨) . وكان الجزائر بوليفار منقذ أمريكا الجنوبية من نير الأوربيين شأن جورج واشنطن فى الشمال . ولم تستطع إسبانيا أن تقضى على هذه الثورة ، فطال أمدّها بغير ثمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من قبل ، حتى اقترحت النمسا فى النهاية تمشياً منها مع روح « المحالفة المقدسة » وجوب مساعدة ملوك أوروبا لإسبانيا فى ذلك الكفاح ، فلقى ذلك الاقتراح معارضة من بريطانيا ، ولكن الذى قضى نهائياً على اقتراح إرجاع سلطان الملكية ذاك ، هو التصرف السريع الذى اتخذه مونرر رئيس الولايات المتحدة فى ١٨٢٣ حين حذرّها مغبة ذلك الاسترداد ، فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد كل تدخل من جانب الدول الأوربية فى نصف الكرة الغربى عملاً عدائياً ، وهككذا نشأ مذهب مونرو ، القاضى بالألا توجد بأمرىكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا ، وهو الذى أبعد نظام الدول العظمى عن أمريكا مدة تربو على مائة سنة ، وأتاح لدول أمريكا الإسبانية الجديدة أن تصوغ مصائرّها على الطريقة التى تريدها لنفسها .

ولكن الملكية الإسبانية وإن فقدت مستعمراتها ، فقد كانت تستطيع على الأقل أن

تفعل ماتشاء في أوروبا تحت حماية التضامن الأوروبي، لذا تولى جيش فرنسي سحق حركة عصيان شمعية شبت بإسبانيا في ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوربي، وراحت النمسا في نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت في نابلي .

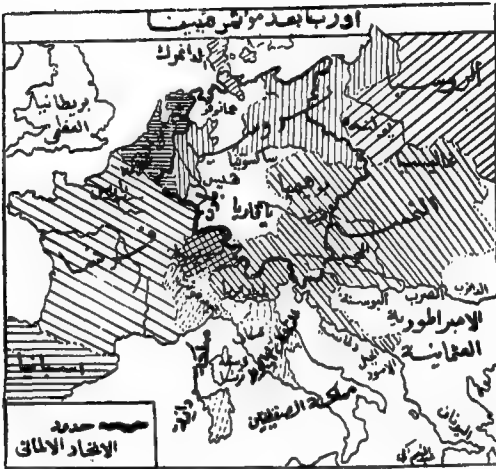
وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤ وخلفه شارل العاشر . وكرس شارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجامعات ، وإعادة الحكم للطلق إلى نصابه ؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكات تعويضاً للنبلاء عما حل بهم في ١٧٨٩ من حرق قصورهم ومصادرة أموالهم . وما لبثت باريس أن ثارت في ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وأحلت محله على العرش لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان ، أحد النبلاء الذين أعدموا في عهد الإرهاب ، ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوروبية التدخل في هذه الحالة لما شهدته من استعسان بريطانيا الصريح لتلك الثورة ، ولما آنتسته من وجود حركة تحرر وتسامح بألمانيا والنمسا . هذا إلى أن فرنسا كانت لازال - قبل كل شيء - محتفظة بنظامها الملكي . وقد بقي هذا الرجل لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) ثمانية عشر عاما ملكا دستوريا لفرنسا .

تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تعبت بقرارات مؤتمر فيينا ، والتي أثارتهما من مكنها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت التورات التي تمخضت عنها التخوم غير الدروسة عليها التي وضعها الديبلوماسيون في فيينا يشدد عودها من آن لآن ، ولكن خطرهما على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيراً . ذلك أن من أشد الأمور جلبا للتاعب على رؤوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تسكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة وتعتنق أفكاراً عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ربطاً وثيقاً هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات الدفاع المشترك عند السويسريين الجبلين ؛ بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد . على أن نظام الكاتونات يكون ألزم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كقدونيا يختلط السكان فيه في وقع صغيرة من القرى والأحياء التباينة الأجناس . ولو أن القاريء نظر إلى قارة أوروبا كما رسمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعيني رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استشارة أشد أنواع الاستياء المحلي في كل ناحية مستها يده .

دور ذلك المؤتمر جمهورية هولنده بدون مبرر . وكدس في كتلة واحدة كلا من

الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية ، والساكسين بالأراضي الإسبانية القديمة (والنمسية أيضاً) ، وأقام منهما مملكة الأراضي المنخفضة . ولم يقتصر على أن يسلم للنموسيين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية العريقة ، بل وشمال إيطاليا، كله حتى مدينة ميلانو . ثم جمع مقاطعة سافوى الفرنسية اللغة مع أجزاء من إيطاليا، وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وهما من قديم الزمان خليط متفجر من القوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشيكيوسلافك واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضموا إليهم آنذاك - فقد أصبح الموقف فيها أصعب وأعسر حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التي استقطعتها النمسا من بولندة في ١٧٧٢ ، ١٧٩٥ ، وأقر المؤتمر أيضاً تسليم الضطر الأعظم من الشعب البولندي الحر الكاثوليكي العقيدة الجمهورى النزعة إلى الحكم الأقل حضارة ، حكم قيصر روسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن روسيا البروتستنتية استولت بدورها على نواح هامة من ذلك القطر النعس . وأقر المؤتمر أيضاً استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماما . وربط شعبي السويد والترويج المختلفين تمام الاختلاف ، بعضهما إلى بعض في ظل عرش واحد . وسيلحظ القارئ أن ألمانيا تركت في حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة . فإن كلامنا بروسيا والنمسا كانت داخلة جزئيا في اتحاد ألماني وخارجة جزئيا عنه ، وهو يضم العدد الجهم من الولايات الصغرى ، وأصبح ملك الدانمرك عضوا في الاتحاد الألماني بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية في هولشتين وقعت في حوزته . وألحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألماني وإن كان حاكمها ملكا للأراضي المنخفضة أيضاً ، مع أن كثيراً من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل المؤتمرن إغفالاً تاماً حقيقة واضحة للعيان : هي أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الإيطالية والقوم الذي يتحدثون بالبولندية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالا وأشد عوناً لباقي البشرية وأقل ضرراً بها إذا هم أداروا شئونهم الخاصة على الطريقة التي يرضون وفي حدود لغتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أشد ماذاع في ألمانيا من الأغاني الشعبية في تلك الأيام أنه « حينما نطق اللسان الألماني ، فذلك أرض الأجداد الألمانية » .



خريطة رقم (١٧)

اقتدت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التي اندلعت بفرنسا ١٨٣٠ ، حيث أعلنت الثورة على ربطها قسرا بالهولنديين في مملكة الأراضي المنخفضة وذعرت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد أو إلحاقها بفرنسا ، فسارعت بالتدخل لتهدئة ذلك الموقف ، وأعطت بلاد البلجيك ملكا هولنديا بولدا الأول أمير ساكس كوبرج جوتا ، وحدثت في نفس تلك السنة ١٨٣٠ أيضاً ثورات بإيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق ، كما حدثت ثورة أخرى أشد خطرا بكثير بالمنطقة الروسية من بولندة . وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك سنة كاملة أمام قوات القصر نيقولا الأول (الذي خلف اسكندر في ١٨٢٥) ، ثم أخذت إخمادا تجلى فيه عظيم العنف والقسوة وحرم النطق باللغة البولندية وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية دينارسمياً للدولة بدل الكاثوليكية .

وقد حدث في ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك ، وظلوا يقاثلونهم حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوربية واقفة موقف المتفرج . واحتج الأحرار على الجلود التى يتبدى فى أوربا ؟ واتتال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوربى للانضمام إلى العصاة ، وأخيراً اتخذت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة مشتركة فعالة فدمر الإنجليز والفرنسيون ، الأسطول التركى المصرى بمركبة نوابين (١٨٢٧) ، واجتاح القيصر حدود تركيا . وأعلنت معاهدة أدونة (١٨٢٩) حرية بلاد اليونان واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد تقاليدھا الجمهورية العتيقة ، والتمس لليونان ملك ألماني هو الأمير أوتو البافارى ، كما عين لولايات الدانوب (وهى بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحى ، ونصب آخر على بلاد الصرب (وهى جزء من المنطقة اليوغسلافية) . ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الدماء الكثير من الدماء قبل طرد الأتراك نهائياً من تلك الأصقاع .

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازلها فى أوربا ، وبينما الخريطة المرقعة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة كتقلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا (١٨١٥) المرقعة هى أيضاً ، وبينما السفينة الشراعية تبسط النفوذ الأوروبى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوروبى وما اصطبغ بصباغه من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنمية عامة لأفكار الناس وآرائهم المتصلة ، بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعزل تام عن الحياة السياسية وإن لم ينتجها فى تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أخاذة مباشرة . ثم إنهما لم يؤثرأ فى الفكر الشعبى تأثيراً عميقاً فى أثناء تلك الفترة ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز « بالسيد » الجنتلمان ، لما بدأت العملية العلمية ببلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوربا أبداً . ولعبت الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك المسدة . والتعلم الذى يتلقى الهبات المالية يمنح إلى الجبن والمحافضة على القديم وتعوزه روح الابتكار والمبادأة ويقاوم كل تجديد ، ما لم يحفز به الاحتكاك بالمقول الحرة المستقلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية الملكية تكونت فى ١٦٦٢ ، ولحظنا ما أنجزته فى سبيل تحقيق أحلام باكون فى كتابه الأطلانطس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشيء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : - المادة والحركة ، كتمام الشيء

الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو منتظم فى استخدام المدسات فى كل من المهر والرقب (الليكروسكوب والتلسكوب) وتجديد للهمة للبدولة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويبه ، واتعاش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذى تسكن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، يذل جهوده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن . وعاد تقدم علم المعادن بالفضل العميم على المخترعات العملية ، حيث يسر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزناً وأصنم حجماً . وظهرت مكنات ذات معيار جديد وبكثرة لم يسبق لها مثيل ، فأحدثت فى الصناعة انقلاباً هائلاً .

واستطاع تريفيثيك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس واط البخارية لمستلزمات النقل والحركة ، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨١٦ بين ستوكن ودارلنجن ، وإن بلغت سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً فى الساعة ، وهى تجر وراءها قطاراً من العربات زنته ثلاثة عشر طناً . وتكاثر السكك الحديدية منذ ١٨٣٠ . فلم ينتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا^(١) .

وهنا حدث تغير فجائى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ، هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد سار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى روسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها مايدانى ١٤٠٠ ميل وكانت تحت خدمته كل مااستطاع تقديمه للملك من ميزات ، فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وماكان الراكب العادى ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى نصف تلك المدة مهما تعجل . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد الغالة فى القرن الأول الميلادى . ثم ظهر التغير الهائل على حين بشة . وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى مادون ثمان وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوروبا إلى نحو عشر ماكانت

(١) أنفأت مصر ثانى خط للسكك الحديدية فى العالم بين القاهرة والإسكندرية ١٨٥٢ [الترجم]

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم في مساحات أكبر عشر مرات من التي كان في الإمكان إدارتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن الغزى التام لتلك الإمكانيات ، ذلك أن أوروبا تقطع أوصالها حدود ونجوم رسمت في عصر الحصان والطريق ، على أن السكة الحديدية كان لها بأمرها أثر مباشر فعال . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تحذف في بطن غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع التخوم الجديدة التي تتقدم في كل آن بأرض الفارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخاري على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى ، فإن زورقا بخاريا هو « شارلوت دنداس » كان بمخرقانة خليج السكلايد Firth of Clyde في ١٨٠٢ ، وكان لأمره اسم فالتون باخرة أسماها كليرمونت بها آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل في أعلى نهر الهدسون وراء نيويورك ، وكانت أول باخرة أُنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس ، التي كانت تلتقي بين نيويورك (هوبوكن) وفيلادلفيا ، وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخر (إذ كان بها قلوبع أيضا) عبرت المحيط الأطلسي (١٨١٩) واسمها السافانا - أمريكية هي الأخرى ، وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم العجلة الرافعة (١) ، وليست سفن الرفافات بقادرة على شق عباب البحار الهائجة الأمواج . فإن مجاديف العجلة تتعظم بغاية السهولة ، وعندئذ يصبح المركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة اللولبية على شيء من البطء . وإذ لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبية وسيلة عملية مشهورة . ولم تستطع حمولة السفينة البخارية البحرية التفوق على حمولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن . ومن بعدها سار التطور في الملاحة البحرية بخطى سريعة ، ولأول مرة في التاريخ أخذ الناس يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موعود وصولهم ، فإن عبور الأطلسي الذي كان إلى حين قريب مقاومة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أسابيع عديدة (ربما وصلت إلى شهور) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت في ١٩١٠ ، في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا .

(١) العجلة الرافعة أو الدولاب الدالي : عجلة ضخمة تدفع السفينة بواسطة ألواح مثبتة عموديا على محيطها والألواح تدفع الماء عندما تدار العجلة [الترجم]

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري براً وبحراً، ونشأت وسيلة أخرى جديدة. أخاذة أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفاً وفاراداي في مختلف أنواع الظواهر الكهربائية. فظهر التلغراف الكهربى على مسرح الوجود في ١٨٢٥. ومد أول سلك بحرى « كابل » برقى تحت البحر في ١٨٥١ بين فرنسا وإنجلترا، وماهى إلا بضعة سنين حتى غم نظام البرق العالم الممدد بأكمله، وحتى أمنت الأخبار التي كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ تعرف في كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريباً.

ولامراء أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربى ، تبدت لأخيلة الناس في منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائعة بل معجزات خارقة ، على أنهما لم تكونا إلا باكورتين بارزتين قيصيتين في بستان ضخم تم فيه عملية أعظم وأوسع كثيراً . فإن المعارف واللهارة الفنية التطبيقية (Technical) أخذت تنمو وتنضج بسرعة خارقة وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ماتم قبل ذلك في كل عصر مضى . وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزاً بكثير في حياة الإنسان العادية ولكنه كان في النهاية أهم كثيراً من أي شيء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية متنوعة ومكونة لمواد أخرى . مثلاً ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بواسطة الفحم المصنوع من الخشب ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرق ويعطى الشكل المطلوب . فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فني وعندئذ كانت جودة الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من الحديد يمكن معالجتها في مثل تلك الظروف ليزيد في أقصى الحالات حجماً (في القرن السادس عشر) على طنين أو ثلاثة (فمن الطبيعي إذن أن يكون لهجم المدافع حد أقصى لا يتعداه) وجاء تنور الصهر الهوائى في القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال الكوك . على أنك لا تجد ألواح الحديد المسحوبة بين الإسطوانات الضاغطة [الدرافيل] إلا في القرن الثامن عشر (١٧٢٨) ، كما لا توجد أسياخه وقضبانة المسحوبة بين تلك الإسطوانات نفسها إلا في (١٧٨٣) . كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخترع إلا أخيراً في ١٨٣٨ .

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لانهطاطه في كل ما يتصل باستخراج المعادن وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمضخة البدائية ،

إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين المصرية تلك الآلات الأولى لرات فيها قطعاً من الحردة قيعة الصورة مستوجبة للثناء ، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة في ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذى كان فى إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد وتنقيتها وصباها على شاكلة ونطاق لم يسمع الناس بمثلهما أبداً ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربى لرأيت أطنانا من الفولاذ التوهج المبيض من شدة الحرارة وهى تفلى وتهدر غليان اللهب فى إنائه ، وليس فى الإمكان أن تقاس ثمار شئ مما أحرز الإنسان فى الماضى من تقدم ، بما ترى من تحمكه المطلق فى كتل ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قومها وتكوينها . وفى الحق أن السكك الحديدية والآلات القديمة يختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة فى معالجة المعادن . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكبارى الفولاذية الضخمة ، فضلا عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل جدا ، وأدرك الناس فى وقت متأخر جدا أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تتجلى فى المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان فى إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعبا وأحفل بالراحة والسرور لو أنهم زادوا كثيرا فى المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حولتها كثيرا على ألفى طن ، أما اليوم فليس هناك أى عجب فى باخرة حولتها خمسون ألفاً ، ومن الناس من يسخر بهذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم فى العجم ليس غير ، ولكن تلك السخرية تسمهم بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذى ليس كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بنائه الصغير ؛ وإنما هاشى يختلف عن سابقه فى النوع ، كما أنه أخف حملا وأقوى بناء ومواد التى تصنع منها أمتن وأبقى ؛ هاشى لا يقوم على السوابق الموروثة ولا الطرق العملية الفجة غير العلمية ، بل على الحساب الدقيق المعقد . كانت المادة فى المنزل القديم أو السفينة القديمة هى التسليطة ، إذ لم يكن يد من تحرى مستلزمات المادة ونوعها والتمشى معها تمشيا أعمى ؛ أما فى الموقف الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبذلك فى تكوينها ماشاء له عليه . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل ، التى استخرجت من المهاجر والناجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتشغيل والصب . وإذا هي
برج رشيق من الفولاذ والبلور ، ويعلو المدينة المزدهجة بأكثر من ستمائة قدم ١٩

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على
سبيل التمثيل والإيضاح ولو شئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه عن تسلط العلم على
معدنى النحاس والقصدير ، بل وعلى طائفة حجة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر
القرن التاسع عشر . ولا نذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم ، وهكذا
لم يحظ الانقلاب الميكانيكى بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة
الإنسان العظيمة المتزايدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور
والجبس والمصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها ، ومع ذلك فما زلنا في هذه
الميادين عند مرحلة الثمار الأولى والناشئة لم نتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت ملك
مميننا ، ولكن ببق علينا أن نعلم كيف نستخدم قوتنا تلك ، ثم إن الشيء الكثير
من استخدامنا الأول لهبات العلم السخية هذه كان في البداية سويقاً ، ينطوى على الذوق
القييح أو التباء أو الفظاعة ، ولم يكد الفنان والمهندس المنفذ يتجاوزان بعد مرحلة
الابتداء الأولى في الاستفادة بتلك الأنواع التى لاحصر لها ولا نهاية من المواد التى
أصبحت اليوم تحت تصرفها .

واطرء نمو علم الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير فى الإمكانيات الميكانيكية ،
ولم يشرع هذا العقل من حقول الأبحاث أن يؤتى ثماراً كان لها فى عقول الناس أثر
عميق إلا فى ثمانينات^(١) القرن التاسع عشر ، وإذا بالعلم يفاجأ بالنور الكهربى ،
والجر الكهربى ، كما بدأ يتسرب للأذهان كافة أن فى الإمكان نقل القوة ، أى إرسال
قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك
من النحاس ، كما ينقل الماء فى الأنابيب .

كان البريطانيون والفرنسيون فى بادئ الأمرها الثعبان اللذان سبقا غيرها فى
مضمار تكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن مانشب الألمان الذين تلقوا درساً فى الدقة على يد
نابليون أن أبدوا من الحمية والمثابرة فى الأبحاث العلمية ما جعلهم يدركون هؤلاء الرواد
ويسبقونهم ، وكان العلم فى بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز
والاسكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوذعية والإحاطة المألوف .

(١) ثمانينات القرن : مى عقده التاسع من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩

وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تدهور تربوي ، وقد صرفت جل همها في إظهار الحذقة ، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، وكذلك شأن التعليم في فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين ، ربما كانت صغيرة بالقياس إلى ما في الأمر من إمكانيات ، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفئة الصغيرة من المختربين والمجربين ببريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبي فيهما . ومع أن هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم وأغناها ، فإنها لم تعد على رجال العلم والاختراع بثروة ولا قوة .

فإن رجل العلم المخلص لعمله يعيش بالضرورة في حو من الزهد في الدنيا ؟ فهو من الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالاً لتدبير الخطط في المشروعات لجمع المال عن طريقها . ولذا فسرعان ما يقع استثمار اختراعاته الاقتصادية بغاية السهولة وبطريقة طبيعية جداً في قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال ؟ لذا نرى في تاريخ بلادنا أن كل طبقة جديدة من الأغنياء أبرزها ببريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والفني كانت تقع تماماً بأن تترك الأوزة التي تبيض لها بيضة الذهب تضوى من الجوع إن لم تبد منها تماماً نفس تلك الرغبة الجامحة التي أبداهها علماء الدراسات الكلامية^(١) ورجال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها . فلقد زعموا أن المسكتشين والمختربين يظهرون بالطبيعة ليستفيد من ورائهم من يفوقونهم ذكاء .

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكماً للعقل ، فإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا نحو العلم الجديد مثل تلك البغضاء العنيفة . لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطور . ثم إن رجل الأعمال وصاحب الصنع لم يستشعر انحور رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي خا من انفسهما البريطاني . وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محسولاً يزرع ويستجيب للنخبات . لذا تزلوا قهلاً لرجل العلم عن معين من فرصة الثراء ؟ وكانت ميزانية مصروفاتهم العامة على البحث العلمي أعظم نسبياً ، كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم بموفور الجزاء . وإذا برجل العلم في ألمانيا يحمل لفته الألمانية في النصف الثاني من القرن

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحياناً بالفلسفة المدرسية .

التاسع عشرة لثة ضرورة لا يستغنى عنها كل دارس للعلوم يريد أن يظل ملماً بآخر ما أنتجت العقول في ناحية تخصصه وثمة فروع بعينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها ألمانيا تفوقاً عظيماً جداً على جاراتها القريبات . ولم تظهر آثار الجهود الألمانية إلا باستينات وسبعينات القرن^(١) ، بل بعد الثمانينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسا في ميادين التقدم الفنى والصناعى .

وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر في ثمانينات القرن طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر ، محل قوة تمدد البخار . وأدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التى أمكن صنعها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات ، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت فى النهاية ذروة من خفة الوزن والكفاية جعلت الطيران - الذى عرف الناس من قديم الزمان أنه شئ ممكن - من الأمور الواقعية المحققة . فإن لانبجلى الأستاذ بمعهد سميثسن بواشنطن صنع فى ١٨٩٧ ، آلة تطير بنجاح ، وإن لم يتسع حجمها لمل جسم كائن بشرى . ثم أصبحت الطائرة صالحة لمل الإنسان فى ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحت فى الأفق فترة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ فى المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفى القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذى حدث فى ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوى كتبت تقريراً قالت فيه : « إن المسافة من لندن إلى ملبورن ، وهى تعادل نصف محيط الأرض . ربما أمكن أن تقطع فى مدى بضع سنوات فى نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن ينبغي علينا أن لا نبالغ كثيراً فى تأكيد هذه التخفيضات الباهرة فى المسافات الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر . فما هى إلا ناحية واحدة من نواحي توسيع الإمكانيات البشرية توسيعاً أبعد غوراً وأعظم شأنًا . مثال ذلك أن علمى الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزوا تقدمات مماثلة لهذه تماماً فى أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس بتخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة من الأرض فى القرن السابع عشر . وحدث تقدم فى علم الطب

(١) وما العقدان السابح والثامن من القرن .

أشد من هذا خرقاً لكل معتاد مألوف ؛ فزاد متوسط عمر الإنسان ، وزادت كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة .

من هذا كله يرى القارئ أن بين أيدينا تغييراً كلياً في الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموله أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني . ثم هذا الانقلاب الميكانيكي في مدة لا تزيد كثيراً عن قرن . وفي تلك اللدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته المادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها في أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجري القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام يبي ملك مصر وجورج الثالث . لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار مادي هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر العظيم من إعادة تكييف مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بيد أن عمليات إعادة التكييف تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الانقلاب الميكانيكي كما أنهم لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلاكية الأولى

الفصل الثامن والعشرون

الانقلاب الصناعي

تجنىح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما أسميناه « الانقلاب الميكانيكي » الذى هو شىء جديد تماماً فى الخبرة البشرية تولد عن تطور العلم للنظم ونموه ، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف المعادن سواء بسواء ، وبين شىء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف . شىء له من قبل سابقة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعى والمالى الذى يسمونه « الانقلاب الصناعى » . سارت كلتا العمليتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتفاعلا إحداهما مع الأخرى ، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهرأ . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو المسكنات ، ولكن لعله كان فى تلك الحالة يلزم بدقة أكثر نفس الطريق الذى سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التى حدثت فى السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجريدين من أملاكهم وعصابات العمال والمزارع الضخمة والثروات المالية الطائلة والنظام المالى المدمر للنظام الاجتماعى . وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت فى الوجود قبل استحداث القوة واختراع المسكنات . فالمصانع ليست عمرة الآلة بل ثمرة تقسيم العمل ، فكان العمال الذريبون المرهقون بالكدح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وعلب الكرتون والآثاث ، ويلونون الحرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حتى الدوايب المائبة فى خدمة الصناعة ، وكان بروما فى أيام أوغسطس كثير من المصانع . مثال ذلك : أن الكتب الجديدة كانت تملأ على حشود مصفوفة من النساخين فى مصانع باعة الكتب . وسيرى كل دارس مدقق يقرأ بإمعان ما كتبه دانيال ديفو وما تحتويه نشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين فى مؤسسات للحصول على أرزاقهم كانت شيئاً مألوفاً ببريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها فى نفس زمن السير توماس مور وكتابه اليوتوبيا ١٥١٦ . لاجرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعى والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسوم من جديد خطى الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة للميلاد .

غير أن تفكك أوروبا سياسياً ، وثوراتها السياسية العنيفة على الملوك ، ومعاندة العامة مضافاً إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوروبى الغربى للأفكار والمخترعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماماً .

ولا شك أن الفسكات الداعية إلى تكافل الناس وتماسكهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً فى العالم الأوروبى الجديد ، ولم يكن النفوذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركيز ، ومن ثم أفلح كل رجل نشيط حريص على الإثراء عن فكرة الرقيق وعصابات العمال ونحوه بفكره مختاراً لقوة الآلة و « المسكنة » .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية ، كانت شيئاً جديداً فى خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابثة بما قد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك فى حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال كسكل الشئون الإنسانية - عرضة لتغيرات تزداد فى كل آن عمقاً وانحرافاً بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى فى ظروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكديس الثروات وإياداة طبقى صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة المالىين الكبار فى أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة الماثلة لذلك من تركيز رأس المال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى ينحصر فى الفرق العميق بين نوعى العمل والعمال الذى تولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة فى العالم القديم . فكان كل شئ يعتمد اعتقاداً تاماً على القوة الدافعة والحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم : عضلات الجهاد والأدلاء من الناس ، ولسنا ننكر أن قد شاركهم فى ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التى جاءت فى صورة الثران وما تجره والحيل وما تحملها ، إلى غير ذلك . فحينما وجب رفع ثقل من الأثقال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحينما

استلزم الأمر استخراج صخرة من محجر ، كان الرجال هم الذين يقطعونها ، وحيثما لزم حرت أحد الحقول حرثه الرجال بمساعدة الثيران ، وكان للركب البخارية نظير لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صفوف مجدفين يرهقون إلى أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر في عهد الحضارات الأولى في أعمال الكدح العنيف الآلى البحت ، على أن الآلات المدفوعة بالقوة لم تبشر في البداية بأى أمل فى خلاص المكدودين من ذلك الكدح الآلى الذى لا ذكاء فيه ، فكانت فرق ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير الترع ، وفي شق أنفاق السكك الحديدية وعمل الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك وتزايد عدد عمال المناجم زيادة هائلة . ولكن اتساع مدى الوسائل الميسرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ، وكلما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ النطق الواضح للموقف الجديد يفرض نفسه بصورة أصرح . فلم يعد البشر يطلبون كمصدر للقوة البحتة دون تمييز . ذلك أن ما يستطيع الكائن البشرى عمله بصورة آلية كان شيئاً تستطيع الآلة أن تعمله بدرجة أسرع وأحسن . فلم يعد الأمر يحتاج للكائن البشرى الآن إلا حيث يجب استخدام العقل والذكاء والاختيار . فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن ككائنات بشرية ، أما ذلك الكادح السخر الذى اعتمدت عليه الحضارات السابقة جميعاً ، ذلك المخلوق الذى عليه الطاعة العمياء ، والذى كان عقله أداة كاسدة لا لزوم لها ، فقد صار غير ضرورى لصالح البشرية .

وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين انطباقه على أحدث العمليات المعدنية ، إذ ظهرت في ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدينة الرومانية مؤسسة على كواهل كائنات إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ؛ أما الحضارة العصرية فيعاد بناؤها على عاتق قوة ميكانيكية ، رخيصة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزداد في أثنائها في كل يوم رخصاً والعامل غلاء . فلئن اضطرت المكنت أن تنتظر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى يحين دورها ، فما ذلك إلا لسبب بسيط ، وهو أن اليد العاملة ظلت رديحاً من الزمان أرخص من المكنت .

بذلك حدث في حياة الناس انقلاب ذو أهمية قصوى . لقد كان أكبر هم يقض مضجع النقي أو الحاكم في الدنيات القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكفيه

من الكادحين الأذلاء . فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر انضح للأذكاء أنه لا مفر للرجل العادي من أن يعلو عن منزلة الكادح الدليل ؛ إذ لم يكن محيص من أن يتعلم - لكي يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل . ولم يكن مندوحة من أن يفهم ما يراد منه . لقد ظل التعليم الشعبي يسرى بأوروبا سرياً وثيداً بطيئاً منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، على غرار ما كان بأسيا حينما وطنتها قدم الإسلام ، وذلك لضرورة تفهم المؤمن شيئاً قليلاً من العقيدة التي ستخلصه في الآخرة ، وتمكنه من قراءة الشيء القليل من كتبه المقدسة التي تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المجدلات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأتصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبي العام . مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية بالجلتراً وحاجتها لكسب الأتصار إبان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المزاحمة على الأطفال ، منها المدارس القومية النابعة للكنيسة ، والمدارس البريطانية التابعة للخارجيين عليها ، بل حتى المدارس الكاثوليكية الأولية . وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي في كل أرجاء العالم المنطبع بالطابع الغربي . ولم يسار هذا التقدم تقدم آخر مماثل له في تعليم الطبقة العليا - أجل حدث شيء من التقدم لاجرم ولكنه لا يتساوى مع الأول بتاتاً - وهكذا لم تلبث الهوة العظيمة التي كانت تقسم العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة ، أن باتت لا تزيد عن فارق في المستوى التربوي لا يكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكن الانقلاب الميكانيكي ، غير عابئ في الظاهر بالأحوال الاجتماعية ، ولكنه يلح بإصرار في الواقع ودون هوادة على أن يقضى تماماً في كل أرجاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس روما أبداً معنى الانقلاب الاقتصادي ولا أدرك كنهه ، فال مواطن الروماني العادي لم يحس قط بالتغيرات التي يعيش في كنفها بنفس الوضوح والشمول اللذين نشهدهما نحن بهما . أما الانقلاب الصناعي فكان وهو يدلف في طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متكاملة . يتزايد وضوح تكاملها كشيء واحد للعامة الذين وقروا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون آتذاك القراءة والمناقشة والتراسل ، ولأنهم كانوا ينتقلون في البلاد ، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدوا أمثالهم من قبل .

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء

السياسية والاجتماعية المعاصرة

نمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسية ، وترعرعت يبطء عصرآ بعد عصر دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يقتبأ إنسان لها بشيء ، ولم يحدث إلا في القرن السادس ق . م ، قرن المراهقة العظيم للبشرية ، أن فكر الناس بجلاء في علاقاتهم بعضهم ببعض ، وأن ناقشوا لأول مرة واقترحوا لأول مرة تغيير المعتقدات المستقرة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها .

وقد سبقت الإشارة إلى الفجر الفكري المجيد الذي لاحت تباشيره بأرض يونان ومدينة الإسكندرية ، وكيف تقوضت الدنيات المالكة للرقيق وتلبدت سماؤها بغيوم التعصب الديني واستبداد الحكومات للطلق ، مما عاجل ذلك الفجر فأسدل على ماترقق فيه من الآمال ظلمة حالكة . ولم يبدأ نور التفكير الجريء ينغذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلك الليل الدامس الذي ران على أوروبا إلا حين أقبل القرنان الخامس عشر والسادس عشر . وقد حاولنا أن نعرض عليك شيئاً يبين فضل تلك الرياح العظيمة التي أثارها حب استطلاع العرب وفتوح الغول في تبديد بعض ما غشى السماء العقلية لأوروبا من القيوم ، وأول من حظي بالزيادة هو المعرفة المادية بوجه خاص . فكانت أول الثمار التي عادت على الإنسان من استرداد إنسانيته مغايم مادية أحرزها وقوة مادية حصل عليها . ذلك أن علم السياسة البشرية ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، وعلوم التربية والاقتصاد ليست دقيقة ومعقدة في حد ذاتها فحسب ، بل هي ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له بالشيء الكثير من النواحي العاطفية . وقد سار التقدم فيها بخطى أبطأ ، كما أنه لقي معارضة عظيمة . والناس يستمعون بهدوء تام إلى

أخذ الآراء تبايناً حول النجوم أو القدرات ، ولكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عندنا تمس كل فرد حولنا ، وتنعكس عليه .

وكما حدث بيلاد اليونان تماماً حيث سبقت تأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة ، حدث في أوروبا أيضاً أن صبت أول الأبحاث السياسية في المرحلة الجديدة في قوالب قصص « اليوتوبيا ^(١) » ، التي نقلت مباشرة عن « جمهورية » أفلاطون و « قوانينه » . و « اليوتوبيا » التي ألفها السير توماس مور محاكاة عجبية لأفلاطون كانت ثمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بإنجلترا . على أن اليوتوبيا « النابولية » للفيلسوف كامبانلا المسماة « مدينة الشمس » كانت أبعد في آفاق الخيال وأقل ثماراً واقعية .

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهور قدر ضخم ومتزايد من المؤلفات في العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين في حلبة هذه الأبحاث جون لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز ، وعالم من علماء أكسفورد ، وجه عنايته في البداية إلى الكيمياء والطب . على أن مقالاته التي كتبها في موضوعات الحكومة والتسامح والتربية تكشف عن عقل شديد الوعي والإدراك لإمكانات البناء الاجتماعي . وظهر في فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترا ، وإن تأخر عنه قليلاً ، هو منتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ، الذي وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السحرية الذي كان يحلل الملكية المطلقة ، وهو يشارك لوك في فضل إماطة كثير من الأفكار الزائفة التي ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات المتعمدة الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنساني .

وكان الجيل الذي جاء بعده في الحلقات الوسطى والتأخرة من القرن الثامن عشر جريئاً في تأملاته الفكرية في موضوعات التنقية الخلقية والفكرية التي أقام

(١) اليوتوبيا وبسببها العرب « الطوبى » والفارابي « المدينة الفاضلة » : دولة مثالية تتصف نظمها السياسية والدينية والفضائية والاقتصادية بالكمال المطلق .

صروحها ، وراحت طائفة من أذكاء الكتاب ، هي « الموسويون » وكلهم رجل نائر الروح حر النفس متخرج من مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، راحت تضع الخطة لعالم جديد (١٧٦٦) . وإلى جوار الموسويين نهض الاقتصاديون أو الفيزيوقراطيون ، الذين راحوا يمحرون أبحاثاً جريئة وخفة في إنتاج الأطعمة والسلع وتوزيعها ، وطفق مورالي مؤلف « قانون الطبيعة Code de La Nature » يشيد بنظام الملكية الخاصة ، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو البشير الآذن بتلك المدرسة الضخمة المختلفة الفرق والمذاهب من المفكرين الحشديين (الجماعيين Collectivists) في القرن التاسع عشر ، الذين نطلق عليهم جميعاً ودون تمييز اسم الاشتراكيين (Socialists) .

ما هي تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مائة تعريف وتعريف ، كما أن للاشتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن نقد لفكرة الملكية تحت ضوء المصلحة العامة ، وسنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة على مر العصور ، فإنها هي وفكرة الدولية أو الشعبية (Internationalism)^(١) هما الفكرتان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب في الجنس البشري من غريزة المقاتلة ، فقبل أن يكون الإنسان إنساناً حقاً بزمن مديد ، كان جده القرد الأعلى^(٢) يملك الممتلكات ، والامتلاك البدائي يقوم في الشيء الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانات ، فثمة الكلب والعظمة ، والفمرة ووجارها والظبي النافر وسربه ؛ وهي أمثلة للملكية الصارخة ، ولسنا نتصور أن علم الاجتماع به عبارة أتفه ولا أسخف من قولهم « الشيوعية البدائية » ، ذلك أن الرجل العجوز في قبيلة العائلة في أبكر العصور الحجرية القديمة كان يصر على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعاله المرثي المحيط به ، فإذا جاس أى رجل آخر خلال عاله المرثي قاتله ، بل ذبحه إن استطاع .

(١) الدولية مذهب سياسى يدعى أنه قائم على مبدأ الأخوة الشاملة بين الناس ، ولذا ينزع إلى التقليل من أثر فوارق الصالح والأخلاق والنسل (أو تمايزها) التي تقوم بين الأجناس والأمم .
(٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الإنسان لدارون التي سبق أن أشار إليها في الفصول الأولى من الكتاب .
[المترجم]

ونمت القبيلة على كرم المصور كما أجاد التعبير عن ذلك، أتكنسن في كتابه « primal Law » ، بفضل تسامح الرجل العجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان الذين يصغرونه سنًا ، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتي يقتصونهن من خارج القبيلة ، وإزاء الآلات والحلى التي يصنعونها والصيد الذي يتصيدونه ، فكأن المجتمع الإنساني قد نما بسبب التساهل المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك ، وهو تساهل اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرثي المحيط بهم ، فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضى أو أرضك ، فذاك إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كلا منا كان يفضل لو كانت الأرض أرضه هو ، ولكن ذلك شيء لا يمكن أن يكون ، ففي تلك الحالة يدمرنا الآخرون ، ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حدة الملكية ، والامتلاك عند الوحش المتوحش وعند البدائي شيء أشد حدة مما هو في العالم المتمدن اليوم ، فهو أقوى تأصلا في غرائزنا منه في عقولنا .

وليس لدائرة الامتلاك لدى التوحش الطبيعي أو الرجل غير المتعلم في عصرنا هذا أى حدود تحددها ، فكل ما استطعت أن تقاوم من أجله أمكنك أن تملكه ، سواء أكان ذلك امرأة أم أسيراً تبقى على حياته أم بهيمة تقبض عليها أم طريقاً في غابة أم محجراً أم أى شيء آخر ، فلما اتسع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكي يحول دون القتال الفتاك ، فأنتج الإنسان بضع وسائل خفة مرتجلة لتسوية مشكلات الامتلاك ، وبمقتضاها أصبح الرجل يستطيع أن يمتلك أى شيء كان هو أول من صنعه أو أمسكه أو ادعاه لنفسه ، وبات يبدو طبيعياً أن كل مدني لا يستطيع سداد دينه ينبغي أن يصبح ملكاً لدائنه ، ويعادل هذا في بساطته وسمته الطبيعية زعمهم بأن الرجل ينبغي له بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يفرض على كل من شاء استعمالها شيئاً من المال أو العين .

ولم يشرع الإنسان بحس أن تلك الملكية غير المحدودة لأى شيء كانت مثارا للازعاج والمضايقة إلا بغاية البطء والتدرج ، وحين أشرقت عليه تباشير إمكانات الحياة المنظمة ، فوجد الناس يولدون في عالم يملكه كله الضير أو يدعى ملكيته ، وليت الأمر اقتصر على ذلك وحده ١١ .. فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوكة للغير أو يدعى ملكيتها .

ومن العسير علينا الآن أن نتعقب الكفاحات الاجتماعية التي اندلعت في الحضارة الباكرة ، على أن التاريخ الذى رويناه عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعاً يستيقظ على دوى الديون ، ويتنبه إلى أنها قد تصبح مثار الإزعاج والمضايقة للأمة كافة ، ولذا فقد وجب إلغاؤها ونبذها ، وأن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت هى الأخرى تنطوى على المضايقة والإزعاج ، ثم إننا نجد أن بابل حددت بشدة فى أيامها المتأخرة امتلاك الرقيق . وأخيراً نجد فى تعاليم ذلك الثورى العظيم يسوع الناصرى من الهجوم والظمن على الملكية ما لم يحدث من قبل . أليس هو القائل « لأن يلعج الجمل فى سم الحياض أيسر من أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات . » ويلوح أن أجواء العالم فى الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الماضية امتلأت بالنقد الدائم المتواصل للذى الذى يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصرى بتسعة عشر قرناً نجد أجزاء العالم التى مستها تعاليم النصرانية من بعيد أو قريب مقتنعة بأنه لا يجوز للإنسان امتلاك أخيه الإنسان . وثم فكرة أخرى تزلزلت أركانها كثيراً فيما يتعلق بأنواع أخرى من الممتلكات . وهى فكرة أن الإنسان حر يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك .

ولكن ذلك العالم الذى نتحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال من حيث تلك المسائل فى مرحلة الشك والتساؤل والاستفهام . لم يكن قد حصل على شيء بلغ القدر الكافى من الوضوح ، فضلاً عن أن يبلغ القدر الكافى من الثبات والاستقرار ، لى يطمئن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين ما داخله من البواعث الأولى وقاية الملكية من شراهة الملوك وتبديدهم واستغلال النبلاء الفاسدين . لذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيسى إلى حد كبير ، هو وقاية الملكية الخاصة من الضرائب . ولكن مبدأ المساواة الذى اعتنقته تلك الثورة جرفها فى تياره فجعلها تنتقد الملكية التى نهضت لحمايتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين فيما حشود عظيمة منهم لا يملكون أرضاً يعيشون منها ، ولا طعاماً يأكلونه ، كما أن الملاك يأبون — بالبداهة — أن يطعموهم أو يؤوهم ما لم يعملوا ويكدحوا !! واشتدت لذلك شكوى الفقراء .

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا اللغز إلا الشروع فى التقسيم . لقد شاءوا أن يبالغوا فى الملكية ويقووها ، ولكن كانت هناك أيضاً

جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيراً أدق - الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، والذين أرادوا إلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاماً . فارتأوا أن الدولة (ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعاً) تمتلك جمع الممتلكات .

لذا فمن المفارقات العجيبة أن رجالاً متنوعين يهدفون إلى الهدف نفسه من الحرية والسعادة يقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع . ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرماً ، ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً . ومفتاح هذا التناقض العجيب يكمن في أن الامتلاك والملكية ليساً شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة ، وأن أشياء (منها على سبيل المثال جسم الإنسان وأدوات الفنان والسياب وفرشة الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لاسيلى إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالاً عظيماً من الأشياء ، منها مثلاً السكك الحديدية وأنواع مختلفة من المساكن والبيوت والحدائق المزروعة وقوارب الزهرة ، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد المدى والقيود التي تدرج بمقتضاها تحت صنف الملكية الخاصة . وإلى أى حد تقع في الملكية العامة ، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإدارى المقتردر للدولة ، وصيائمه والمحافظة عليه . وهى تفتح أبواب مسائل تدخل في صميم علم النفس الاجتماعى ، كأنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن تعدد الملكية لايزال عملية اختبار هائلة محتدمة أكثر منه علماً له أصول ثابتة . فكان هناك من جهة دعوة مذهب الفردية (Individualists) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراهنة في التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الذين يطالبون بتجميع ملكياتنا في كثير من النواحي وبالحد من تصرفاتنا في ممتلكاتنا . ولو نظرت بعين الفاحص إلى الواقع العملى لوجدت

آلافا من درجات الفوارق التي تفصل بين متطرفة الفرديين ، الذين لا يكادون يطبقون فرض ضريبة من أى نوع لتمويل حكومة من الحكومات ، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكاراً باتاً .

والاشتراكي العادي في هذه الأيام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماعى ، وهو يرضى بقيام قدر جسم من الملكية الخاصة ، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والمناسجم وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية وما إلى ذلك من شئون في يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم . والظاهر لنا فضلاً في هذه الأيام أن كثيراً من الرجال العقول قد أخذوا يتجهون بالتدرج نحو الأخذ باشتراكية معتدلة تقوم على الدراسة العلمية والخطوة المدروسة علمياً . ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكاً أن الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح في الشئون العظيمة ، وأن كل خطوة تخطى في سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكل « وظيفة » تسحبها الدولة من ذوى الجهود الخاصة (Private Enterprise) لتتولاهما بنفسها تقتضى بالضرورة قيام ما يواجهها من التقدم التربوى ، كما تقتضى تنظيم نوع من النقد والضغط والمهيمنة ، وذلك في حين أن كلا من الصعافة الموجودة الآن والوسائل السياسية التي تتبعها الدولة المعاصرة لنا حالياً من الفجاجة والسذاجة بمنزلة كبيرة جداً لاتسع بأى توسيع كبير للنشاط الحشدية .

على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمات التي نشبت بين صاحب العمل والعمال ولاسيما ما كان منها بين صاحب العمل الأثنى والعامل التبرم الغيد ، إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنيف بكل أرجاء العالم ، وهو النوع الذي يرتبط باسم ماركس . وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن عقول الرجال محدودة تمدها احتياجاتهم ولوازمهم الاقتصادية ، وأن هناك تطاحنا في المصالح يقوم في حضارتنا الراهنة بين طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة .

ومن البديهي أن تقدم التعليم الذي استلزمه الانقلاب الميكانيكي لابد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات « وعى طبقى » بل يجعلها تزداد كل يوم صلابة وعنفاً في خصومتها للأقلية الحاكمة ذات « الوعى الطبقي » هي أيضاً . تنبأ ماركس بأن العمال ذوى الوعى الطبقي سيستولون على السلطة بطريقة ما ، ويفتتحون بذلك حالة اجتماعية

جديدة : ولاشك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور مفهومة إلى حد كاف ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أى شئ آخر إلا أن يكون ذلك الشئ حدوث عملية تدمر المجتمع .

حاول ماركس أن يجعل الخصومات الطبقية تحمل محل الخصومات القومية ؛ وأنشأ أنصار مذهبه على التعاقب ثلاث منظمات هى الدولية الأولى والثانية والثالثة . ولكن فى الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك « الدولية » وآرائها بمن طريق نقطة البداية التى تبدأ عندها آراء مذهب الفردية العصرية . ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميث الكتاب الاقتصادى الإنجليزى العظيم ، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء فى العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأى جزء من أجزائه . وأنصار المذهب الفردى بما يظهرون من عداوة للدولة إنما يعادون أيضاً التعريفات الجمركية والحدود السياسية وكل ما يحد حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التحوم القومية . ولعله مما يشوقنا أن نشهد مذهبيين من مذاهب الفكر يتباعدان فى روحهما ذلك التباعد الشديد ، ويختلفان فى المسادة والجوهر ، وأعنى بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات المنسوب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة المنسوبة إلى رجال الأعمال البريطانيين فى عهد الملكة فكتوريا . أقول نشهدهما يتجهان فى النهاية - على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية - نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشئون الإنسانية معالجة عالمية شاملة تتجاوز تخوم كل دولة قائمة حالياً وقيودها . ولاشك أن منطق الحقيقة الواقعة ينتصر دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا بدأنا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين ، ولو أن لها نقط ابتداء متباعدة تباعدا عظيماً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أن يحاولوا العمل معاً على أساسها ، بحث ابتداءً ثانية بأوروبا واشتد ساعده فى نفس الوقت الذى اضمحلت فيه ثقة الناس فى فكرتى الدولة الرومانية المقدسة والمسيحية . وفى نفس الوقت الذى وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجاوز بها عالم البحر المتوسط إلى الدنيا بما رحبت .

على أن مواصلة الحديث فى موضوع تفصيل وتطور فكراتنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسة حتى نصل به إلى ما يدور في أيامنا هذه من أبحاث ومناقشات ، يكون معناه إدخال مشكلات جدلية بالغة تخرج تماماً عن مجال هذا الكتاب وأهدافه، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشهدنا الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمى العام الفسيحة الآفاق ، نشعر بأننا مضطرون أن نعترف أن الذى نرى من إعادة صوغ هذه الفكرات التوجيهية فى العقل البشرى لا يزال شيئاً ناقصاً - حتى لنكاد لانستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشيء عن الكمال . إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتبلور فعلاً ، كما أنها قوية الأثر اليوم فى الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يعوزها حتى الآن شيء من الوضوح وشيء من قوة الإقناع حتى تستطيع أن تضطر الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم يعرفون على الجملة إلى الشيء التقليدى ، على أنها لوقورنت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لبانت لنا بالفعل تباشير معالم نظام جديد لشئون البشر فى طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقطعة تنحى فى هذه النقطة وتلك ، وتغورها التقلبات فى تفاصيلها وصياغة مذهبها ، ومع ذلك فهى لا تبرح تزداد وضوحاً ، كما أن خطوطها الرئيسية لا تفتأ يقل فيها التغير رويداً رويداً .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كر الأيام بشكل أوضح وأنفع ، أن الن البشرية أخذت تصبح مجتمعاً واحداً من نواح عدة ، وفى مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم فى مثل تلك الشئون هيمنة وضبط يشعلان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزدادون كل يوم إدراكاً بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادى واحد ، وأن الاستغلال الصحيح لموارده الطبيعية يتطلب توجيهاً واحداً شاملاً ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر الأهم الذين خولها الاختراع والمخترعات للجهد البشرى يجعلان الإدارة الجزئية المنكوبة بالنازعات والمشاغبات فى مثل تلك الشئون أحفل بالأخطار وأشد تبيداً وإتلافاً لتلك الموارد ، ثم إن وسائل الإصلاح المسالية والتفدية تصبح هى أيضاً موضع اهتمام عالمى عام ولا يمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد اتضح للناس كافة أن الأمراض المعدية وزيادة عدد السكان وهجرتهم من الشئون العالية أيضاً . أما الحرب فإن تزايد قوة النشاط البشرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لا تتناسب فوائدها مع التدمير

والفساد اللذين يترتبان عليهما ، بل لقد أصبحت عديمة الأثر وإن استعملت كوسيلة صمجة قبيحة لتسوية المشكلات الناشئة بين حكومة وأخرى وشعب وآخر ، هذه الأمور جميعا تجار مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالا وأعظم شمولا مما بلغته أى حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء حكومة عليا بشكل ما للعالم كله تقوم على الفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات الموجودة . وقياسا على النظم الموجودة وتمثلا بها ، فكر الناس في إنشاء «برلمان البشرية» وفى (كونجرس) للعالم ، وفى تنصيب رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديى أن يكون رد الفعل الطبيعي الأول للفكرة متجها إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتجربة الآراء والمحاولات فى مدى خسنيين عاما قد أوهنت على الجملة الاعتقاد فى الفكرة الأولى الواضحة ، فإن ما اعترض سبيل تلك الدولة الواحدة العالمية من مقاومات كان عظيما جداً . ويبدو أن الفكرة تتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو المنظمات المخولة سلطة عالية شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أولئك من الشؤون أو القيام بها ، وهى هيئات تهتم بدراسة تبديد الثروة الطبيعية أو تنميتها ، وإيجاد التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم ، وبالسلم العالمى وبمشكلات العملة والسكان والصحة وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكتشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعالج ككل واحد ، على حين يفوته فى نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبلغ الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع مثل تلك التنظيمات الدولية فوق الشبهات والغيريات الوطنية الضيقة ، لابد أن يقتنع عقل البشر عامة بفكرة تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة ، فكرة تعلم وتفهم للناس كاتبة فى كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح الديانات العامة العظيمة عشرة قرون أو تزيد مكافئا مناضلا فى سبيل صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية العامة ولكن الحقد والغضب والتشكك التى تولدت فى الماضى عن النزاعات القبلية والقومية والعنصرية لا تزال تسد السبيل إلى اليوم — بل تسد السبيل تماما وبنجاح تام — أمام انتشار الآراء الروحية والبواعث

السمعة التي تجعل من الرجل منا خادما للبشرية كلها . إن فكرة الأخوة البشرية تكافح الآن للاستيلاء على أرواح البشر ، كما كافحت بالضبط فكرة المسيحية للاستيلاء على روح أوربا في أثناء فترة الارتباك والفوضى التي غشيتها في القرنين السادس والسابع للحقبة المسيحية . ولا بد من أن يتم انتشار مثل تلك الأفكار ونصرها على يد جمهرة ضخمة من المبشرين المخلصين المتواضعين ، وليس في مقدور أى كاتب معاصر أن يدعى العلم بالمدى الذي بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع المحصول الذي يهتبه لنا الآن .

والظاهر أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشكلات الدولية اختلاطا لا سبيل إلى فصله ، كما أن حل كل مشكلة منها ينصرف في الخامس نفس روح الخدمة الإيثارية الذي يستطيع أن يدخل القلب الإنساني ويغلاؤه إلهاما . وإن أرتياب الشعوب وعنادها وأنانيتها لتعكس آثارها بل تعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو المال أو عناده أو أنانيته إزاء الصالح العام ، وغلو الأفراد في روح الملكية يماثل ، بل هو جزء لا يتجزأ من الشرارة الجشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة . وذلك أنها تمار الميول القريزية نفسها ، وتناج نفس الجهالات والتقاليد . والشيوعة الدولية إنما هي اشتراكية الأمم . وما يستطيع إنسان بحث هذه المشكلات أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافي من العمق والقوة أو أن الطرائق والتنظيمات التربوية أخذت حظها الكامل من قوة التخطيط ، بحيث تكفل إيجاد حل حقيقي ونهائي لهذه الألفاظ المعماة المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم . فنحن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية للسلام فعالة الأثر حقا كسكان العالم في ١٨٤٠ من حيث عجزهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربائية . ولكن تلك الفكرة ليست - على الرغم من كل مالدينا من مقدمات - بعيدة التحقيق ، وما يدرينا فلملها قريب قرب الأخرى .

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته ، وما يستطيع فكير أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر ، كما أن من المحال علينا أن نحسد أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيضطرب إلى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأموال والأنفس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشفاء قبل أن يبرع فجر السلام العظيم الذي يبدو أن التاريخ يأكله يتجه صوبه ومشير إليه بالبنان ، سلام يعمر القلب وسلام يعم الدنيا ، - أقول يبرز ذلك الفجر فيضع حدا لحياتنا للبددة للقوى والأنفس والحالية من كل هدف ترمى إليه . وبديى أن ما نقرحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة غجيعة يعوزها النضج .

ذلك أن الأهواء تكتنفها والشبهات تعتورها . أجل إن جهدا عظيما يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء الفكرى ، ولكنه لا يزال ناقصاً . كما أن تصوراتنا للمعنى العام لذلك الأمر تزداد في كل يوم وضوحاً وضبطاً . فهل يحدث ذلك بسرعة أم ببطء ؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه . ولكنها كلما زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها في عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب في قلة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد لا إلى افتقارها إلى الصحة الحقة . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقة واليقين . وربما فاز بتلك القوة فوزاً سريعاً . وعندئذ لا بد وأن يؤدي ذلك الفهم الجلى إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوى .

الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار المخترعات الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر ، كما تبلورت تلك الأفكار نفسها في دستورها . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها ، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت غيرة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضرباً من الحرية ، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عندهم فجيعة بصورة بربرية لا مثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إظهار همه ونشاط في الجهد واهتمام بالمسائل العامة تفوق ما بذله أى شعب معاصره .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقاً أن أمريكا التي تدين أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساساً بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والتلغراف وما إلى ذلك من مستعدات كأنما هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ما حدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأقتذت وحدة أمريكا . وكان الزورق النهري البخاري أول واضع لحجر الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي الدعامة الثانية لها . فلولاهذين الاختراعين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة ، تلك الأمة الضخمة التي تمرقارة بأكلها . ولولاهما لصار انسياح السكان غرباً أبطأ كثيراً ، ولعل انسياحهم هذا لم يكن بمستطيع قط لولاهما تجاوز السهول الوسطى العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار الفعلي من الساحل الشرقى إلى نهر الميسورى حوالى مائتى سنة ، مع أنها مسافة تقل كثيراً عن نصف الطريق بين المحيطين ، وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية الميسورى

المتحدة على الزورق البخارى والتي قامت فى ١٨٢١ . على أن بقية المسافة إلى المحيط الهادى تمت فى بضع عشرات من السنين .

ولو كان فى متناول أيدينا استخدام السينا لأمتعك بعرض خريطة لأمريكا الشمالية عام بعد عام منذ ١٦٠٠ فما بعدها ، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناس الذين كانوا بها ، على أن تمثل كل نقطة مائة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التى يبلغ عدد سكانها مائة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارىء أن التقيط سيظل مائى عام يزحف ببطء على امتداد المناطق الساحلية والياه والأنهار الصالحة للملاحة ، وأنه ينتشر بتدرج أبطأ كثيراً فى ولايتى إنديانا وكنتاكي وغيرهما . ثم يحدث فى زمن ما يقارب ١٨١٠ تغيير مفاجئ ، إذ تنشط الأمور كثيراً فى مجارى الأنهار . وعند ذلك تكاثر النقط وتنتشر . وما ذلك إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهى تقدم سريعاً فوق أراضى كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الارتحال على امتداد الأنهار العظيمة .

ثم تظهر سنة ١٨٣٠ الخطوط السوداء المثلة فى الخرائط للسكك الحديدية ، ومنذ ذلك الحين لا تكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تنطلق مهرولة . فإنها تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضرباً من الرشاشة هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين فجأة تظهر هنا وهناك أول النجوم التى تشير إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمائة ألف من السكان ، وإذا هى فى البداية مدينة أو اثنتان لا تلبث أن تصبح عدداً غفيراً من المدن . وكل منها كمقدمة فى الشبكة النامية للسكة الحديد .

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطوراً لا عهد للناس بمثله فى تاريخ هذا العالم ؛ فإنها حدث من نوع جديد . وما كان من الممكن قبل ذلك نشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه ظهر دون سكك حديدية فلا شك أنه لم يكن محيص من أن يتمزق بدداً قبل عصرنا هذا بزمان طويل . فلو لم يوجد التلفراف أو السكة الحديد لأصبحت إدارة كاليفورنيا من مدينة يمين أسهل كثيراً منها من واشنطن ، على أن هذا العدد الهائل من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب ، بل ظل منسجم

متناسقاً ، بل الواقع الذى لا شك فيه أنهم زادوا انسجاماً وانساقاً . فالرجل الذى يسكن سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو إنجلند قبل يومنا هذا بقرن من الزمان كما أن عملية التمثيل ماضية في طريقها لا يعوقها عائق . فكيان الولايات المتحدة تنسج وتحيك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف ، فتجعل منه على التدرج مجتمعاً هائلاً موحداً ، يتحدث ويفكر ويتصرف في انسجام تام مع نفسه ، ولن يمضى زمن حتى يؤدي الطيران واجبه من المشاركة في هذه العملية .

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقاً لا نظير له في التاريخ . أجل سبقها في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مائة مليون نسمة ، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة ، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا الميزان قبلها شعب واحد بمفرده ، لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد . ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قطراً ، ولكن شتان بين الشيتين ؛ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التى يجرها حصان ، لقد أنشأتها عهود متباينة وظروف متباينة ، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة وتتناولانها بطريقة مختلفة تماماً . فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانات ، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوروبية من الطراز القديم وبين ولايات متحدة تشمل العالم أجمع .

على أن الشعب الأمريكى مر وهو في طريقه إلى هذه العظمة والطمأنينة في مرحلة من مراحل النضال الضيق القاسى . ذلك أن الزورق النهري البخارى وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل المريحة ، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية ، فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق ، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق ، ولم تشر السكك الحديدية والزورق البخارى في البداية إلا لثمره واحدة هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آنفاً التى كان يستتبعها شطراً الولايات المتحدة ، فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل المواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة وإلحاحها : فهل ينبغي أن تسود فكرة الجنوب أو تغلب روح الشمال ؟ . وكان احتمال تقام الطرفين ضعيفاً . ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تزكية الفردية ، أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة ونحو تسلط سادة ذوى وعى طبقى على جماهير سوداء ذليلة .

وكانت كل منطقة جديدة تنتظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم سيل السكائن غرباً ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكي الهائل المتواصل الغماء ، يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين : فهل ينبغي أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيسودها نظام الزراعة الكبيرة والعبد المملوك ؟ ؛ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ ١٨٣٣ لا تقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تثير الرأى العام فى البلاد كلها لإلغائه إلغاء تاماً ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس فى الاتحاد . كانت ولاية تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا مستوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التى تبيع الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فى ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة فى ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب أخذ يطالب آتئذ بإباحة الرق بها وضماها إليه ، وفضلاته ما أراد .

وفى ذلك الحين نفسه أخذ نمو الملاحة فى المحيط وتطورها يجلب من أوروبا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيراً فى سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غرباً مما ترتب عليه تحويل مناطق إيووا ويسكنسن ومينيسوتا وأوريجون وكلها مناطق زراعية شمالية - إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوئ للرق فرصة التفوق فى كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، واثارت نائرة الجنوب الزارع للقطن ، لنمو قوة أنصار حركة إلغاء الرقيق وتهديم مصالحه ، وخشى مغبة هذا التفوق فى الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد ، بل لقد شرع الجنوبيون يحملون بضم المكسيك إليهم فى الجنوب هى وجزائر الهند الغربية ، وإنشاء دولة عظيمة تبيع الرق وتنفصل عن الشمال وتمدد حدودها حتى بنما .

على أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٥ - وهو يدين بمذهب عدم مد حدودها جنوباً - دعا الجنوب إلى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد ، وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوماً بالانفصال ، وتأهبت لحوض غمار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات الميسيسى وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولوريزانا وتكساس ، واجتمع بمدينة منتجمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيساً لولايات الجنوب المؤتلفة ، واعتمد دستوراً يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجبى .

وتصادف أن كان إبراهيم لنكولن رجلاً يمثل تماماً طراز الشعب الجديد الذى ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال . قضى أيامه الأولى يعيش فى غمرة تيار السكان العام المتجه غرباً . ولد بولاية كنتوكى فى ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، فإلى إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة فى مجاهل غابات إنديانا فى أثناء تلك الأيام خشنة مليئة بشظف العيش ؛ ولم يكن المنزل الذى عاش فيه ، إلا كشكا من الكتل الخشبية يقوم فى البرية ؛ كما أنه لم يصب من التعليم إلا قسطاً ضئيلاً ومتقطعاً . ولكن أمه علمته القراءة منذ حداثة ومن ثم أصبح قارئاً منوهماً واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة يهوى المصارعة والعدو . وعمل ردها من الزمن كاتباً بأحد المتاجر ، ثم فتح متجرًا مع شريك سكير ، فوقع فى ربة ديون لم يتيسر له سدادها إلا فى مدى خمسة عشر عاماً . وما لبث أن انتخب فى ١٨٣٤ عضواً فى مجلس النواب عن ولاية إلينوا وهو بعد فى الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج لهيبها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لعزب نشر الرق فى الكونجرس القومى ، كان عضو مجلس الشيوخ عن تلك المقاطعة . وقد أوتى دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لنكولن يضع سنين يحاربه بالخطب والنشرات ، وهو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصمه القوى المكين الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته فى حملة الرئاسة الانتخابية فى ١٨٦٠ ، حيث انتخب لنكولن رئيساً فى ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات العربية .

قاتلت فى هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيوش جندت ارتجالاً ودون سابق تدريب ، وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تهاوى الأمر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ، ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض تمتدين ولاية نيو مكسيكو والمحيط الأطلنطى شرقاً ، وكانت مدينتا واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع القام هنا للحدث عن تضاعف المعركة فى أثناء ذلك الكفاح الرائع الذى كان يتدرج ذهاباً وجيئة عبر التلال والعباب بولايتى تنسى وفرجينيا وينحدر مع نهر المسيسى . كان كفاحاً بددت فيه القوى والثروات وأزهقت فيه الأرواح على نحو رهيب جامع . فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أعقبته دياجى اليأس ، ثم عاد

الرجاء فأثار ثم خيم اليأس مرة ثانية ؛ فيوما تلوح واشنطن كأنما هي في قبضة ولايات الجنوب المؤتلفة أو تكاد ؛ ويوما تكون جيوش الاتحاد متجهة بمحطى حثيثة إلى ريتشموند . وكان جند ولايات الجنوب المؤتلفة يقاتلون تحت إمرة قائد مقتدر عظيم هو الجنرال لي وإن فاقهم الصاليون في العدد والموارد . ولكن قيادة الاتحاد الشمالى كانت أدنى كفاية بكثير ، لذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكانهم آخرون جدد ؛ حتى تم النصر في النهاية تحت قيادة شيرمان وجرات على جيوش الجنوب المهلهلة الثياب المستنزفة الموارد والدماء . ففي أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق ميسرة الجنوب وتقدم من تنسى إلى الساحل غترقا جورجيا ، ومارا عبر بلاد الجنوب وفي صميم أقاليمه ، ثم انحرف شمالا لخلال ولايتى كارولينا الشمالية والجنوبية ، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفي الوقت ذاته كان جرات يشل جيش لي أمام ريتشموند عن كل حركة حتى أبطقت عليه جيوش شيرمان . ولم يلبث لي أن سلم بمحيشه في ٩ من أبريل سنة ١٨٦٥ قرب أبوماتكس كورت هاوس ، ولم ينقض شهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها ، وانتهت دولة الجنوب .

أجهد هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات شعب الولايات المتحدة إجهادا ماديا ومعنويا وخلقيا هائلا ، ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محببا لدى أنفس كثيرة ، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب في الواقع على إلغاء الرق إرغاما . ولقد بلغ الأمر بالناس في الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين ، أن كان الإخوة وأبناء العمومة ؛ بل الآباء وأبناءؤهم ، يناحزون إلى شيع متضادة ويحدون أنفسهم يتقاتلون في جيوش متعادية ، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل ، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدعو إليه من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرا من العيب أو فوق التجريح والتعدي . ولكن لنكون لم يساوره أى شك ، فإنه ظل محتفظا بصفاء ذهنه على الرغم من تلك البلبلة الشديدة ، وكان يؤمن بالاتحاد ويقف مدافعا دونه ، وكان يناصر السلام الشامل لأمریکا ، وكان عدوا للرق ، وإن عد الرق مسألة ثانوية ؛ أما هدفه الأول فهو ألا تتمزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين متباينين ومتناحرين .

ولما شرع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون في أثناء المراحل الأولى للحرب في التسرع في فك رقاب الرقيق اعترض عليهم لنكونلن وخفف من غلواء حماسهم . ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم، فلم يتلور الموقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتعويضات إلا في يناير سنة ١٨٦٥، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينا الحرب تجر ساقها مثاقلة في ١٨٦٢، ١٨٦٣، خذت ثائرة الانقلابات الأولى والحساسات الأولى، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التبرم بالحرب والاشتمزاز منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خونة ودعاة هزيمة وقوادا معزولين وسياسيين حزبيين ملتون ، كما لم يجد خلفه إلا شعباً متشككاً متعباً ، ولا أمامه إلا قواداً أغبياء وجنوداً مبتئين ، ولسنا نشك أن عزاءه الوحيد في تلك الملة كان شعوره بأن دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالاً . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم ومحت لوكلاء الجنوب بالهجرة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصنة في المحيط ، وأن يزودوها بالرجال - وأشهرها هي الألباما - فكانت تعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار . وذلك على حيت راح الجيش الفرنسي بالمكسيك يمرغ في الوحل مذهب مونرو . وتواردت على الرئيس مقترحات قائمة بإيقاف الحرب ، وترك نتائجها لمناقشات تجري فيها بعد ، والاتقاض بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك ، ولكنه أبى أن يصفى إلى مثل تلك المقترحات ما لم تصبح كلة الاتحاد وسلطته هي العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هذه الأعمال كشعب واحد لا كشعبين منفصلين .

لقد ظل لنكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهوراً طويلة مضية حفلت بالهزائم والجهد عديم الجدوى وفي مراحل قائمة من الفرقة والالتقام وخور العزيمة ، وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوماً عن هدفه . ومرت عليه فترات لم يكن يجد في أثناءها شيئاً يعمل به ، فترات كان يجلس في أثناءها في البيت الأبيض صامتاً لا يتحرك ، كأنه تمثال صادم متجهم للعزيمة والتصميم ؛ وجاءت عليه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بالمزاح والفكاهة المكشوفة .

ولقد فاز لنكولن بما اشتهى ، فإن نضال الاتحاد قد تكمل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعد تسليمها يوم واحد ، ومع بتسلم الجنرال لى . ثم عاد إلى واشنطن ، وألقى آخر خطبة عامة له يوم ١١ من أبريل . وكان مذهبه الذي يدين به هو

الصلح وإعادة تكوين الحكومات الموالية في الولايات النهرية ، وذهب في مساء ١٤ من أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه مثل اسمه بوث وجرحه جرحاً قاتلاً ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فتسلل إلى اللوج دون أن يراه أحد . ولكن لسكولن كان قد أدى ما عليه ، وتم إنقاذ الاتحاد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدي يمتد إلى ساحل المحيط الهادى ؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو ، وإذا هي حتى اليوم تقبض على أراضي الولايات المتحدة الشاسعة المترامية وتضمها بعضها إلى بعض وتنسجها وحدة عقلية ومادية لاسبيل إلى حلها . هي أعظم مجتمع حقيقى في العالم ، حتى يحىء الوقت الذى يتعلم فيه عامة الصين القراءة .

الفصل الحادى وستون

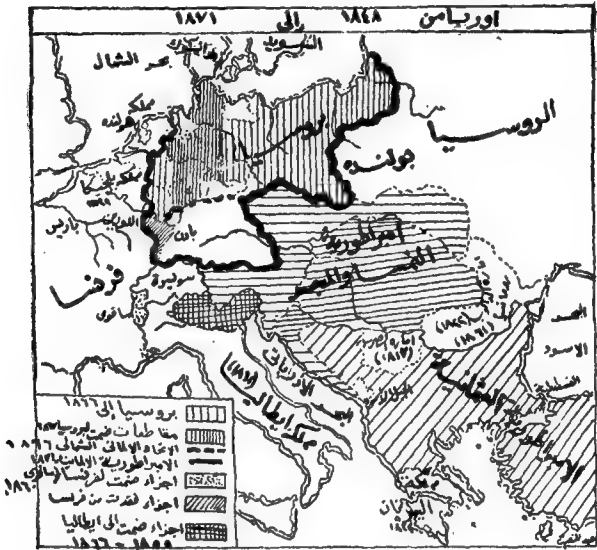
ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعد الهزات العنيفة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومغامرات نابليون أن استسلمت أوروبا من جديد لفترة سلام يسودها القلق والاضطراب وإن شملتها الظروف السياسية التى كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما ؛ ولكن فى صورة مجددة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة فى معالجة الصلب ولا للسكة الحديدية أو الباخرة . على أن التوتر الاجتماعى الناجم عن نمو الصناعة فى المدن سار أشواطاً . وظلت فرنسا قطرا بادية القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى فى ١٨٤٨ . ثم تبوأ نابليون الثالث - وهو ابن أخ لنابليون الأول - رئاسة الجمهورية أولا ، وأعلن نفسه إمبراطورا فى ١٨٥٢ .

ثم شرع من فوره فى إعادة تشييد باريس ، وحولها من مدينة جميلة غير محمية من مدن القرن السابع عشر ، إلى للمدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية البانى التى نشهدها اليوم . وشرع من فوره فى إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطابع العصرى الشرقى . وأبدى شيئاً من الميل إلى بعث روح المنافسة بين الدول الكبرى ، التى ظلت تشغل أوروبا تماماً بحروب غير مجددة فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . وانخذ نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٦) نفس النزعات العدوانية وأخذ يضغط جنوباً على الإمبراطورية التركية وقد شخص بصره إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت فى أوروبا دورة جديدة من الحروب . وكلها فى الغالب حروب غايتها الرفعة وتوازن القوى ؛ فهاجمت إنجلترا وفرنسا ومملكة سردينيا دولة الروس فى بلاد القرم دفاعاً عن تركيا ، وتقاتلت على زعامة ألمانيا كل من بروسيا (ومعها إيطاليا كخليفة) والنمسا ، وحررت فرنسا شمال إيطاليا من ربقة النمسا وقبضت مقاطعة سافوى ثمناً لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدريج فى نطاق مملكة واحدة . وعندئذ هجس نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح

للكسيك في أثناء الحرب الأهلية في أمريكا؛ فنصب فيها إمبراطوراً هو مكسمليان، ثم بادر بالتخلي عنه وتركه يواجه القادير بمفرده، وما لبث أهل الكسيك أن أعدموه رمياً بالرصاص، بمجرد أن كثرت عن أنيابها حكومات الولايات المتحدة للتصرة في معركة الاتحاد



خريطة (رقم ١٨)

وفي ١٨٧٠ نشب بين فرنسا وبروسيا صراع على السيادة في أوروبا بعد أن ظل يهدد بالانتحار أمداً طويلاً. وقد تسكنت بروسيا بذلك الكفاح منذ زمن بعيد، بينما كان الفساد المالي ينخر في أحشاء فرنسا داخلياً. ولذا كانت هزيمتها سريعة شديدة أخاذة. وغزا الألمان فرنسا في أغسطس، فسلم جيش فرنسي كبير بقيادة الإمبراطور نفسه دون قيد أو شرط قرب سيدان في سبتمبر، ثم سلم آخر في شهر أكتوبر عند Metz، وسقطت باريس في أيدي الألمان (يناير ١٨٧١) بعد أن حوصرت وضربت بالدافع.

ووقع الصلح بمدينة فرنكفورت ، وبه نزلت فرنسا عن مقاطعتي الألزاس واللورين للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا في إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ، إمبراطورا لألمانيا ، فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرًا جديدًا !

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة في قارة أوروبا . ونشبت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) ، ولكن الحدود الأوربية ظلت ثابتة بصورة قلقة طوال ثلاثين السنة التالية ، لم يداخلها في أثناءها إلا تعديلات بسيطة بمنطقة البلقان .

الفصل الثاني واستون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمزق إمبراطوريات وتحطم أحلام لدعاة التوسع . ذلك أن الرحلة الطويلة المضيئة من بريطانيا وإسبانيا إلى مستعمراتها بأمريكا تحول دون الرواح والعدو الحربيين الوطن الأم وبناته المستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديدة منفصلة متميزة ، لها أفكارها المتميزة ومصالحها بل حتى طرائقها الخاصة في النطق والتعبير . وكانت كلأمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تتعلق محطات تجارية ضعيفة تقوم في مجاهل البرية (كالتي كانت لفرنسا بكندا) أو مؤسسات تجارية بين ظهرائي مجتمعات غربية كبيرة (كالتي كانت لبريطانيا ببلاد الهند) تتعلق في سبيل البقاء البحث بالأمة التي أمدتها بالعون ومنحتها مبرور وجودها . ذلك وحده ولاشئ غيره كان فيما يخيل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار . وما وافق ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوربية الكبيرة غير المنتظمة الحدود ، التي كانت تبدو بارزة الضخامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، ولم ينبج من هذا الصير إلا الإمبراطورية الروسية التي ظلت تزحف عبر آسيا محتفظة دائماً بضخامتها وأكثر .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تسكون في ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان ونواحيها المحيطة بالأنهار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البرارى كان كل ما فيها من المستقرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن ثلث شبه جزيرة الهند ، الذي تحكمه شركة الهند الشرقية ، والناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التي كان يسكنها السود وبعض المستقرين الهولنديين ذوى النفوس المتمردة ، ثم بضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقاء ، بجزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، كما كان لها عدا ذلك مستودعان للمجبرين يقومان في آخر أطراف العالم عند خليج يوتاني بأستراليا وجزيرة تنسانيا . أما إسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا وبضع مستقرات بجزائر الفلبين ، على حين تبقى للبرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعى ملكيته قديماً .

أما هولندا فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية ، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية ، وكأما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوروبية ، أو الذي يحتمل ان تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم . ولم يكن ثم أحد يبدى روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية .

وبينا كانت أوروبا مثبكة في حروب نابليون ، كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند براسة جمهرة متعاقبة من المديرين الدور ذاته الذي لعبه بتلك البلاد من قبل التركمان ومن شابههم من غزاة شماليين . وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا ، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الآسيوية ، كأما هي دولة شبه مستقلة . ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب .

ولا يتسع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تمشق طريقها نحو السيادة ، بأن تكون تارة حليفا لهذه الدولة وتارة أخرى حليفا لتلك ، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع . امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم السند وأوده ، بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية المألوفة لتلايد المدارس عندنا اليوم ، فهي خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر .

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩ ، بعد تمرد خطير قام به الجند الوطنيون بالهند . وبمقتضى قانون صدر بعنوان « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح المدير العام نائباً للملك يمثل العاهل صاحب التاج ، وحل محل الشركة وزير للهند ، مسئول أمام البرلمان البريطاني ، ورغبة في

الوصول بالأمر إلى غايته الطبيعية ، حمل اللورد ييكونزفيلد الملكة فيكتوريا في سنة ١٨٧٧ على الندادة بنفسها إمبراطورة الهند .

والهند وبريطانيا ترتبطان في الوقت الحاضر على هذه الأسس العجيبة الخارقة^(١). ذلك أن الهند لا تزال إمبراطورية « الغولى العظيم » ، ولكن الغولى العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . فالهند دولة حكم مطلق ليس بها عاهل مطلق . فحكمها يجمع بين مساواة الملكية المطلقة وبين مال الموظفين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمت إلى النواحي الشخصية بأية علاقة ، فالهندي الذي له ظلامة لا يجد أمامه عاهلا يلجأ إليه ، فما إمبراطوره إلا رمز من ذهب ، لذا لم يكن أمامه مفر من إذاعة النشرات بإنجلترا أو الإيحاء إلى النواب بإلقاء سؤال بمجلس العموم البريطاني . وكلما زاد البرلمان انشغالا بالشئون البريطانية قل مانلقاه الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وفيما عدا الهند لم تيسر لأية إمبراطورية أوربية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها . وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين ببريطانيا تميل إلى اعتبار الملكات وراء البحار مصدرا لضعف الدولة لاقوتها . ونمت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنحاس في سنة ١٨٤٢ ، وأخرى للذهب في سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة ، كما أن تحسن وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصريف المتزايد في الأسواق الأوربية . هذا إلى أن كندا لم تصب تقدما ملحوظا إلا في عام ١٨٤٩ إذ كانت تمزق كلمتها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، لذا حدثت بهاعدة ثورات خطيرة ، فلم يخفف من متاعبها الداخلية في النهاية إلا صدور دستور جديد في سنة ١٨٦٧ أنشأ دومنيون كندا الاتحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبة الفضل في تغير مستقبل كندا ، فإنها مكنتها - مثلما مكنت من قبلها الولايات المتحدة - من التوسع غربا ، ومن بيع قمحها وغيره من المنتجات في أوربا ، كما مكنتها على الرغم من نموها السريع الترامى من أن تظل مجتمعا واحدا تجمعها اللغة والعاطفة والمصلحة

(١) استقلت الهند في عام ١٩٤٧ وإن ظلت عضوا في الكومنولث (أى مجموعة الأمم البريطانية) ثم أعلنت بها الجمهورية [المترجم]

المشركة ، والواقع الذى لا شك فيه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية وأسلاك التلغراف البحرى كانت تغير تماما جميع أحوال التطور الاستعمارى .

وكانت للإنجليز مستقرات بحزيرة نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة لأراضى نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث نيوزيلندة أن ألحقت هى أيضا فى سنة ١٨٤٠ بالملكيات الاستعمارية للتاج البريطانى .

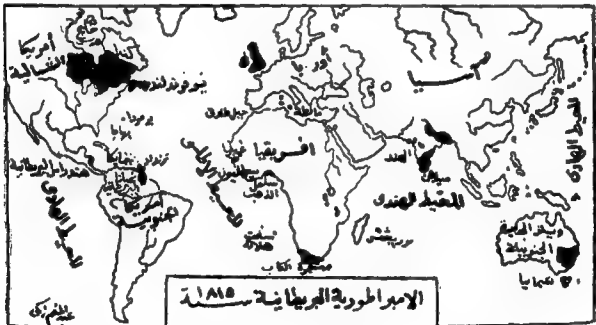
وكانت كندا كما ذكرنا آنفاً أول الملكيات البريطانية التى استعاجت بقوة للإمكانات الاقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية خاصة منها جمهورية الأرجنتين ، تنشر من حيث تجارة المواشى واللحوم وزراعة البن ، بزيادة قرب السوق الأوربية ، وإلى ذلك العین كانت أهم السلع التى تجتذب دول أوروبا إلى اقتحام المناطق الممجة غير الآهلة بالسكان ، هى الذهب أو غيره من المعادن أو التوابل والأفاوية أو العاج أو العبد ، ولكن زيادة السكان بأوروبا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تغير الحكومات على البحث فى الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس عالية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة ، كالشعوم والزيوت من جميع الأنصاف والمطاط ومواد أخرى كان يغفل شأنها قبل الآن ، وكان جليا للعيان أن بريطانيا العظمى وهولندة والبرتغال كانت تنحى ثمارا وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سيطرتها الكبيرة على منتجات الأقاليم العارة ، ثم شرعت ألمانيا بعد عام ١٨٧١ ومن ورائها على الفور فرنسا وإيطاليا فيما بعد ، تشخص بصرها باحثة عن مناطق للمواد الخام لم يضها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع المصرى بها بصورة مشمرة ومربحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينبع منه إلا أمريكا التى وقف فيها مبدأ مونرو آنذاك حائلا دون مثل تلك الغامرات الباحثة عن أرض لا تنجد من يحجمها سياسيا .

وكانت إفريقية أقرب الفارات إلى أوروبا ، وهى مليئة بالإمكانات التى يكتنفها الغموض والإبهام . كانت فى ١٨٥٠ بلداً تحيط به الأسرار القائمة السوداء ؛ فلم يكن معروفا من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، ويضيق القام هنا عن قصة موجز تاريخ العالم

السكشفين والفايرين المدهشة الذين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك المجهل الإفريقية، وعن ذكر العملاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين مالوا أن ساروا في إثرهم . وبفضل ارتياد إفريقية رفع اللثام عن أجناس بشرية مدهشة كالأنفازام مثلاً ، وعن حيوانات عجيبة كالأوكابي ، وعن فواكه وأزهار وحشرات بديمة ، وأمراض فظيعة ، ومناظر أخاذة للغابات والجبال ، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة ومساقط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند زمبابو) بقايا حضارة بائدة لم يسجلها التاريخ ، هي آثار صغارة اتجهت جنوباً لشعب قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد وفد الأوروبيون ، ووجدوا البندقية به في أيدي تجار الرقيق العرب ، كما وجدوا حياة الزوج في اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاماً وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقية كلها قد رسمت خريطتها وارتدت مجاهلها وقدرت قيمتها وقسمت بين الدول الأوربية ، ولم يبق أحد في أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن النحاس العربي لم يطرد من الميدان فقط بل أيدى تماماً ، ولكن الجشع والشراسة على المطاط الذي كان محصولاً برأى يجمعه الأهالي قسراً في إقليم الكونغو البلجيكي ، وهو جشع تفاقم شره بسبب الاصطدامات التي نشبت بين الحكام الأوربيين غير ذوي الخبرة وبين الأهالي ، أفضى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع ، ولا تستطيع دولة أوربية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماماً من آثام تلك العقبة .



(خريطة رقم ١٩)

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها على الرغم من أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوشك هذا التخاطف على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول الكولونيل مارشاند في فاشوده ، أن يستولى على النيل الأعلى في أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولن يتيسر لنا أيضاً أن نحدد كيف سمحت الحكومة البريطانية أولاً للبور أي للمستوطنين الهولنديين بمنطقتي نهر الأورنج والزنسفال ، أن ينشؤا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقية الداخلية ، ثم عادت فندمت على ما فعلت وضمت جمهوريات الزنسفال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بور الزنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماجوبا في ١٨٨١ . وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالفصة في حلق الشعب البريطاني أو القرحة في ذاكرته . لذا لم تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حربا دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطاني نفقات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلاً . إذ لم يلبث حزب الأحرار البريطاني في ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية التي قهرتها ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب إفريقية ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناتال في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتي جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني .

تم تقسيم إفريقية في ربع قرن . وبقيت هناك ثلاث دول صغيرة نسياً حافظت على استقلالها . هي ليريا وهي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقية الغربي ، ومراكش التي يحكمها سلطان مسلم ، وبلاد الحبشة ، وهي قطر همجي يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب ، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإنقاذه من عادية إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦ .

الفضل الثالث واسترق

العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عددًا ضخمًا من الناس قد قبل حقًا هذا التقسيم الأرعن للسرور لإفريقية بوصفه تسوية دائمة جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس قبلوه على ذلك الوصف . لم يكن للعقل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا نصيب ضئيل من العلم بالتاريخ ، كما أنه لم يكون لنفسه حقًا آنذاك عادة النقد النفاذ . ولا يغرب عن البال أن المزاي المؤقتة البعثة التي أتاحها الانقلاب الميكانيكي لبلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم ، كانت شيئاً يعده كل من يجهل جهلاً مطبقاً أحداثاً كبيرة كفتوح المغول وآيات تشهد بأن الأوربيين يزعمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان ، فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان نقل العلم واقتباس ثمراته . وكأنهم لم يدركوا أن الصينى أو الهندى كان يستطيع أن يتناول يديه مشعل البحث العلمى بنفس مقدرة الفرنسى أو الإنجليزى تماماً . وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعاً فكرياً فطر عليه ، وأن الشرق جيل على شئ فطرى من التكاسل والمحافظة على القديم ، وأن هذه حال تضمن للأوربي السيادة العالمية إلى أبد الأبدى .

وكانت عاقبة ذلك التهوس الجنونى أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوروبا لم تكشف فقط بالتسابق مع البريطانيين طلباً للمناطق المتأخرة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تقتطع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان كما لم يكن أولئك الأهليون أيضاً إلا مواد خاما للاستثمار والاستغلال . ومن البدهى أن استعمار الطبقة البريطانية الحاكمة لبلاد الهند ، ذلك الاستعمار للزعزع الأركان في باطنه وواقع حقيقته والفاخر في ظاهره ، وأن تمتلك المولنديين للترامية الأطراف الكثيرة الأرباح والثروات بجزر الهند الشرقية كانت تملأ الدول الكبرى المنافسة لهما بأحلام أعجاب مشابهة لهذه لبلاد فارس ، وبالإمبراطورية العثمانية التي شرعت تتفكك ، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا في ١٨٩٨ على كياوتشاو بأرض الصين ، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على واي هاى واي . ومالبث الروس أن استولوا في السنة التالية على بورت آرثر . وانبثت في الصين روح الكراهية للأوروبيين . وقاموا بكثير من المذابح أعمالوا فيها أيديهم في الأوروبيين وفي الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، كما هاجموا في ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية في بيكين وحاصروها . وأرسلت إلى بيكين حملة تأديبية لدول أوربية مختلفة ، فقامت بإيقاد السفارات وسرقت قدرا هائلا من الممتلكات الثمينة والتحف . وعند ذلك استولى الروس على منشوريا كما اجتاحت البريطانيون بلاد التبت في ١٩٠٤ .

هناك ظهرت في ميدان الكفاح بين الدول العظمى قوة جديدة هي اليابان ، ولم تلعب اليابان حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً في تاريخنا هذا ؛ ذلك أن حضارتها المنعزلة لم تضرب بسهم كبير جداً في الصياغة العامة لمصائر البشرية ؛ فهي قد تلقت الشيء الكثير ولم تعط إلا القليل . والشعب الياباني الحقيقي ينتمى إلى الجنس الفولوى . ومحاضرتهم وكتاباتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين — ولكن تاريخهم مجمع « ورومانسى » ؛ فقد تطور بينهم في أثناء القرون الأولى للحقبة المسيحية نظام إقطاع وفروسية ، ولا إخال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشرقى لحروب الإنجليز بفرنسا . وقد أرغمت اليابان على الاتصال بأوروبا لأول مرة في القرن السادس عشر ؛ ثم وصل إليها في ١٥٤٢ بعض البرتغاليين قادمين في سفينة صينية ، ثم نزلها في ١٥٤٩ مبشر حيزوتى ، هو فرانسيس زافير الذى بدأ يبشر الناس هناك . وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوروبيين ودحا من الزمن ، تهيأ للبشرى المسيحية في أثناءه أن يضموا إلى عقيدتهم عدداً كبيراً من الأهالى . وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشاراً لليابانيين وموضع تقهم أكثر من الأوروبيين جميعاً ، فأراهم كيف يصنعون السفن الكبيرة . ومن ثم قام اليابانيون على سفن بنيت في بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيروت ، ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومنيك الإسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستنت الإنجليز والمولنديين ، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطماع الآخرين وخططهم السياسية . وحظى الجزويت يوماً بدور من أدوار الرقة والعزة ، فأخذوا ينحون في أثناءه على البوذيين بالاضطهاد القليظ والإهانات الجارحة ، وأخيراً اقنع اليابانيون أن الأوروبيين مصدر تكدير لهم لاسبيل إلى الصبر عليه ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستار تستتر وراءه أطماع البابا السياسية وأحلام ملوك إسبانيا

(الذين كانوا يملكون آفا جزائر الفيلين) فأنزلوا بالمسيحيين اضطهادا عظيما ، ثم أنفلوا أبواب اليابان في ١٦٣٨ إقبالا تاما في وجه الأوربيين ، فظلت كذلك ما يربو على مائتي سنة . واضططت صلة اليابانيين في أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العالم تاما حتى لكأنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض ، إذ حرم عليهم بناء أية سفينة يكبر حجمها عن حجم زورق الانتقال الساحلي . وحظر على اليابانيين مغادرة البلاد إلى الخارج ، ومنع الأوربيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين بمعزل عن مجرى التاريخ الرئيسى وواصلت العيش في ظل إقطاع جذاب ، كانت خمسة في المائة من السكان في أثناءها هي الساموراي ، أى المقاتلة ومعهم النبلاء وعائلاتهم ، تحكم بقية السكان حكما جائرا مطلقا ضابط له ولا حدود . حدث ذلك كله والعالم الخارجى الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائه وفلك قواه . فنكاثرت السفن المعبية الشكل التى تمر بجوار الروس الأرضية اليابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم أحيانا ويحلب نوتيتها إلى الشاطئ ، ثم جاءهم النذر عن طريق المستوطنة الهولندية القائمة على جزائر ديشيا ، وهى همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى - أن اليابان لم تكن تسير ركب القوة فى العالم الغربى . وأقبلت فى ١٨٣٧ سفينة دخلت خليج بيدو رافعة علما عجيبا من نجوم وشقق ملونة ، وقد حملت بعض الملاحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا فى المحيط الهادى . وعندئذ أطلقت الدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاد هذا العلم إلى الظهور ثانية يرفرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جاءت فى ١٨٤٩ للمطالبة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا تحطمت سفينتهم باليابان . ثم جاءت فى ١٨٥٣ أربع سفن حربية أمريكية بقيادة قائد الأسطول برى Perry ورفضت أن تنسحب ، فألقى القائد مراسيه فى المياه المحرمة على الأجانب ، وأرسل رسله إلى الحاكمين اللذين كانا يشتركان وقتئذ فى حكم اليابان . ثم عاد فى ١٨٥٤ بشرة سفن ، سفن ضخام مذهلة يدفعها البخار وقد زودت بالدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاتصال بالخارج ، لم يسع اليابانيين إلا قبولها . ونزل القائد إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمائة رجل لكي يوقع المعاهدة . ووقفت الجماهير وهى لا تكاد تصدق أعينها تشهد هؤلاء الزوار الوافدين من العالم الخارجى ، وهم يحترقون شوارع مدينتهم .

وما لبثت روسيا وبريطانيا أن حدثا حذو أمريكا . ورأى نيل عظيم كانت أملاكه تطل على مضيق شيمونوسكى أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية ، فجاءت

حمارة حربية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته وهددت فشل جنده المقاتلين بالسيف ، وأخيراً جاء أسطول هؤلاء الحلفاء في ١٨٩٥ ، فألقى مراسيه خارج كيوتو وفرض على اليابان تعديلاً للمعاهدات اضطرها إلى فتح أبوابها على مصاريحها للعالم .

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد . فهبوا بهمة وذكاء مدهش يعملون على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في تاريخ العالم بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة الموهلة التي خطتها عند ذاك اليابان : كانت في ١٨٩٩ شعباً يعيش في القرون الوسطى ، وبمثل صورة هنزية خيالية لأحد أنواع الإقطاع « الرومانسي » تطرفا ، على أن شعبها أصبح في ١٨٩٩ مصطبغاً تماماً بالطابع الغربي ، ويعيش على مستوى أرقى الدول الغربية تقدماً ، فهددت تماماً بذلك اقتناع الناس بأن آسيا كانت تتأخر عن أوروبا تأخراً لامرده ولا رجاء في إصلاحه . وجعلت كل تقدم أحرزته أوروبا يبدو بالموازنة بطيئاً متوانياً .

ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ — ١٨٩٥ . وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي . إذ دلت على أن لها جيشاً قادراً ذا نظام غربي ، وأسطولا صغيراً ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومغزائها وإن لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتين شرعتا آنفاً تماماً تماثلها كدولة أوروبية ، إلا أن تلك الدلالة لم تفهما الدول الكبرى الأخرى المشغلة في البحث عن « هند » جديدة . بقارة آسيا . ذلك أن روسيا كانت تتقدم جنوباً خلال منشوريا إلى شبه جزيرة كوريا ، وأن فرنسا قد وطدت أقدامها آنفاً بمنطق تونكين وأنام ، على حين راحت ألمانيا ترهب كالدثب الجائع باحثة عن مستعمرة لها . واجتمعت الدول الثلاث على منع اليابان من اجتناء أية ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منهكة القوى من جراء تلك الحرب ، كما أن الدول الثلاث هددتها بالحرب .

وخضعت اليابان إلى وحين وأخذت تجمع قواها . فلم تنقض عشرين سنوات حتى أصبحت على أهبة الاستعداد للحرب مع روسيا ، وهي حرب تؤذن بحقبة جديدة في تاريخ آسيا أي بانتهاء فترة الصلف الأوربي . ولا شك أن الشعب الروس كان بطبيعة الحال جاهلاً بكل تفاصيل تلك المتاعب التي كانت تدبر له في الصف الآخر من العالم وهو منها براء ، كما أن العقلاء من ساسة روسيا كانوا يعارضون هذه الفتوح والمهجمات الحفقاء ، ولكن

القيصر كان يحيط به جمع من المعاصرين للاليين ، فهم الفرانديون أبناء عمومته .
وكانوا قد غرقوا إلى أذقانهم في مقاماتهم التي أزمعوا بها نهب نفائس منشوريا والصين ،
فلم يعودوا يطبقون الانسحاب من هذا الميدان ، ولذا أخذت اليابان في نقل جيوشها عبر
البحر إلى كوريا ، كما شرعت روسيا في إرسال مئات القطارات المحملة بالفلاحين
الروس عبر سكة حديد سيبريا لكي يموتوا في تلك الميادين الحربية القاصية

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم وعدم الزاهاة في إمداداتهم . وأقلع الأسطول
الروسي يبحر البلطيق حول إفريقيا لكي يدمره اليابانيون عن آخره بمضيق تسوشيا .
ونار العامة في روسيا وقد أغضبهم إلى أقصى حد هذه الذبحة القاصية التي نزلت بأبنائهم
بتلك البلاد القاصية دون مبرر . فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب في ١٩٠٥ . فأعاد إلى
اليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين الذي استولت عليه روسيا في ١٨٧٥ ،
وتخلّى عن منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان ، لقد أقبلت نهاية اجتياح أوربا لآسيا
وأخذت أوربا توقف كل محاولة لها أرادت بها في الماضي هجم عود تلك القارة أو سبر
أغوارها .

الفصل الرابع واستون

الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلاحظ هنا في شيء من الإيجاز اختلاف طبيعة الأجزاء التي تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ التي أتاحت السفينة البخارية والسكك الحديدية ضم أجزائها بعضها إلى بعض . كانت ولا تزال خليطاً سياسياً فريداً في بابه تماماً ؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلاً .

ومركز تلك المجموعة كلها وأول دولة فيها هي الجمهورية للتوجة السماة بالملكة البريطانية المتحدة ، التي تحتوى أيضاً على إيرلندة (ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الإيرلندي^(١)) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني المكون من البرلمانات المتحدة الثلاثة في إنجلترا (وويلز) واستكتلندة وإرلندة ، هي التي تعين رئيس الوزارة ونوعها . سياستها ، وتحدد ذلك بناء على اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية ، فهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة ، ولها سلطات إعلان الحرب وعقد الصلح في كل أرجاء الإمبراطورية .

وبلى الولايات البريطانية في ترتيب الأهمية السياسية الجمهوريات المتوجة بأستراليا وكندا ونيوفاوندلاند (وهي أقدم للممتلكات البريطانية ١٥٨٣) ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها مستقلة فعلاً كما أنها دول تحكم نفسها بنفسها في تحالف مع بريطانيا العظمى ، ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة المترتبة في دست الحكم .

وبعد ذلك تجيء الإمبراطورية الهندية وهي صورة مكبرة لإمبراطورية المغولي الأعظم ، وقد أصبحت الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحميات ، تمتد من بلوخستان إلى بورما وتضم كذلك محمية عدن ، وفي تلك الإمبراطورية الضخمة يلبس التاج البريطاني ووزارة الهند (تحت رقابة البرلمان) دور الأسرة التركانية القديمة .

(١) قد تغيرت هذه الحال الآن بالنسبة لإيرلندة فأعلنت جمهورية مستقلة وأصبح لها برلمان خاص .

ثم نجى مصر ذات المركز الغامض التى لا تزال إسمياً جزءاً أمن الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بها لهم الخاص وهو الخديوى ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين ذلك الحكم الذى يكاد يكون استبدادياً .

ثم ولاية السودان المصرى الإنجليزى الذى هو فى حال أشد غموضاً ، والذى يحتله ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية) . ثم إن هناك عدداً من المجتمعات المستعنة بالحكم الداى إلى حد ما ، منها ماهو إنجليزى الأصل ومنها ما ليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والهيئات التنفيذية المعينة بأوامر ومراسيم ، مثل مالطة وجايكا وجزائر بهاما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التى قد يقرب فيها حكم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادى المطلق كما هو الشأن فى سيلان وتريديداد وفيجي (التى كان لها مجلس معين) وجبل طارق وسنت هيلانة (اللتين لهما حاكم) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية (بوجه خاص) وهى أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضعيفة سياسياً ومتأخرة حضارياً ، وكلها بحميات إسمية ، يديرها مندوب سام يعين فوق حكام من الأهالى ؛ (شأن باسوتولاند) أو فوق شركة تستمتع بمرسوم ملكى (كما هو الحال فى روديسيا) . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات ووزارة المستعمرات فى بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحياناً ، هى التى عملت على الحصول على تلك الممتلكات التى تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى يعد من حيث المركز أدنى الممتلكات شأنًا وتحديدًا ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها فى معظم الحالات .

لعله قد اتضح الآن مما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تفرد لإدراكها عقل واحد ، فهى خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فلذات تراكت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماماً عن كل شئ حمل اسم الإمبراطورية قبلاً ، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن متسعى الرقعة ؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها - على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم كفاية ، وعلى الرغم مما تجلى فى جمهورها ببريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية للأمانة المنوطة بعنفه . والإمبراطورية البريطانية تمتد أملاكها وراء البحار شأن الإمبراطورية

الأيثية ؟ فطرقها طرق بحرية ، كما أن همزة الوصل بين أطرافها هي الأسطول البريطاني ، فإن تماسكها ككسل الإمبراطوريات يعتمد كل الاعتماد على وسائل المواصلات ؟ وقد أدى تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر إلى إمكان قيام سلم مناسب على يديها هو السلم البريطاني « Pax Britannica » ، كما أن ظهور تطورات جديدة في وسائل النقل الجوي أو البري السريع ربما أفضت في أية لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك المزية وجعلها غير مناسبة .

افضل النجاس استون

عصر التسليح في أوروبا والحرب العظمى

١٩١٤ — ١٩١٨

إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذي تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التي تعتمد على الزورق البخارى وسكة الحديد ، وتمخض عن قيام الإمبراطورية البريطانية المقلقة والقائمة على الباخرة ، وامتدادها في كل أرجاء العالم ، قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماماً في الأمم المزدهرة بالسكان في قارة أوروبا . ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت في أثناء عصر الحصان والطريق البرى، وأن كل أمل لها في التوسع وراء البحار قد سبقها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير . وكانت روسيا هي الوحيدة التي وجدت أمامها سبيلاً إلى التوسع شرقاً ؛ فهدت عبر سيبيريا خطاً حديدياً عظيماً مازالت به حتى تورطت في القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوباً بشرق نحو حدود فارس والهند فأزهدت بريطانيا بذلك . أما بقية الدول الأوروبية فكانت في حال من ازدحام السكان متزايدة التفاف . فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب رغبة منهم في الوصول إلى أقصى ما في الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات : - وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادى وإما بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة . وقد مالت الآراء العصرية في معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قواها قارة أوروبا نحو النوع الثانى من الاتحاد .

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة إشارة وجهت للناس - وهم بين خائف وجل وراج مستبشر - نحو فكرة توحيد أوروبا كلها بزعامة الألمان . وانقضت أربعة وأربعون عاماً من السلم القلق المضطرب كانت سياسة أوربا في أثناءها تتركز حول ذلك الاحتمال . ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة في أوروبا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شرلمان ، حاولت أن تصلح من ضعفها

الطبيعى بقصد محالفة وثيقة مع روسيا ، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمساوية (التى زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول) كما ربطت نفسها إلى حد أقل بمملكة إيطاليا الحديثة النشوء . وظلت بريطانيا العظمى فى البداية مترددة كعادتها تقدم رجلاً فى شئون أوروبا وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسى الروسى بسبب تضخم الأسطول الألمانى تضخماً باذياً فى العدوان . وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثانى (١٨٨٨ - ١٩١٨) فى العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان فى مناسرات وراء البحار ، انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى دائرة أعدائها .

تنافست كل هذه الشعوب فى التسليح . وأخذت نسبة الإنتاج القومى الموجهة إلى صنع المدافع والعتاد الحربى والسفن الحربية وما إليها تزايد من سنة إلى أخرى . وأخذ ميزان الأمور ينجح مرتعشاً عاماً بعد عام نحو الحرب ، ولكن الحكمة كانت تعود فتقضى بتجنب الحرب ثم اندلع لهايها آخر الأمر ، فهاجمت ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصربيا ، واختارت الجيوش الألمانية بلجيكا للوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا ، وأدخلت معها حليفها اليابان ، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا فى ١٩١٥ ، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوروبا فى أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا فى ١٩١٦ إلى الدخول فى الحرب ضد الألمان وتلتها الولايات المتحدة والصين فى ١٩١٧ . ويضيق المقام فى هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من اللوم على هذه الكارثة الفظيعة . فليس السؤال الأكثر أهمية هو « لماذا لم يتكهن الناس بنشوب الحرب العظمى ؟ » بل « لماذا لم يحولوا دون ذلك ؟ » ؛ فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا من شدة الوطنية العمياء أو الصباوة أو بلاءة الحس بحيث لم يستطيعوا أن يمنعوا تلك الكارثة بخطوة بخطوة يحطونها نحو الوحدة الأوروبية القائمة على أسس صريحة كريمة ، أخطر كثيراً لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملت على إشعالها .

والجمال الذى بين أيدينا لا يسمح بأى حال بتقصى التفاصيل المعقدة للحرب . على أنه تبين جلياً بعد بضعة شهور أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحرب تغيراً

عميقاً ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والتسلط على الفولاذ والمسافات والأمراض ؟ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على فطنة العالم الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تستوحى الإلهام من سياسات عتيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوعاً يعينها قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة في وقت واحد ، وأصبحت الحرب شعلة من نار شملت العالم كله وأتت على الأخضر واليابس ، وأزلت من الخسائر بكل من الظافر والمنهزم ما لا يتناسب ألبة مع قيمة المسائل المتنازع عليها ، وأبدأت الحرب بمرحلة من الاندفاع المائل من الألمان نحو باريس قابله في الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية ، ولكن هذين المجهومين صدا ، ورد المهاجم على عقبه في الحالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؛ فأدخلت التعيينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردهاً من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يمكنها القيام بأى تقدم بغير تكبد خسائر فادحة ، وكانت جيوش كل من الطرفين تعد بالملايين ، وقد نظم من ورأهم السكان بكامل عددهم بغية إمداد جبهة القتال باليرة (الطعام) والذخيرة . فكان كل أنواع النشاط الإنتاجي قد انقطعت تقريباً إلا ما أسهم بنصيب في العمليات الحربية .

وأخذ كل شباب أوروبا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التي أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول ، وحلت النساء في الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان في الدول الأوروبية المتحاربة قد غيروا أعمالهم ومنهم تغييراً تاماً في أثناء ذلك الكفاح المهل . فكانهم نزعوا اجتماعياً من بيتهم انزعاً وأزولوا بيئة أخرى . وقيدت التربة والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجهة تماماً إلى أهداف الحرب المباشرة ، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أصيب بالعجز والفساد والقشوية بما فرض عليها من رقابة عسكرية وما داخلها من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدرج إلى دور من الاعتداء على السكان غير المحاربين وراء الجبهة ، وذلك بتدمير موارد الطعام والغارات الجوية ، كما أنه

حدث تقدم متواصل في حجم المدافع المستعملة ومدادها . وفي مستعدات تنطوى على البراعة من أمثال قبائل الغاز السام وتلك القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالخنادق . على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب . فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقي ، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان ، وقد حملت مناطيد زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد رعى العرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقتي متزايدة الاتساع للنشاط المدني البعيد عن الجبهة . واختفى من الدنيا التمييز القديم الذي كان يفرق حسب أصول الحرب المتمدية بين المدنيين من السكان والمحاربين منهم ، فكل منتج للطعام ، وكل حائك للثياب ، وكل قاطع لشجرة أو مصطح لخراب ، وكل محطة للسكك الحديدية ، وكل مخزن من المخازن ، أصبح يعد صيدا مباحا للتدمير ووسائله . وكان كل شهر ينقضى من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية ويوسع نطاق الرعب منها . ولم يرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم وتعرض لهجمات لا تنقطع ليلا واحدة ، فكانت المدن المكشوفة كلندن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن - والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لا تطاق ، على حين تجلجل آلات المطافيئ وسيارات الإسعاف مسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك في عقول المسنين وصغار الأطفال وصحتهم محزنة ومدمرة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التي كانت من قديم تسير متبعة دائما خطى الحروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه في ١٩١٨ . فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ؛ ثم انتشر في العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس ، وكذلك أبعد شبح المجاعة إلى حين ، ومع ذلك فإن معظم أوروبا كان عند بداية ١٩١٨ يعيش في حالة من المجاعة والخفة والمنظمة ، فقد هبط إنتاج الطعام في كل أرجاء العالم هبوطا عظيما بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلا عن أن توزيع ما أمكن إنتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث النواصات وإفسادها في البحر ، وانقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما اعترى نظام المواصلات العالمية من اضطراب وفساد . وعندئذ وضعت الحكومات المختلفة يدها على

موارد الطعام الضئيلة المتناقصة ، وراحت توزع الأطعمة جرايات على شعوبها . وفضلا عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من قلة الثياب والمنازل ومن نقص كثير من لوازم الحياة العادية . وأصيبت الأعمال الحرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب . وران القلق والحلم على النفوس جميعاً . وأصبح معظم الناس يعيشون عيشة ضنك لم يألوها قبلاً .

توقفت الأعمال الحرة في نوفمبر ١٩١٨ . إذ إن دول أوروبا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس نفسها . ذلك أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

بفضل الناس استون

النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوربا الوسطى بليف وسنة كاملة انهارت قيصرية روسيا شبه الشرقية التي ادعت أنها استمرار للإمبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تسرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب بضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصرى واقفاً تحت سيطرة دجال دينى مضحك ، هو راسبوتين ، فضلاً عن أن الأداة الحكومية المدنية والعسكرية كانت فى حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لحلح السلاح جيش عرمرم من المجندين ، لم يكن له عتاد عسكري كاف ولا العدد الكافى من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم السيء الإمداد الضعيف القيادة أن قذف بلانظام إلى الحدود النمسية والألمانية .

ولا سبيل إلى الشك فى أن مبادرة الجيوش الروسية إلى الظهور فى بروسيا فى سبتمبر ١٩١٤ صرف همم الألمان والتغاتهم عن تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس ، فكأن آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوى القيادة السيئة هى التى أنقذت فرنسا من الهزيمة التامة فى تلك الحملة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوربا الغربية بأكلها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية الترامية الأطراف شديداً مضيقاً لم تقو على احتماله قواها . فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدفعية تمهد لهم وتظاهرهم ، بل حتى دون ذخيرة للبنادق ؛ لقد أوقعهم ضباطهم وقوادهم فى حالة من حالات الهذيان الجنونى المشتعل بالحماسة العسكرية ، فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صامتين مثلما تقاسيها العجاوات . ولكن للصبر والتحمل حداً حتى لدى أشد الناس جهلاً . فأخذ يتفشى شعور من الاشمئزاز العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المهيضة من الرجال الذين غدر بهم كبارؤم وأضاعوا حياتهم هدرآ . لذا غتت روسيا منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق

مزايد الحلفائها الغربيين ، فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت في الجوى إشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح المفرد بينهما وبين ألمانيا .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين في أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بتروغراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهداً متأخراً لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس الدفاعاً سريعاً ؛ فإن الفتن التي شبت بپتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة التمثيلية في البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ من مارس . وانقضت فترة من الوقت ظن الناس في أثناءها أن في الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط ، ولكن في ظل قيصر جديد . ولكن اتضح جلياً أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسي قد سئم سامة الموت كل ما في أوروبا من نظم قديمة : من قياصرة ومن حروب ومن دول عظمى ؛ لقد كان يلتمس الراحة - والراحة السريعة العاجلة مما يقاسى من تعاسات لا تطاق . ولم يكن الحلفاء يدركون البتة حقائق الموقف في روسيا ، فإن رجال الدبلوماسية فيهم كانوا يجهلون الشؤون الروسية جهلاً تاماً ، إذ كانوا من عليا القوم الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلى روسيا نفسها ، فلا غربة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نفوس هؤلاء الدبلوماسيين تنطوي على الكثير من حسن النية نحو المذاهب والزعات الجمهورية ، لذا أظهروا ميلاً واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهد مستطاعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جذاب هو كيرنسكي ، الذي وجد نفسه غرضاً لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غوراً ، هي « الثورة الاشتراكية » في داخل بلاده ، كما وجد حكومات الحلفاء في الخارج تعامله بفتور وقلة اهتمام . لم يسمح له حلفاؤه أن يعطى الفلاحين الروس الأرض التي يتلفنون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية ترهق ذلك الحليف المنهك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما أقدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة ريغا برا وبحراً ، خارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بحملة في بحر البلطيق لإنقاذها أو تخفيف الضغط عنها ، وبذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقاتل الألمان وحدها دون معاونة من أحد . وينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيما عدا بضع هجمات قامت بها غواصاتهم ، وذلك على الرغم من تفوقهم البحري ومن الاعتراضات المريرة التي قدمها لورد فيشر الأميرال الإنجليزي العظيم (١٨٤١ — ١٩٢٠) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسى كان مصمما على وضع حد للحرب ، مهما كلفه ذلك من عن . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل المال وعامة الجند ، هي هيئة السوفييت ، التي أخذت تطالب بعقد مؤتمر دولى للاشتراكيين بمدينة استوكهولم . وكانت فتن الطعام تحدث في ذلك الأوان بيرلين ، وتغفل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس ، وتدلنا الأحداث التالية دلالة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لعجل بعقد صلح معقول في ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولأحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه . وأخذ كيرنسكى يتضرع إلى حلفائه الثوريين أن يسمحوا بانقضاء ذلك المؤتمر . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب مخافة أن يؤدي قبوله إلى انتشار المذاهب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة ، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب المال البريطانى للeskرة ، وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة التمسعة تقاتل دون أن تتلقى عوناً معنوياً أو مادياً من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس في يوليو . ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز بضع انتصارات أولية ، وللمرة الثانية ذبح الروسون ذبحاً عظيماً .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال روسيا فتورد الجند في الجيوش الروسية وبخاصة في الجهة الشمالية ، ولم تلبث حكومة كيرنسكى أن خلعت في ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت ، الذين يسيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الثورية . وفي ٢ مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما انتزع أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كانوا رجالاً مختلفون في طبيعتهم تماماً عن فصحاء الدستوريين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرنسكى . فإنهم كانوا شيوعيين ماركسيين متعصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية عالمية عامة ، فانطلقوا يغيرون النظام الاجتماعى والاقتصادى

في البلاد ويبدون في ذلك أقصى غاية الإيمان للطلق وعدم الخبرة التامة . أما دول أوروبا الغربية وأمريكا فقد بلغها من أخبار السوء عن تلك الثورة ، كما أنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الحارقة أو تمد إليها يد العون . فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء القُصصين والخط من كرامتهم ، كما هبت الطبقات الحاكمة لتحطيمهم مهما يكن أساس ذلك التحطيم ومهما يكن الثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو روسيا في سبيل ذلك . وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الدعاية الحاملة لأسوأ التخربات المزعجة البشعة ، وراحت تلك الصحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحوش البشعة الشنيعة الملطخة الأيدي بالدماء والنهب والذين يتمرغون في أوحال اللذات البهيمة تمراغا يجعل فضائح البلاط القيصري في أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصعة البياض طاهرة الذيل . وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الحائرة القوى وشجع كل ثائر عليها وكل مغير ، وأمد بالسلح وامنح الأموال .

ولم يترك أعداء النظام البلشفي المذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بلغت من السفالة أو البشاعة . وهكذا نجد في ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفسدت نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات ، يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركانجل ، وغارة لليابانيين في شرق سيبيريا ، ويقاثلون الرومانيين في الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون ، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسي بـسيبيريا ، والجنرال دينيكين بالقرم يعاونه الأسطول الفرنسي .

ثم كاد جيش إستوني بقيادة الجنرال يودينيتش أن يصل إلى بطرسبرج في يولييه من تلك السنة . وفي ١٩٢٠ هاجم البولنديون روسيا بتعريض من فرنسا . كما أن مغيرا رجعا جديداً ، هو الجنرال رانجل ، تولى العمل الذي تخلى عنه الجنرال دينيكين وراح يغزو وطنه ويعيث في أرجائه فساداً . ثم إن بحارة الأسطول الراسي عند كرونستاد تمردوا في مارس ١٩٢١ . ولكن الحكومة الروسية برئاسة لينين تحملت كل هذه الهجمات . بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة ، وظهرها عامة الشعب في روسيا دون تردد في أثناء تلك الظروف المفرطة العسر . حتى إذا وافت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتا على صورة ما بالحكم الشيوعي في روسيا .

ولكن لن وقت الحكومة البلشفية في مكافعتها للتدخل الأجنبي والثورات الداخلية ، فإنها كانت أقل حظاً من التوفيق في إقامة نظام اجتماعي جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية . ذلك أن الفلاح الروسى مالك صغير متلهف على امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية في فكره وأساليبه بد السماء عن الأرض ؛ أجل أعطته الثورة أراضى المالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أى شئ إلا العملة القابلة للتداول ، كما أن الثورة دمرت قيمة النقود تقريباً . وأصيب الإنتاج الزراعى بضررة شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها في أثناء الحرب ، حتى لقد انكشف فأصبح مجرد زراعة للمواد الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شملتها المجاعات . وبذلت محاولات مستعجلة سيئة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعى بحيث تتمشى مع النظريات الشيوعية فباءت هى الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى الروسيا في ١٩٢٠ لتشهدت فيها منظراً عجبياً لم تسبق مشاهدته هو منظر الحضارة المصرية وهى في حالة من الانهيار التام .

فإن الصدأ كان يأكل السكك الحديدية ويحيلها إلى خردة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات في كل مكان ارتفاعاً شديداً . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاوم أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب . وحل بالبلاد بين الفلاحين الزراعيين في ١٩٢١ قعط ومجاعة شديدة في المناطق الجنوبية الشرقية التى خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعاً .

إزاء هذه الظروف المحزنة عزم السؤولون على التقليل من سرعة عملية البناء والتعمير . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة ، وأباحوا قدرأ من حرية الملكية الخاصة وأعادوا نظام النشاط الشخصى والجهد الخاص ، فترتب على ذلك أن عادت إلى حد ما مياه النشاط الإنتاجى إلى مجاريها . وعندئذ أحس الناس كأنما الروسيا تنحرف عن مذاهب الاشتراكية الإنشائية وتعيد إظهار أحوال تسكاد تماثل تلك التى شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمائة عام ، ونشأت بالبلاد طبقة من المزارعين الأثرياء هم الكوللاك ، وهم النظير الذى يقابل المزارع الأمريكى الصغير ، وتكاثر عدد صغار التجار الموسرين . على أن الحزب الشيوعى لم يكن ميالاً إلى التخلي عن أهدافه على تلك الصورة ، وإلى السماح لروسيا بأن تتبع الخطوات التى اجتازتها أمريكا قبل ذلك بمائة سنة . لذا ما لبثت أن

ظهرت في ١٩٣٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى النهاج الشيوعي في التطور والتنمية، فأثنى مشروع خمس سنوات، رعى إلى إحداث توسع سريع عنوة في الصناعة تحت إشراف الدولة، وخاصة في المنتجات الأساسية الثقيلة، وفي نفس الوقت استبدلت الزراعة الحشدية (الجماعية) ذات النطاق الواسع بإنتاج للزراعيين الفرادى. وقد حرمت روسيا من قيادة لينين الحكيمة في ٢١ من يناير ١٩٣٤، وكانت طريقة معالجة خليفته ستالين للأمور أحسن من طريقته. وضعت تلك الحطة موضع التنفيذ على الرغم مما اعترضها من صعاب هائلة؛ أهمها جهل العامة وأميتهم وتأخرهم العام، وقلة عدد الأكفاء من رؤساء العمال والصناع الفنيين، وامتناع العالم الغربى عن بذل أية مساعدة بل واتخاذ جانب المحصومة الإيجابية.

ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعى من الحطة أصاب قدراً جسيماً من النجاح. نعم أصاعوا الشيء الكثير هدرًا، وأعوزهم إيجاد التناسب الضرورى بين الأمور، غير أنهم أصابوا من الخير ما لاسيل إلى إنكاره، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات الجريئة السريعة لم يكن مرضياً تماماً في حالة الإنتاج الزراعى، كما أن شتاء أعوام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ أنزل بالروسيا للمرة الثانية نقصاً عظيماً في الأطعمة.

أما بقية أجزاء العالم التى كانت تواصل العمل بنظام أرباح رأس المال الفردى وتقيم نتائجها، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة الروسية بعين اختلط فيها حب الاستطلاع بعدم الثقة والاحترام. وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر في سيره، فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقصرها على جزء صغير متنافس من السكان، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جداً. لقد أصبح قلقاً غير راض عن تصرفاته. وانتشرت لفظة «وضع المشروعات» في أرجاء العالم بسرعة البرق، وبزوايد الضائقات الاقتصادية التى ستحدث عنها في الفصل التالى تكاثرت تلك المشروعات. حتى إذا وافت سنة ١٩٣٣ لم يعد أى سياسى يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع، وحسبك هذا على الأقل تقدير للروسيا من العالم كله.

ظلت روسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من رداءة المحصول في ١٩٣٣، يحالفها النجاح في جميع مراقبها، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتكاثرت الأنعام والملاشية ودخلت البلاد أفواج من السياح الأوربيين والأمريكيين. وأخذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا.

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمى ، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية ، ونفذت أشغال عامة عظيمة - منها سد الدنيير وسترُوا وسكة حديد التركستان/سييريا - وأنجزت البلاد قدراً جسيماً من المباني المجددة وعكست على إعادة تجديد مرافقها وعاداتها . غير أنها ظلت تعاني الكبت التام لكل نقد مما اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يغرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لابد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرق والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناصرة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية الناجية الفضل الأكبر في نجاح الدفاع عن الجمهورية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى : ولا تزال التفاصيل المضبوطة والعقدة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحداً من الرجلين لم يوهب قوة لينين الفكرية ولا رحابة تفوذه الشخصى ، كان تروتسكى إنساناً موهوباً ولكنه كان مغروراً ؛ وأوتى ستالين صفة العناد الرهيب ؛ ومالبت تروتسكى أن نفي خارج البلاد في يونيه ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فزل تركيا أولامم فرنسائهم الروج ، واستقر به اللطاف أخيراً بالمكسيك ، وهو يحمل في كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلية المريرة الضف ضد زملائه السابقين ، ويمزق وحدة أنصار اليسار في العالم كله إلى حزبين متنازعين .

أما في روسيا نفسها فالظاهر أن كفاحاً خفياً أخذ ينشب بين الموظفين والمستخدمين المعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدراً من هذا التاريخ لا يزال يكتنفه القموض الشديد . إذ لا مجال للشك في أنه كانت هناك مقاومة ، كما لا شك في أنه حدث التدمير وقلة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضاً أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضروري أن يكون منظماً كان يحدث حتى في أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة منسقة تماماً أكثر . وراحت حكومه السوفيت تسلك في هذا الكفاح حيناً من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين مشوليف منهم مهندسون بريطانيون متوعون قدموا المعاملة بتهمة تعمد تعطيل عملية طبع روسيا بالطابع المصرى واليكانيكى مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت في الأفق في أثناء المحاكمات التالية عناصر للمؤامرات والتدبيرات السياسية . على أن معظم المتهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو بالنفى ، حتى قتل واحد من أشد الوزراء الذين وثق فيهم ستالين واطمأن إليهم في أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور في روسيا عصفاً وتجهماً . وقد توفيت زوجة ستالين على حين بفته في ربيع ١٩٣٤ في ظروف لا يزال يشاها إلى اليوم القموض - ولقد زعم بعضهم أنها انتحرت حزناً على ما يقاسيه الفلاحون من المذاب في ظل مشروع الخمس السنوات الأول، ولا شك في أن تزايد عدواه خلطائه القدماء له قد زاد رويدارويدا من مدى عزلته وتباعده . والظاهر أنه لم يبق له صديق مخلص إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مات في ١٩٣٦ . وتعاقت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى ، وأخذت بوادر القسوة تجلي في استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها ، كما أصبحت عقوبة الإعدام هي الفصص العادي . فاعدم زعماء البلشفية السابقون واحداً بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد في عنوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبداً لا يقبل صلحاً ولا تراجعاً ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملين في أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة روسيا المادية تسير في طريق الجد التام مع تناقص الصعوبات بالتدريج وتضاؤل التذمر الشعبي إلى درجة لا تكاد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق في التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال إبلال روسيا عما بها وبطبيعة ذلك الإبلال إذا حدث .

افضل السابغ ولسون

عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى في تلك الوقت ومما جلبت من الكوارث والأحزان أن زعمت أخليق الناس أنه ليس مقبولا إلا تفرز تلك الحرب نبوية عصر ، وديانة مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسعد حالا ، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل . ومن المعلوم أن عقولنا تجنح دائماً إلى الاعتقاد بالتعويض - فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما تتصوره في أنفسنا من مزايا . ولم تنقش هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد . ولكن هانحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حداً لشيء ، ولم يبدأ شيئاً ، ولا سوى شيئاً . نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس ؛ وبدد قوى العالم وأشاع فيه الفقر والفساد ، فحطم الروميا تحطياً مطلقاً . ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة مخيفة بأننا نعيش عيش المحاقاة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد في عالم خطر لا يحمل لنا عطفاً ولا وداً . فإن الأنانيات ونهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التي جرفت البشرية إلى غمرات تلك الفاجعة - خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان تماماً حدوث كارثة أخرى ماثلة بمجرد انتعاش العالم قليلاً مما أصابه من إنهاك وإجهاد في أثناء الحرب . أجل أزاحت الحرب عن كاهل أوروبا تهديد القيصرية الألمانية ، كما حطمت القيصرية الروسية . وأزالت عدداً لا بأس به من الملكيات . ولكن أوروبا لا تزال ترفرف فيها كثرة من الرايات ، ولا تزال الحدود تثير الغيظ في النفوس ، كما لا تزال جيوش جرارة تكس في مخازنها مقادير جديدة من القتاد الحربي .

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرساي إلا اجتماعاً سيئ التكيف وظروف الدنيا ، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات الحرب وهزائمها إلى تأنيجها للنطقية . فلم يسمح للألمان ولا النموسيين أو الأتراك أو البلغار بأى نصيب في مداولاته ؛ ولم يكونوا يملكون

إلا قبول القرارات التي تملئ عليهم . كان مؤتمر يضم الظافرين الفاتحين وكان اختيار موضع انعقاد المؤتمر غير موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر الصلحة البشرية ، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوق الوضع . وتسلمت على الأذهان فكرة القاهرة تدعو إلى إقامة مشهد « ميلودرامى » عيف يعكس السرحية الأولى في قاعة المرايا نفسها .

ومهما تكن المسكارم التي ظهرت إبان الراحل الباكورة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول المنتصرة شديدي التيقظ لما عانوا من خسائر وآلام ، مغضين كل الإغضاء عن أن العدو المنتهزم قد شرب من نفس الكأس . كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنافس القوميات بأوروبا وغية كل تنظيم اتحادى لتلك القوى المتنافسة ؛ والحرب هي النهاية القصوى النطقية والضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة التي تعيش في حيز ضيق جداً وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة ؛ ولو لم نجى الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها ، لظهرت في صورة أخرى مماثلة - كما لا شك في أنها ستعود على نطاق أفضح وأشد تدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولا شك في أن الدول التي تنظم شئوننا ابتغاء الحرب مضطربة بالتحقيق إلى الحرب اضطراب كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواصف هذه البلاد المحزونة التي أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة ، لذا عوملت جميع شعوب الأفطار المنتهزمة كأنها هي مسئولة خلقياً وماديا عن كل ما حدث من أضرار ، وهي نفس الطريقة التي كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب المنتصرة لو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك المنتهزمين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ما حدث ، وزعم الألمان أن الملوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكى أقلية ذكية أدركت أن الملوم في الموضوع هو الوضع السياسى لأوروبا ، وكان المقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانتقامية ؛ فحتمت على اللغويين عقوبات فادحة ؛ إذ حاولت أن تمنح التعويضات المنتصرين وشعوبهم الجريحة للتألمة بفرض ديون باهظة على أمم قد أفلست من قبل ، كما أن محاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسعى لمنع الحرب كانت محاولة تجلى صراحة أنها غير مغلصة وغير كافية .

ومن للشكوك فيه أن أوروبا - لو تركت وشأنها - كانت تبذل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظيما يكفل سلاما دائماً ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى معترك

السياسة العملية الرئيس ولنس ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعائمتها الرئيسية هي أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة - تلك الدولة العصرية الجديدة - لم تنتج حتى الآن أية فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذى وقى العالم الجديد غائلة التدخل الأوروبى ، وها هي الآن تستدعى فجأةً للساهمة الفكرية فى مشكلة ذلك الزمان الهائلة ، ولكن قريحتها لم تسعفها بشيء ، وكان الشعب الأمريكى ينجح بفطرته نحو السلام العالمى الدائم ، وذلك بغض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقة وسوء الظن التقليدى فى سياسة العالم القديم وعما ألفه الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشكلاته ، فكأن الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدأون فى تكوين فكرة عن إيجاد حل أمريكى لمشكلات العالم عند ما جرّتهم حملة الغواصات الألمانية إلى معترك الحرب فى صف الحلفاء أعداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس ولنس لتكوين عصبة الأمم إلا محاولة مبتكرة متعجلة لإيجاد مشروع على أمريكى النزعة تماماً ، فأنشأ لها تصميماً فجياً وناقصاً وخطراً ، ولكنه أخذ فى أوروبا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموماً كانت فى ١٩١٨ - ١٩١٩ قد اشتد بها الضيق بالحرب والتلف بأى ثمن أو تضحية على إقامة كل ما من شأنه منع حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة فى العالم القديم لم تشأ أن تنزل قيد أنملة عما تستمتع به من سيادة واستقلال فى سبيل الوصول إلى تلك الغاية ، والظاهر أن التصريحات العلنية التى فاه بها الرئيس ولنس حول مشروع عصبة الأمم العالمية ، قد وقعت موقع القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن تخطت الحكومات ؛ وزعم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا الحقة ، وكانت استجابتهم لها هائلة ، ومن سوء الحظ أن الرئيس ولنس كان مضطراً أن يتعامل مع الحكومات لا مع الشعوب ؛ وكان رجلاً تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أمانى محدود ، فلا غرابة إذن أن تبدد موجة الحماسة العظيمة التى أثارها وتذهب سدى .

يقول الدكتور ديون فى كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوروبا عند ما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماهر ، إذ لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كموسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التى طال انتظارها والتى تمنع الحروب وتجعل الحصار البحرى ، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه فى فرنسا بدافع الرهبة والمحبة ، وأخبرنى زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لحوض لجج الماء والسنّة

النيران لمعاونته على تحقيق خطته النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقاً يدوى صوته في أفلاك السبوات قهّز جنبات الأرض له وتعود جديدة مطهرة ، واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذم الأكبر ، وقال المهر مهلن الشجاع الباسل: لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ، لتقبلوه بصدر رحب ودون أدنى تدمير ولبداوا في تنفيذه على الفور ، فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص . وكان مجرد ذكر اسمه بلسا للمتألمين وترياقاً للمسكين . . . »

تلك وأمثالها هي الآمال الجارفة التي أثارها في النفوس الرئيس ولسن ، ولكن القصة المحزنة حقاً هي أنه خيب تلك الآمال تماماً وأن العصبة جاءت ضعيفة غير ذات غناء ، فكأنه شخصاً قد زاد من وقع فاجعتنا الإنسانية المشتركة ، إذ إنه بلغ العافية في عظم أحلامه والنهاية في عدم الكفاية في أعماله ، وقد تمردت أمريكا على تصرفات رئيسها ، وأبت أن تقبل العصبة التي قبلتها منه أوربا . . . إذ إن الشعب أخذ يتحقق ببطء أنه دفع بسرعة في تيار تجربة لم ينهأ لها أبداً ومحقت أوربا من جهتها بأن أمريكا لم تعد تملك شيئاً تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو يروح في محنته . ولدت تلك العصبة قبل الأوان ، وتشوّهت منذ ميلادها فأصبحت هي ودستورها التفصيلي غير العملي وتحديد سلطاتها الجلي الواضح ، عقبة كأداء في طريق أية تسوية فعالة وأى تنظيم جديد شمر للعلاقات الدولية ، ألقت تلك العصبة على المسائل ظلاماً من الإبهام الذي ما كان يغشاها لولم تنشأ تلك العصبة ، ومع هذا فإن ذلك اللهب الحماسي الذي شمل العالم في البداية ترحيباً بالشروع ، ذلك الاستعداد الجليل الذي أبداه الناس في كل صقع من أصقاع العالم - وأقول الناس ولا أقول الحكومات - لإقامة ضوابط عالية تتحكم في الحرب ، إنما هو شيء جديد ينبغي تسجيله في أي سفر تاريخي مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه تقوم في هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التي تفرق كلة البشرية وتسيء تدبير شئونها ، قوة حقيقية تطالب بالوحدة العالمية والنظام العالمي .

غير أن تلك القوة لا تزال تلتبس التطبيق الفعال ، فإن صلح فرساي كان صلحاً سياسياً بحثاً ، كما أن العصبة نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لترقيع أحوال البشرية في الوقت الذي قبلت فيه - على علاتها - الحكومة القائمة والأفكار السائدة المتعلقة بالدولة بوصفها شئنا لا مفر منها : وهنا يكمن الخطأ الذي أخذ يتضح بالتدرج لعين البشرية

فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة ، كما أن في الإمكان تعديلها ، بل لابد من تعديلها بحيث تتناسب وتغيرات الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهي تعتمد على الأفكار الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية - إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجح للتغلب الاجتماعي والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل نأويل خاطئ* وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصر مؤتمرات نبذل جهودا بطيئة سمجة لإعادة تشكيل شئونه ، ولو تأملت ما دار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما مطردا ، فإنها كانت تنفتح في البداية بروح قومية وسياسية بحتة ، وإذا هي تتحول أخيراً إلى إدراك أوسع وأجراً للوحدة التي تجتمع تحتها فاهية البشرية للمالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتعلمون يبطء وتكرار ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت في غضون ذلك بارتباك كبير ، كما نشأت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ إن حيوية الجنس البشري أصيبت بالمطبخ ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم ، وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوفة من عدم الاستقرار . ولن نطيل هنا الخوض في تفاصيل تلك المحن ، فإنها قد تكون مؤذنة بانهايار الحضارة وقد لا تكون وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشيء يشبه الانهيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان الجنس البشري قادرا على إنتاج القوة الخلقية ، أي الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المطرد الذي جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفخار والمسرة في تاريخ البشر .

الفصل الثامن والثون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة محاربين متصرين ، كما أن غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي - وهي الحدود التي تحمكت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل العواقب الاقتصادية التي تنجم عنها ، ففرضت على المهزومين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد انتشعت بفشاء شفاف من العبارات الرشقة . حقاً إنه لم تضم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت « انتداب » المنتصرين - وهي لفظة مباركة أنتجتها قريحتهم الوقادة ١١ . فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سلمتها لأصحاب الشأن ، وحتى الخلفاء أنفسهم لم يبدوا أى ساحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فطالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأشبعت مطامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكص الأحرار والاشتراكيون بريطانيا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، فأصبحت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاماً تقريباً .

وكان الأطفال يعلون في بريطانيا العظمى مثلاً ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمى ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل على نصيب مرضى من الغنائم والطيبات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقلياً أقل تهديئة للأنفس . ولم تكذ تنقضى عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نسهمهم باسم المنتصرين الحقى ، حتى أخذ ملايين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال وشبان يلقنون دروساً توحى بضرورة إجراء تعديل عنيف في تسوية جنيف . لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادى ،

الذى سبغت أسبابه بحثاً أوفى في الفصل التالى . ذلك أن فيضاً متدفقاً من الاستياء ، يسير بكل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع سنة بعد أخرى ، ولم يكن يفوت أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لا مفر من حدوث انقجار دولى جديد . ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت بعناد بالمزايا الظاهرية التى اعتصرتها من الحرب العظمى .

عقد أول اجتماع لمجلس العصبة بباريس فى ١٥ من يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة ، وهناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بتراء معية قبل أن تستقر العصبة فى مقرها الرسمى ، فإن قتالا انصف بالخطورة فى كثير من الأحيان دارت رحاه فى أثناء السنة التالية ببلاد المجر وبولنده ولتوانيا وسيبيريا وفيومى وتركيا وآسيا الصغرى وسوريا ومراكش والبرازيل والصين ، كما شبت الحرب الأهلية بإرلنده ، ولكن فى الإمكان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى - إن جاز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك انتهى بانهيار عسكري كبير على مقربة من أنقرة فى سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرده اليونان من آسيا الصغرى وتركيا على يد مصطفى كمال ، ونهبت مدينة أزمير وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس ، وكان الحلفاء قد وعدوا الروسيا القيصرية فى أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولكن الروسيا السوفيتية لم تسكن لها رغبة خاصة فى التورط فى ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برئاسة الجنرال ملن الإنجليزى فى ١٩٢١ ، ولكنها ردت بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد مفاوضات طويلة ، ودخلت تركيا بزعامه كمال فى دور سريع من أدوار الانطباع بالحضارة الأوروبية ، فأزجج عن البلاد مظاهر النظام القديم ، وحى السلطان والطربوش وفصل النساء عن الرجال ، وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين ، فإن (كمال) احتفظ بعاصمته أنقرة .

كانت السنوات التى أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات محنة قاسية بألمانيا ،

فإن تلك للعاهدة حكمت على الندحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات فادحة للظافرين . ومن الجلى أن القصور من ذلك هو استبعاد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا ويقدموا الثمرات ليستهلكها للتصرون . على أن ذلك كان ينطوى على عقدة خطيرة . إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الغرامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فلو صدر عن المهزم فيض كبير من السلع المصدرة ، لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء المظفرين . لذلك اضطروا إلى أن يحيطوا أنفسهم بمحاجز من التعريفات الجمركية لوقاية عملهم ، بحيث إنه لو فرض أن الألمان جنسوا حقاً إلى عيشة الكدح الشديد التواصل لسداد الالتزامات للفروضة عليهم ، لما استطاعوا التغلب على تلك المحاجز ، ولظلوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يتكدس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولا تروى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصة الجهود العتسة الحاققة التي بذلتها ألمانيا والنمسا المندحرة للحصول على درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القاسية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماما عن النظر فيما يلغون من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليها وعن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة معقولة وشريفة في الشئون الأوربية . وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سناً ويتجمع مرجلا ضحفا من الطاقة الحاققة النافرة .

انتهى حكم أسرة هوهنولرن بفرار القيصر إلى هولندا في نوفمبر ١٩١٨ ، وأعقبت راره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . ويضيق مجال هذا الفصل عن تفصيل لهزات الاقتصادية العنيفة التي ألمت بالدولة الألمانية والعيوب التي لم يكن مفر من ترديها بها ، والعزم والتصميم العنيد القاسي الذي أبداه المسيو بوانسكاريه على إززال عقوبات لعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ إنه كان يرى أن لا بد لألمانيا من أن تداس بالأرجل ؛ لعل ذلك أقصى ما يبلغه قصر النظر السياسي . وسرعان ما احتلت الأراضي الألمانية حتلالا تأديبياً ، ورابط بوادي الروهر جنود سود من السنغال - وهي إهانة لم يقتصرها للمان بسهولة ، وبذلت أيضاً محاولة لسلخ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاذ عدة ثورات شيوعية . وظهرت إلى عالم وجود ديكاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف دامت أياما قليلة بمدينة ميونيخ ، كان الدكتور شترزمان (ومعه الرئيس إيبرت) يكافح بكل جهده في برلين في ظل موجز تاريخ العالم

هذه الولايات جميعاً في سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في ريخ محرر .

وبينما ألمانيا غارقة في حضم هذا الارتباك المضى أخذ صوت جديد يرتفع ويملاً الأسماع ، كان صوتاً غليظاً يهز الغضب نبرانه ، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب ما بعد الحرب المتزايدى العدد . « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها » - تلك هى النعمة التى أخذ يضرب عليها ذلك الصوت ؟ « ولا بد من جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التى كانت تحتلها قبل ١٩١٤ - مهما تكن التضحية التى تبذل في سبيل ذلك » ، ثم يقول الصوت « إن ألمانيا لم تهزم قط ، لأن ذلك ضرب من الحال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ خانها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية . فلا بد لها من العودة إلى نقاشها العنصرى . إلى حياة المحارب العنيفة التى كانت للتيوتونى الآرى » ، ذلك هو صوت تعاشى نمسوى اسمه أدولف هتلر . لم تسكد تستمع إليه الأذان حتى كان له صدى لاسيل إلى رده في قلوب طبقة الشباب الهائلة المتزايدة العدد الذين صاروا آنذاك يعيشون دون مطعم معقول لهم في الحياة ، وتكونت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشند عودها . وقام عليها حزب سياسى عسكرى هو الحزب القومى الاشتراكى (النازى) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم الزعج على العيش كشعب منفصل يختلف في كثير من الأوجه عن الروح القومى العام ، سبياً في اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالبهت أيضاً ، ولا يقنع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف للتمرد والقوة والسلطان ، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالاً في الحياة السياسية الألمانية في سبيل إيقاف تيارها ، ولكن الذى حدث أن هتلر أصبح في ١٩٣٣ مستشاراً للامبراطورية ، كما أنه وقف عندئذ على أبواب السلطة العليا في البلاد .

والظاهر أن الديبلوماسيين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتفاعه مدارج القوة لا يقدرون قوته حق قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أى حد أصبح ذلك الرجل ممثلاً لمشاعر الغضب والكبرياء العميق التى تتراحم في نفوس الألمان ، كما أن التفكير فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما

بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية ، ولا تزال السياسة الخارجية لعبة حمقاء ، تدور بين الهيئات المعنوية التي يطلق عليها المؤرخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والساومات السرية ، فهي لا تتناول الأجسام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب ، ولا يزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف للحركة النازية ، (ذلك أنها لم تكن مثلاً تعادى اليهود) . وكلا نمت الحركتان زادا إحداهما للآخر في الأخرى . أجل إنها كانتا في البداية مستقلتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بنيتو موسوليني ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما مالبثا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية للتطور الاجتماعى للعصر — وأعنى بذلك أنهما نظما طبقة الشباب التمردة المحرومة من كل هدف التي تظهر الآن في كل قطر يتعطم اقتصاديا ، ومنحوها وسيلة للتعبير وإظهار النشاط .

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هي الأفانتي Avanti ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جريء وقوى . فاختلف مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحرب إلى صف الحلفاء واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفانتي وأصدر صحيفة Il Popolo del Italia ليشرح فيها آراءه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأي امتياز عسكري عظيم ، حدث بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتماعى وبعث حركات ثورية متناثرة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح لكثير من المراقبين أن في الإمكان حدوث انقلاب شيوعى . وأحس موسوليني بنفس القلق القوي الذي أحسه هتلر ، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود هي حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة لاتقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار المالين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، ولذلك لأنهم كان لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين الجمر على نزع أملاكهم وأموالهم ، كما ساورهم اقتناع أحق بأن في الإمكان التحكم في ذلك اللغاص متى أدى الترض منه كإعلاج للاضرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالقوا في الخوف من الجمر وفي الاستهانة بالسود ،

على أن موسوليني لم يظهر في أية مرحلة من مراحل حياته أى ميل إلى اعتبار نفسه خادماً لـروس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته في الدولة التكاملة الأفراد الوحدة الجهود كانت تنطوى ضمناً على تحكم صارم جداً في تصرفات المغامرين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركته قبل حركة هتلر بوضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا في الحرب بنفس المدى الذى بلغه مقتل نظرأهم عند الألمان ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الفارات والجلد والاغتيال قام بها أتباعه ذوو القمصان السود وكبحوا بها تماماً إرهاب التهوسين الشيوعيين للمؤمنين بمبدأ حرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً لايحوق سبيله عائق . لقد سبق ضريبه هتلر بحوالى عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية .

وكانت الظروف والأسباب المماثلة في كل أرجاء أوروبا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد مماثل من الكفاح وتنتج نتائج مماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدي التمسك بلا هواده بالبادئ النظرية يحطمون النظام الاجتماعى والسياسى القديم في كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم كما كانوا يهثون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والديكتاتوريين « أى الرجال أولى القوة » ، الذين ينشئون حكومات أساسها الحكم الشخصى الفردى الشديد ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسى ولا يبيحونها إلا لأنفسهم . فأما المبادئ التى كانوا يعتقدونها فأمر لم يكن له وزن ؟ فربما كانت هى الشيوعية أو الدولة التكافله ؟ وما كانت تلك المبادئ إلا حالهم التى هم عليها وأفعالهم التى يفعلون . إذ ما الأهمية التى تعود فى النهاية من بلوغ منصب الديكتاتورية بالطرق غير المشروعة سواء أكانت يسارية أم يمينية . لاشك أن النتيجة العملية واحدة فى الحالىين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه ديكتاتورية ، كل بحث على خلاق وكل مثل عليا دولية وعادوا إلى نزع الدولة القومية العسكرية ، وكانت الديكتاتورية الروسية أشد الديكتاتوريات ميلا إلى السلم ، ذلك أنها كانت قائمة بمحدودها وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات الكيان المزعيل ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تعامل للنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار .

كانت اليابان كاملة السلاح والعدة ، وظلت كمعظم الحلفاء المتصربين محتفظة بتسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تعد العدة لصرف أنظار شبابها القلق بهجوم تشنه على الصين الهائلة المشبعة بالفوضى . على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبذلان جهوداً جبارة في سبيل تحسين أجسام جيلها الناشئ ، وتوفيره على النظام ، وتمعلان على النهوض بقواتهما الجوية نهضة قوية عاتية ، وكان في تسلح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساي ، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يقيدوها ذلك القيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث وصحافتها تبث باستمرار في الشبية روح العدوان الحربى .

وقد حدث في بعض نواحي أوروبا أن التخوم التى رسمتها العصبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة فئنا مثلاً التى منحت لدولة لتوانيا ، قد تقاتل عليها الروس والبولنديون والتوانيون ، ثم ظلت في يد البولنديين ، وعلى سبيل التعويض استولت لتوانيا على المدينة في ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء على من الحامية الفرنسية التى وضعتها بها العصبة ثم تركت المدينة للتوانيا في النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصاية يونانية جزرالا إيطاليا يعمل في قومسيون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالدافع دون انتظار لتفويض من العصبة وطالبت اليونان بالتعويض . ثم سوى الموقف باعتماد العصبة لما عملته إيطاليا .

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومى ، وهى مدينة منحت لكرواتيا ، فأغارت عليها قوة من المغامرين العسكريين بقيادة الشاعر الزهو بنفسه دانويزيو في ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدى عدة مرات صارت ملكاً لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، وطبعى أن هذه لم تكن إلا أمورا صغيرة نسبياً ، ولكنها كانت تحذيراً لا بأس به يندر بقله التقدير الذى كانت تحظى به في أعين الناس قوانين العصبة .

وكان الشرق الأقصى هو الميدان الذى تجلى فيه بطلان القسوية العالية للعصبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أى واحد من رجال السياسة والتدبير الغربيين اللوقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليد شئونها آنذاك ، أنه كان يفهم فهماً جيداً المشكلات الخاصة العجيبة لمجتمع ربما بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان ، وقد انهار هيكله السياسى

القديم والاجنابى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى [أعنى دولة] كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتعهدات وتحمل الديون وتتجشم الجزاءات ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه الفوضى الشاملة ، أخذ نفر من التلمذ الصينيين يمثلون للصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومنتانج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق «وطنية» ذات طابع عصرى بالصين. ولم يكن مفر من أن تحدث فى ذلك القطر الهائل خلافت عظيمة فى الرأى وفى المشاعر المحلية الإقليمية ، وأن تتولد بها الفرص العظيمة للصوعية وقطع الطرق ، ومما زاد الموقف تفاقمًا أنه على الرغم من كل ما تدعيه العصبية من احترام القوميات ، سلت لليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت فاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب الموجز عن متابعة ظهور وتوارى الزعماء المختلفين ، أمثال صن يات صن دى الزعامة المصرية ، والجنرال المسيحى فنج ، والغولى تشانج تسولن الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يضيق عن ذكر تنقلات قصة الحكم بين بكين ونانكين وكانتون ، وأدوار كراهية الأجانب والانتقال عليهم ، وتوالى تدخل روسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة ، ولكن ما لبث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى المعتدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على عاتقها أن تواصل طبقاً للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى الضى قدماً حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين فى ١٩٣٣ واعتبرتها دولة محمية تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور المطرد للطيران وإمكانات الحرب الجوية يغير روح المتاعب الدولية بالعالم أجمع وإن غيرها إلى ماهو أسوأ . ولكن جميع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة ، وقد أصبحت القواعد من حيث قوة التأثير أداة حرية قديمة الطراز ، وحلت محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتعلقة « بالجبهة البرية » ، « والطرق البحرية » قد صارت إلى اضمحلال وزوال ، وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والعدوان أرهف الجميع إحساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت تنمى

سلاحها الجوى تنمية سريعة وخفية وبالعلة . أما بريطانيا وفرنسا اللتان كان لهما تفوق عسكري لا ينازعها فيه منازع في « العشرينات الخفاء من القرن » فإنهما أدركتا بئس أنهما فقدتا تفوقهما الجوى إبان الفترة التي نسميها باسم « ثلاثينات الخوف » ، ولم يبرح روح ألمانيا الجديدة بزعامه هتلر وجورنغ وإيطاليا العاشية يزداد على الأيام جسارة . فأخذوا يواجهان دول الغرب بثقة واطمئنان متزايدين ، وأدركت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزيع التفات أوروبا فزادت من عدوانها على الصين ، ومن ثم شرعت الجيوش اليابانية التي تسيطر آنفاً على منشوريا في غزو ولاية جيهول في نهاية ١٩٣٢ ، فبلغت سور الصين الأعظم في ١٩٣٣ .

ولم تكن أى من بريطانيا أو فرنسا أو روسيا راغبة في الحرب . فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كل شيء وعدم اكتساب أى شيء . ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم آراء عميقة واسعة الأفق أو إخلاص في إيمانهم بالعصبة كأداة من أدوات السلام ، ذلك أن الدول التي يسمونها بالديمقراطية كان يعوزها الإيمان بكفاية وسيلتها هي ، كما أن ثلاثهن كانت تمزقها - على أشكال مختلفة - عوادي للنائب الاقتصادية والمالية الخاصة بكل ، وراحت الدول العدوانية الثلاثة في خلط عجيب بين التهديد الحقيقي والتهويز والبلف - تمزق معاهدة فرساي وعصبة الأمم تمزيقاً تاماً ونهائياً .

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حاد بين إيطاليا والحبشة ، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت في خريف ١٩٣٥ غمار حرب علنية لفتح بلاد الحبشة ، استخدمت فيها بغير رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والغازات السامة حتى انتصرت على الحبشة في مايو ١٩٣٦ ، على أن الإيطاليين وجدوا الحبشة قطراً يصعب عليهم استيطانه واستغلاله .

وفي صيف تلك السنة نفسها واجهت الحكومة الجمهورية بمحديرد أزمة عصية جد أن أضعتها صراع مرير مع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القطلونيين ؛ إذ فوجئت بعصيان عسكري يقوده الجنرال فرانكو على رأس الجنود المراكشين وتأييده في السر ألمانيا وإيطاليا . وقد أخفق ذلك العصيان في القيام بثورة مضادة مفاجئة لأن الأسباب التفوا حول راية حكومة مدريد ، ودارت في شبه الجزيرة رحي حرب ضروس ضارية مدة سنتين ، كانت ألمانيا وإيطاليا يزدادان على الدوام اشتراكاً علنياً فيها . فكان

للفيرون يضربون المدن بالدفاع بكل قسوة ، حتى قتل في هذه العمليات الحرية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النساء والأطفال . ومع ذلك فإن أحداً لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية الدولية في حالة سلم مع إسبانيا ، مثلما كانت اليابان من الناحية القابونية في سلام مع الصين .

وفي ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضمها لألمانيا في تحد صريح للنوع الذي نصت عليه معاهدة فرساي في هذا الصدد ، ولم تلق الحركة أية مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (ومن ورائه موسوليني حليفه التيقظ) التسلط المنحصر بصورة ملحوظة وشعورية في شئون العالم ، كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة المهيمنة الجانب السموعة الكلمة . على أن الخوف من الهجوم الجوي (ولعله كان خوفاً مبالغاً فيه) قد شل الدول الديمقراطية عن كل فكر أو حركة . وعندئذ ابتداء سباق حثوثي على التسليح يفوق في فداحة تكاليفه وإرهاكه للدول السباق الذي انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسة رائدها العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية ، وتبخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا بل حتى ثقها بنفسها ، أمور إن تنضج إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة في الماضي القريب كانت تقاسى من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية للتغيرة والتي يساء فهمها وإن اختلفت صور الماء في كل منها . فإنها هي أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهرى في طرائق الإنتاج واضطراب في التوزيع أخذاً يقضيان على الطلب المستديم للعمال الدائمين ، كما أخذ مع مضى الزمن ونمو الصغار يضعان على طبقة العمال المدربة القديمة طبقة أخرى من الماطلين القلقين الساخطين ، وظهر أثر ذلك التوتر بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك السلع ، ولما كان استثمار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً في أثناء الحرب ، ثم في فترة الاستقرار المالى بعد الحرب ، فقد نشأ عن ذلك تهاوت الناس على بيع الصكوك المالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية ، ولم تلبث الأزمة أن مست عدداً كبيراً من المصارف الأمريكية كان حراً قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ في أثناء فترة الدعم المالى ١٩٣١ - ١٩٣٢ التي نجحت عن تلك الحال ، إذ وجدت على رأسها زعياً هو فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة الدول من النزعة الفردية التقليدية التي كانت تكسب الثروات وتبدد موارد البلاد في عملية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الحطة مطبوع بالطابع المصرى ، هو حركة

النظام الجديد The New Deal . ولكن ذلك الشروع كان يتطلب قدرا من الطابع الاشتراكي الذى يستلزم بدوره طائفة من الموظفين المدنيين يزيد عددها كثيراً عما كان لديه من الرجال المدربين والتعلمين ، وكانت دماءه أخلاق الرئيس الجديد سيئاً فى تأخير أعماله منذ البداية كما عوقته اقسامات وزرائه وضيق أوقهم فضلاً عما يستعمره النظام القضائى الأمريكى من المحكمة العليا فإزلاً - من التحيز العميق للجهد والبادأة الفردية ، وكانت أمريكا لا تزال تقامى الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى فى الإنشاء والتجديد فى ١٩٣٧ - ١٩٣٨ يوم بدأت نهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب فى العالم القديم . فأخذت تدرك الخطر الذى قد يهدد كلا من منطقة الساحل الشرقى والغربى لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأية كارثة خطيرة ، كما أن الخطر الجوى أخذ يترامى قريباً دانياً واضعاً للعيان أكثرنا أكثر كما زادت حجوم الطائرات وسرعتها . هذا إلى أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة ، لذا فإنها وإن ظلت تنطلق بأحلامها فى العزلة قد انسافت بدورها فى سباق الفلج الذى كانت تترغمه من قبل بريطانيا وفرنسا .

وترأكت الصعوبات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى . فإنها سقت أمريكا بأشواط فى ثورة الشعب على الغنى الحر القوى ، حيث فرضت ضرائب باهظة جداً على الدخل ، وقررت ضريبة التركات وصرفت للعاطلين معاشات تد الرمق أو تكاد ، وبذلك أبعدت شبح النور الثورى وإن كانت طبقة الشباب العاطل فيها تنسكع فى الطرقات ، وهم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضاً . على أن شئون الصحة والنهذيب وزيادة التعليم أو الاستفادة من هذا الشباب اليائس المتئس لم تلق إلا عناية قليلة نسبياً ، إذ إن صاحب الثروة الفردية وصاحب الجهد الفردى والمالية الفردية كانوا من القوة السياسية ببريطانيا العظمى بحيث معوا كل تطبيق للمذاهب الاشتراكية فى الصناعة أو الموارد الطبيعية ، وتنهبت بريطانيا العظمى بدورها فى ١٩٣٧ إلى أن خطر الحرب أمر واقع وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم فى تيار العبودية للضرورات العسكرية . أدرك أذكاء الناس بأنه ما دام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائماً ، وتعلم الأكاذيب المصرية مستعرا بطريقة منظمة ، والتعيزات القومية والثقافية راضة الرأس ، وكذلك ما دام نظام الامتلاك القيم لموارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائماً ، وما دام التلاعب المالى فى سبيل وضع اليد على الممتلكات مستمرا ،

فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب أطنابه الآن بيننا ، كما لن تبرح الحياة والفكر البشرى تتركس إلى أقصى حد لخدمة تدريبات الحرب وعبودياتها ومخاوفها وشهواتها التي تزداد على كراياها هدهد وتدميرا والواقع أن جنسنا البشرى يتهدده نوع من الجنون العسكرى ، الذى قد ينحدر بنا خطوة خطوة فى طريق حرب قاسية ترجع بنا القهقرى ، وتهوى بنا إلى حياة لا يلد لها شئ إلا الألم والبضاء والشهوات البدائية ، ولا تنهم إلا بفضائل قليلة لا تتجاوز التجلد الإسبرى .

على أن اكتشاف الانجهاات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء ، كما أن ما أنفقه جميع الاشتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقلى فى سبيل تشخيص متاعبنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف ، قد لمق بسبب حاجتنا الملحة كل احتقار . فلقد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشئ الكثير من التصريحات وظهرت ثمرات عظيمة من التفاهات وأنصاف الحقائق التى لا رابط بينها ، وامتلات الآفاق بدعوة التآزر والتناسق دون أية تضحية بالذات ، وعم العالم قلقه على شئ اسمه السلام ، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلقة . ومن العجيب أن كل دعوة للتهدئة والسلم تنطوى على عنصر جسيم من الكسل والتراخى ، وإذا قدر للناس يوما أن يجمعوا فى أيديهم من القوة ، ما يكفل قيام منظمة للسلام تتصف بالكفاية فى أرجاء العالم وصيانتها ، فلن يتم ذلك عن طريق محفوف بالورود خال من كل مقاومة . ألا ترى أن السلم الرومانى Pax Romana كان ثمرة الاستيلاء والفتح فكذلك السلم العالمى (Pax Munid) يتطلب بالنا كيد تصميا وعزمًا راسخًا ومعالجة حازمة لكل تجمع أو معاندة .

افضل التاسع وستون

الحرب العالمية الثانية

ستعنى الآن في تفصيل نباء الأحداث المتعاقبة التي أدت إلى نشوب الحرب التي لا تزال رحاها تدور اليوم^(١).

ففي مارس ١٩٣٨ اقترح المستر لتفينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث في ضرورة القيام بمجتمعين يعمل مشترک لمنع العدوان في المستقبل ، وخاصة في أواسط أوروبا . ولم ينع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة في هذا التشاور ، وذلك كما قال المستر لتفينوف : « لأننا لا نريد أن نتناقش في أمر العدوان مع المعتدى نفسه » وكان ذلك اقتراحاً واضحاً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوربية تماماً أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفعل ، بيد أن جنون كراهية الشيوعية لدى الأغلبية البريطانية المحافظة كان أقوى كثيراً من خوفها من الخطر الألماني . وقد ظل هذا الاقتراح الذي ردد صداه ستالين في مارس ١٩٣٩ وولوتوف في مايو ، سياسة روسيا العنينة الدائمة إلى ما قبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير ، حتى بعد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أثبت أن تضامن مع روسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألماني .

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضاء على تشيكوسلوفاكيا . فلنضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد الصغير الهام القوى الشكسية محوطاً بالألمان من ثلاث نواح ، وعندئذ بدأت أبواق الدعاية في بث دعوة صاخبة مجلجلة دفاعاً عن الألمان الذين أصروا وضوا معاهدة فرساي - تمسكاً بفكرة النخوم الامتراجعية الحربية - على ضمهم إلى بوهيميا ، وتلت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وبعض مفاوضات هزلية عجيبة ، والواقع أنها كانت هزلية وعجيبة حقاً ، فلتئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم في شخص مجنون متدقاس ،

(١) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنتهي الحرب كما هو واضح من السياق .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على الستر تشمبرلن المفرور عديم الكفاية للعائد
الرئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحته إلى ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت
اليوم مصدر الأسف الشديد والهزات المرة لدى كل إنجليزى ذكى ، ولكن لا يغرب
عن البال أنه عندما عاد إلى مطار هسن بعد تخليه عن الدكتور بنيتش وبهذه الضرورة
الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قمع ألمانيا قمعاً جماعياً مشتركاً بين روسيا وفرنسا
وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها تشيكوسلوفاكيا
وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر ، وذلك عندما
أعلن للجمهور المجتمع بداوننج ستريت : « إنه السلام فى زمناً أبها الأصدقاء الطيبون وإنى
لأنصحبكم الآن أن تعودوا إلى بيوتكم وتناموا فى فراشكم قريى الأعين » . وانطلقت
السن المجاهير بهتاف الفرخ والسرور ، وهى حقيقة ينبى أن لا ننساها أبداً ، وذهب
الجمهور إلى بيته لينام قريى العين .

ومن البدايات فى تدير الطبيعة ونظامها القاسى المرير أن جزاء الحماقة والضعف
يكون على الدوام شديداً صارماً كجزاء الجريمة والإجرام سواء بسواء ، وهامى ذى بريطانيا
ومعها البشرية جمعاء تدفان ثمن التلص الذى مما قضى به الشرف والواجب . ذلك أن
ألمانيا لم تبر بتمهدياتها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز أن يبلغ
إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغاً يجعله يعتقد أنها كانت تنوى حقاً أن تبر
بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب إنجلترا «أصدقاء الستر تشمبرلن
الطيبين» ذهب إلى فراشه قريى العين ، وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشيكية المحددة
لها ثم واصلت سيرها .. فأنارت استياء الستر تشمبرلن وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود
فى مارس ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا تنتج الذخائر للجيوش الألمانية التى أخذت
قوتها تتضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولنده والمجر أن وثبتا بشراة على الدولة
الصربية ، غير آبهة بما قد يصيبها من نفسها . فالتهمت بولنده منطقة تشكسن Teschen
واستولت المجر على سلخة من منطقة أوكرانيا .

ولم تترك بولنده مدة طويلة تنهأ فيها بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة . إذ إنها كانت
الهدف الثانى للزحف الألمانى . وهنا جلت مسألة داتزج سبباً ظاهرياً للخلاف الواضح
للمروف . وأخذ الموقف يتطور سريعاً ، ولكن تردد الستر تشمبرلن وبلاده بريطانيا
أصبح يدعو إلى المزيد من الرثاء . ومن قبل ، حيث بريطانيا عن الدفاع عن

نيسكوسلوفاكيا ، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى خشيتها من البلشفية وشكوكها فيها . وكانت لآزال فيما يظهر تصدق قول هتلر بأن غرضه الحقيقي هو تحطيم الشيوعية ، كما لآزال تداعبها الآمال في أن ترحف ألمانيا شرقاً ، على حين أن كل ما فعله الغرب هو القيام بالدور غير الكريم — وإن يكن مربحاً — الذى يقوم به متعقبو المعسكرات . ولكن بولنده كانت بها حكومة استبدادية لا تحتمل المعارضة ، رجعية وكاثوليكية كما كانت تناصب الروسيا العداء ، هذا إلى أن للستر تشمبرلن كان يكابد الآلام بسبب تزايد نفور الناس من مغامراته في ميونيخ ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتلر ؛ ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لسكبح جماح ألمانيا ، ولكن تلك المفاوضات باءت بدورها بالفشل بسبب ماتبديه الطبقات البريطانية العليا من نفور من القيام بأى تعاون مخلص مع الروسيا . وذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هى الشعب الرهيب الذى يفرغهم .

وضمت مدينة محل اللتوانية في مارس إلى الرخ الألماني . وفى أبريل ١٩٣٩ . ضم الإيطاليون إليهم ألبانيا بقتة وفى تحد حصبة الأمم ، إلى غير ذلك من الاعتداءات ، فأثارت رشاش الاحتجاجات المألوف غير المجدى ، وعندئذ انسحبت من العصبة وخلا كرسى آخر من كراسيها . وفى مايو أعطى الستر لتفينوف الدول الغربية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على الدوام يتخذ موقف التعاون الجلى المتواصل مع الديمقراطية الغربية ، انسحب لتفينوف إلى القاعد الخلفية حيث أقام حصيفاً أرياً مجرباً موثقاً به ، وخلفه الستر مولونوف الذى كان استعاريأ روسيا أكثر من سلفه وأقل منه ميلاً إلى دول الغرب . ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة لتفينوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لاحظت أى حدث جرى في الروسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أن رغبها في زوال الروسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا ما لبثت أن تحركت في الساعة الثالثة والعشرين فقتت مع بولنده في ٢٤ أغسطس حلفاً للمساعدة المتبادلة . وقد سبق هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا والروسيا . ذلك أن فون رينتروب وزير الخارجية الألمانية ذهب إلى الروسيا ، ومن الجلى أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

حليين ، وعندئذ أدت روسيا ظهرها للديمقراطيات الغربية وهي في حال من الضرب والشك الذي له مايرره ، وتخلت ألمانيا تماما عن كل ما كانت تدعيه من العداء للكومنترن^(١) ، ذلك العداء الذي كان له حتى آنذاك أكبر الفضل في وجود عطف على النازية بين الطبقات المسموعة الكلمة بفرنسا وبريطانيا العظمى ، فإن هذا العداء قد أدى القرمص المطلوب منه . فإن الألمان اجتازوا حدود بولنسة في أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب في الثالث من سبتمبر . وهكذا صعا سكان بريطانيا الطييون قريرو الأعين من نومهم وإذا بلادهم مشتبكة في الحرب مع أحكم وأدق الشعوب للقاتلة تنظيمًا ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصى العناد وغير مستعدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديعة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد نفر منهم تماما في ذات الحين أفوى حلفائهم شكيمة . ومع ذلك فإنهم قضوا نصف السنة التالية في حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولأنهم طمئنوا طمحين غير كرم .

وكانت الحملة الألمانية على بولنسة قصيرة الأجل ولكنها تنسم بالكفاية . ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم اللطارات البولندية ضربت بالقنابل وعطلت أعمالها بواسطة المجهات الجوية الحاشدة على أن الجيوش البولندية التي قاتلت ببسالة عظيمة ما لبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارف في العناد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت في ١٢ من سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والعزب ستضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضاً « لسحق كل مقاومة يبيدها الأهالى الدينون البولنديون » ، وذبح الدينون البولنديون في مذابح كثيرة . ومع ذلك لم ييذل سلاحا الجوالبريطاني والفرنسي أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولنسة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تتراجع إلى لتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو في ٢٧ من سبتمبر .

وفي السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة ، وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولنسة قد غلبت

(١) الكومنترن : هي الهيئة الشيوعية الدولية أو الهيئة الدولية الثالثة . [الترجم]

على أمرها تماماً . وتقدمت تلك القوات إلى نفس التخوم التي كانت للروسيا بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقية كيرزون ، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي عادوا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون حقيقيون . وعند ذلك ردت إلى لتوانيا مدينة قلنا التي أخذت من قبل تحدياً لمصبة الأمم ، ثم اتجهت روسيا بعد ذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث (التي رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنحها ضماناً مشتركاً) ، وتم لها بمقتضاها التحكم الفعلي في وسائل دفاعها الجوية والساحلية بواسطة القوات الروسية . واتضح للبيان أن روسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق . ذلك أنها كانت على الدوام في خوف من أن تم احكامها الدول الرأسمالية مجتمعة ، وكان لها ما يورر اعتقادها في أن تعد فنلندا رأس الحربة التي يأتيها هذا الهجوم من قبلها . وربما كانت روسيا مبالغة في هذه المخاوف . أجل إن المدافع الفنلندية كانت تتحكم في الداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها . ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أمريكا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن في استسلام وصبر جميل

لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فصمدت روسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من الغارات . وهي وحشية كان في إمكان روسيا أن تستغنى عنها تماماً . وكانت الحرب حرباً شاقة باهظة الثمن على السوفييت . على أن فنلندا مالبثت في النهاية أن اعترفت بالهزيمة وعقدت المصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفي نفس الحين كانت الحرب في الناحية الغربية من أوروبا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضاً من وراء خطوط قوية التحصينات هي خط ماجينو وسجفريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم فايزر على الجناح الشمالي من الجبهة . ثم عاد الألمان لمواصلة حرب القواصات فباءوا بالفشل والخسران ، فإن الأسطول البريطاني عمد إلى استخدام وسائل فية جديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة ، ولم يلق في سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناص منها ، وهي بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس فضلا عن بضع سفن صغرى ، وكانت خسارة السفن المحروسة في القوافل أقل كثيراً

من كل ما كان متوقعا ، لذا وصلت المؤن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى ، بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق ماقدمه ، فإن البارجة سي قد ضيق عليها الحناق وانقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هي إكستر Exeter وأخيل Achilles وأجاكس Ajax ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفضيل إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم انتصر ربانها .

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت في أثناءها حالة الحمول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية ، وزادت همة بريطانيا في الاستعداد للعرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من المدافع والعتاد الحربية تعبر بحر المانش .

ومخلت فترة الحمول هذه حركة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هي مطاردتهم واضطهادهم لزعماء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجهة فقط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين لا يتجاوزون الخمسين نائبا أو اضطرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حلت في طول البلاد وعرضها وعين مكانها موظفون خصوصيون . وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حافة بحنة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين الفلاحين ، وكان كثير منها لا يزالون يرون روسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون : أهم يقانون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الذخيرة فضلا عن صفوف الجند ، وللمرة الثانية استطاع المعتدى أن يدس إسفينه بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العادي ، وذلك لأن الحياة تكتلت أيضا في أحزاب الجين المؤيدة للسيودالديه ، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأشد أخذت تسرب دون أن يدركها أو يتعدها أحد .

وزاد من مناعب الجند قسوة الشقاء بدرجة غير مألوفة ، وتضعضع الأمل إلى أقصى حد في المحصول الجديد بأوربا كلها . ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد النرويج ، إذ أصبح حياذ تلك البلاد موضع الشك ، ذلك أن الملك هاكون كان شديد الميل للانجليز والولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا ديمقراطيين بروحهم ، ولكن الحلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة المياه الضيقة المحاذية لشاطئ النرويج وفي

حدود الأميال الثلاثة التي تعدها القوانين مياها إقليمية ، كانت تستخدم محرماً تجلب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتنسل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين . وتفاقم الأمر تماماً عندما حدث ما يسمى باسم حادثة آلتمارك . فإن عدداً يتراوح بين الثلاثة والأربعائة من بحارة السفن التي أغرقها البارجة جرافسي قبل تدميرها قد هربوا في ذلك الحجاز الساحلى بإغضاء من سلطات الموانئ الترويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين رويجيين مسلحين وإنكار موظفى البناء الترويجيين وجود أى أسرى على ظهر السفينة ، فإن المدمرة تقدمت في بوسنغ فيورد ، واعتلى بمارتها السفينة للعتدية ، التي شعطت على الأرض في أثناء المعركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف باسكندنافيا منذ تلك اللحظة . فعرا الألمان الرويخ والدانمرك في وقت واحد وسلمت الدانمرك على الفور . وقاومت أوسلو هجوم للعددين ، ولكن خانها الحزب الفاشستى الرويجى نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة المضطربة . وفي تلك الأثناء كان الجمهور بريطانيا يغذى بما لا نهاية له من الأكاذيب والفخر الأجوف . فكان كل من المستر تشمبرلن والسير إدmond أيرنسايد Ironside رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية . يتباريان في الفخار الأجوف الكاذب . فيقول الجنرال أيرنسايد إن هنتر قد « فته القطار » وردد المستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام ١١٩ خاصة وأن هنتر قد كشف نفسه الآن ؛ وأخرجت الترسه رأسها من بين أطباق درقتها ١١٠ وستضرب بريطانيا صربتها الآن ١١٠ وربما كان يمكنها توجيه ضربتها ضلاً ، ولكنها لم تفعل ؛ وذلك لأن قيادتها العليا وإمارة البحرية فيها لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين للقيام بذلك . وقال الجنرال أيرنسايد : إن الجيش الألمانى جيش رفيع الامتياز حقاً ، ولكن ليس فيه ضابط خدم في الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشى . غير أن البريطانيين كان لديهم أمثال أيرنسايد من القواد المنسكين ، وقد غزا الألمان الدانمرك والرويخ في ٩ من أبريل . ولما حل يوم ٨ من مايو أجرى مجلس العموم البريطانى تحقيقاً حول تلك الهزيمة الشنعاء . وتبجلى أن خطط وأساليب هؤلاء القادة المنسكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عمياء . وإليك بضع عبارات من خطبة ألقاها المستر لويدي جورج :

« لقد نجح هنتر في وضع وطنه في مركز استراتيجى أحسن كثيراً مما يلفه أسلافه

في ١٩١٤ . فقد وقعت في أيدي الألمان اسكندنافيا والنرويج ، وهي من أعظم
الإمكانيات الاستراتيجية في الحرب . وليس ثمة فائدة تعود من لوم السويد ، والألمان
يزولون عن عينها ويسارها . وبأى حق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى ؟ ونحن
قد وعدنا بإتخاذها وحمايتها . ونحن لم نرسل طائرة واحدة إلى بولندا وتأخرنا أكثر
من اللازم في بلاد النرويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيتلر قد انحطت ؟ لقد
ألقينا الوعود لتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندة . وأصبحت وعودنا قمامة في عرض
الطريق .

» لقد وعدونا بإعادة تسليم البلاد في ١٩٣٥ ، وعرضت على المجلس اقتراحات
ضلية في ١٩٣٦ ، وعرف السكك أن كل ما عمل قد تم بغير همه تحذره وبغير أثر
فقال عادته ودون باعث قوى أو دكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزد سرعة الأمور
شيئاً يذكر بل بقي الحال على ما كان عليه من النوانى وعدم الكفاية . وعرف العالم
كله أن بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجى وقعت فيه في تاريخها .

» لقد قال المستر تشمبرلن إن ورائى أصدقائى ، وليست المسألة مسألة من هم
أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيراً وأخطر . إذ لا بد لرئيس
الوزراء أن يتذكر أنه التقى بهذا العدو الجبار في وقتى السلم والحرب ، وأنه لقي على
يديه الهزيمة دائماً . لقد طالبنا بالفضية . والشعب مستعد لاشك لبذلها مادامت له
زعامة . وإنى أفولها الآن بأن تام ، إن فى إمكان رئيس الوزراء أن يضرب لنا مثلاً
فى الضحية ، إذ لا يستطيع شئ أن يؤدى إلى النصر فى هذه الحرب أكثر من تضحيته
بمقاييد الحكم . »

وبينا بريطانيا لاتزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس المستر تشمبرلن الجاثم على
صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة فى صورة الثالث الشرس
الرهيب جورج وجوبلز وهتلر ، واستمرت آمال البشرية تتحطم وترجع القهقرى .
ولم يفكر أحد حق فى عزل السير إدموند أيرنسايد من منصبه . وما لبث أن وثب
للاشتراك فى كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فإن الضربة التالية لفنون الحرب
الفرنسية البريطانية للتداعية قد أزلت فى العاشر من مايو ، عندما اجتاحت ألمانيا بلاد
هولندة والبلجيك ولكسمبرج فى وقت واحد .

ومهما بدا عجيبا لعين دارس التاريخ في السنوات التالية (إن بقى للتاريخ دارس في السنوات التالية) فالواقع أن واحدة من تلك الأقطار الثلاثة لم تفكر يوما على الرغم من هذا الخطر المحتمل البسيط ، في إعداد خطة للدفاع بالاشتراك مع فرنسا وبريطانيا. ولعبت نفس العناصر الخائنة للترددة دورها فيما أعقب ذلك من كارثة . ومن الأسف أن الفرنسيين لم يمدو خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب « حركة » في الجناح الأيسر للكشوف كانت ناقصة بتراء جداً ، وقاتل الموالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال ، ولكن قضت عليهم الخيانة وراء حدودهم ، كما غلبهم استخدام الألمان المائل لرجال اللظات ، وهو أمر لم يكن مستعداً له بانه خيال قواد الحلفاء ، الذين لم يتح لهم إلا خمس أو ست سنوات ليدرسوا بها تلك الفكرة . ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس المصير الذي لقيته جرنيسكا ، ودفن آلاف من السكان تحت الأنقاض ، ولم يمض أربعة أيام حتى انهارت كل مقاومة هولندية. وفرت الملكة إلى إنجلترا وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بعواطف البطولة .

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء المتقلصة . وكان في أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سكودا التي أهداها المستر تشمبرلين لألمانيا في السنة السالفة . وأخذ الحظ الفرنسي في الانكسار قرب سيدان . وادفع الألمان في الاتجاه الشرقي عتريقين الثغرة التي فتحوها . فتركوا باريس عن يسارهم وتقدموا نحو بحر المانش وإنجلترا . لم يستطع الحلفاء سد الثغرة ، لذا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين في الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسى بفرنسا ، ولاح أسرها وشيكاً دانياً . وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمالي بريطانية ، لذا كان فقدانها كشفاً لبريطانيا وتعرضاً لها للأخطار . وعندئذ خطر للملك ليوبولد الذي كان قد التحس للمعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتاحت بلاده ، أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوي على أعظم مظاهر الجبن والخيانة . ففتح باب المفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ من مايو ، دون إخطار حلفائه وفي نخط نصيحة حكومته الإجماعية ، « ودون أن ياتى بالا إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائه في ساعة العسرة » .

وأوشك الجيش البريطاني على الوقوع في الأسر لولا أن أخذته من التسليم صفات جده وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب . قيادة سيئة وخيانة داهمة وجناح أيسر مكشوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دنسرك ، وتمسك بها بضعة أيام عصبية ، كما استطاع على الرغم من تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزاً هائلاً ، أن يعبر بحر المانش ، إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين الموالين . وبلغ من إبداع سلوك الجيش ، وبما انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألوان البطولة الرائعة ، أن امتلأ الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والسكدر . وقال المستر ونستون تشرشل الذى خلف فى النهاية للمستر تسمبلان فى رئاسة الوزارة محذراً الشعب : « ليس الانسحاب الناجح نصراً » وخسر الحلفاء قدراً هائلاً من المدافع والمواد الحربية . كما أن المقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تنهاوى .

وتفشى التقهقر بين صفوف الجمد . وشرع المستر تشرشل فى التفكير فى انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية المرة نفسها وإن سقطت إنجلترا صريحة فى الميدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والناذرة السككمة تتدافع تدافعاً غير كريم للفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا رجت الكثير بسبب هذا الجلاء . ومهما تكن نتيجة الحرب ، فإننا نشك فى أن ينحس هؤلاء النفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسولينى أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها فى ١٠ من يونيه ، وأخذ الجنود الإيطاليون يكثرئون من الإشارات وتحريك الأيدي على الحدود الألبية كما أخذت صور للدوتشى على الأراضي الفرنسية . وتحول إهيار الجيوش الفرنسية إلى تشيت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بوردو . وخطب الميورينو فى ١٣ من يونيه خطبة نهائية يائسة التمس فيها العون من الرئيس روزفلت . وقال : إن السكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . ورد عليه الرئيس بسرعة معبراً عن أسمى أنواع العواطف ووعد بتقديم المساعدات المادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ دات العنين : « إنى أعرف أنك تفهم أن أقوالى هذه لا تحمل أى معنى يدل على تمهدنا بالدخول فى المسائل العسكرية . إذ لا يملك أحد القيام بمثل ذلك العهد إلا الكونجرس وحده » .

وعند ذلك استقال السيورينو وخلفه في رئاسة الوزارة المارشال بيتان الشيخ الكبير الفاني وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلا . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعدو تسليما تاما ، يكاد يخالطه شيء من التعمس . ثم عمدت الحكومة البريطانية في اللحظة الأخيرة إلى تقديم اقتراح بتوحيد بريطانيا وفرنسا معاً .

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تعاهدتا على عدم القيام بصلح منفصل ، ولكن ذلك العهد نسي آنذاك ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنوداً يحيط بها الأعداء . وانهارت الجيوش الألمانية المظفرة على فرنسا ، وذهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المانش ، وهي البقية الأخيرة من دوقية نورمندى التي ظلت تابعة للتاج البريطاني ١٠٦٦ - تقع في يد الألمان ، وعندئذ شعر البريطانيون بمخاطورة مركزهم ، ولكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم ، ووجدت لسانها المعبر في المسترشرشل . وكانت موانئ فرنسا الحرية وأسطولها أيضا فوق كل شيء ، مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به ، وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طائعة ، وأقيمت في لندن لجنة قومية فرنسية برئاسة الجنرال ديغول (de Gaulle) ، لتنظيم استرداد فرنسا من برأى الأعداء . على حين أن بقية الأسطول الفرنسي قد قبض عليه أو عطل من السلاح أو ضم إلى بريطانيا . وهاجم الأميرال سومرفيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران ، منها بارجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج ودينكرك وعطلها عن العمل .

ولما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالي أول لقاء بحرى خطير ، راحت ضحيته البارجة الإيطالية المتأخرة بارثولوميو كولوني ، وهي من أسرع بوارج العالم ، إذ أصابها على الرغم من ذلك قذيفة من المدمرة الاسترالية سدنى وأغرقتها . حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفعة الماء ، أخذ معدنهم الحرييفض عنه الصدا الذي ظل يتجمع على سطحه في أثناء سنوات الانحطاط الطويلة .

ولعل شيئا من الحور قد داخل بعض النفوس المرتابة عندما عاد السير إدوموند برنساي إلى إنجلترا لتنظيم الدفاع الداخلي ، ولكنه سرعان ما رقى إلى رتبة المارشالية ومنح لقب اللوردية ، وأحيل إلى الاستيداع بنصف مرتب وأبعد عن طريق الشر . ونشأ حرس وطني أخذت كفايته تزداد ، وحل الترقب الانتماعى محل التخوف المفزوع ، وأخذ يتضح للعيان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية ، التي أخذت تجذب إليها

الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب ، ومن أبناء الإمبراطورية وأبناء الحلفاء سواء بسواء ، وأثبتت الأيام صفاء معدنهم إلى أقصى حد ، وكان احتمال النزوينقص درجات عديدة كلما تأخر يوما .

وتركز الاهتمام آنئذ على إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط ، فكأنه قد عاد أدراجه إلى الشرق ، واتضح للناس جميعا أن للروسيا رأيا خاصا بمستقبلها جعلها على الأقل لا تميل إلى العطف على الألمان كما لا تميل إلى العطف على الطبقة البريطانية الحاكمة . فعادت إلى تقوية نخومها المواجهة لألمانيا وتمصين مركزها على نهر الدانوب والبحر الأسود ، ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية ، اللتين اقتطعتها منها رومانيا في ١٩١٨ ، ولم تلبث رومانيا أن أذعن لتلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى ، ثم استجابت روسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق في وقها المناسب بشكل عجيب ، ومن ثم دخلت ثلاثتها الاتحاد السوفيتي . وأثار هذا العمل شعورا مضويا بعيد المدى لدى حكومة الولايات المتحدة ، فإنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا ، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد ضد ضمها ، فأجابته الستر مولوتوف قوميسر الشؤون الخارجية الروسى إجابة شديدة وبلغته المذهب الشيوعي المألوفة ، حيث قال : إن في إمكان أمريكا أن تعنى بأمورها الخاصة ، ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمتين المهتمتين كليهما بقضية السلام والعاجزين إن افترقا عن الوصول إليه ، ومع ذلك فلم تكن هناك في العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختلافهما في الرأي إلا صالة نصيب الطرفين من سعة الخيال .

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية في صيف ١٩٤٠ في تجميع قواته ليقا تل قتالا جديا ، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت مبهمة حمقاء ، وأنشئت هيئة خفية وشبه سرية هي لجنة سويلتون لمعالجة شئون جموع اللاجئين والأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا العظمى ، وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويد جريم اتخذ اسم كاتليف ليستر في ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية في ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سويلتون ، ويلوح أنه باشر عمله بصورة تذكركنا بدوى النزعة السادية^(١) في بغض الأجانب .

(١) السادية : ضرب من الانحراف الجنسي ، القسوة أبرز مظاهره ، وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بغض الأجانب .

الجنونى أو بعمل من عملاء النازية ، وتلا ذلك إنزال أفسى وأعنف الاضطهاد بأبناء الشعب نفسها التى كان ينبغي على بريطانيا أن تشخص إليهم طلباً للمعونة فى أثناء كفاحها فى سبيل إعادة ألوية الحرية إلى أوروبا . فقد لقوا معاملة شريرة وحشية لا تنطوى على أى حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه . فاعتقل أعداء الأداء للنازية والفاشية ولقوا معاملة قذيفة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعائلاتهم ، وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتحار . وقدما إبان الماضى العظيم لعهد كينج وبلرستون وملبورن الذى واجهت فيه بريطانيا المحالفة للقدسة ، جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال الحركات الثورية فى كل دولة أوربية . وبريطانيا العظمى هى التى أوقفت تجارة الرقيق ، وكان مما يفخر به البريطانيون أنه حينما رفر ف علمهم انتشع الناس بثوب الحرية . فأما الآن فإن الصلح وقف كالصعوق يسائل نفسه أنسيبت إنجلترا ذلك الماضى المجيد ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديمقراطية مجرد دعوى جوفاء ؟ .

وبما زاد من الواقع السيئ لهذا الاضطهاد أن الحكومة البريطانية تشبثت فى عناد بعدم إصدار أى بيان واضح عن أهدافها من الحرب ، وكانت كل قوة حرة فى العالم خارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإصدار ذلك البيان . ومع ذلك فإن الشعوب البريطانية التى أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أيديها من أغلال زعات المحافظين الثورية^(١) القاسية التى أوقعتهم فيها الحرب ...

هكذا واصل البريطانيون القتال فى الوقت الذى ساد فيه يلاذهم كفاح اجتماعى مطرد النمر ، وحدث هجوم جوى عظيم ومتواصل على لندن فى سبتمبر وأكتوبر ، وأبرز للبيان تجلده عامة الشعب وصبرهم القوى كما أظهر التزايد المتواصل فى السلاح الجوى البريطانى ، وأخذت أمريكا بزعماء فرنسكاين ديبلانو روزفلت تزداد على الأيام عطفاً على ما يذل البريطانيون من جهد فى الحرب ، وبانقضاء السنة دخلت الحرب فى مرحلة جديدة ، فإن جيوش موسولنى كانت تسير حثيثاً فى طريقها إلى مصر وقناة السويس ، وبلغ من ثقته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١) . وكانت هذه مرحلة مجد أخيرة لذلك الخلق المتفجع الأوداج . وعند ذلك كان أمثال جورب وأشباهه يرأسون قد أبعدوا

(١) الثورية Torysim مذهب شديد المحافظة على القديم .

عن رئاسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد صمدت بكفائتها الرئيس متكسّاس إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال ويفل ، فضرب الجيوش الإيطالية بشمال إفريقيا وأريتريا والحبشة ضربة قاصمة وسريعة أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقُص عشرة أسابيع حتى تمزقت اللقائنة الفاشيستية المتنفذة . وهزمت قوات السكومونوك البريطانية الفاضحة القليلة العدد والقوية العزم الجيدة العتاد - الجيوش الإيطالية المتناثرة من البحر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوى البريطاني الجيوش الإيطالية بألبانيا . ولا شك أن لو أُتيح للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالذكاء والعزم لأمكنهم في ١٩٤٠ تحطيم هجمة النازيين على الترويج . ولم تبحر الأكذوبة المسماة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابة هذه السطور (مارس ١٩٤١) ، ولكن لو أن أمريكا مدت يد العون للمادى فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنها على النحو الذي عالجوا به الفاشية . ولا يزال المحيط الأطلنطي معتركا لكفاح غير مضمون العاقبة . فالسفن البريطانية تغرق فيه بوفرة كما تغرق أخرى موالية لبريطانيا . وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل في قيام عالم جديد لا يزال يملأ النفوس بالرجاء . فهل يتحقق ذلك الأمل ؟ .

الفصل السبعون

أزمة التكيف البشرى

ليس ضرباً من الباطلة أن البشرية مصابة في الوقت الحاضر بمس من الجنون، وأنا لسنا بحاجة إلى شيء نحتاجنا إلى معاودة ضبط النفس العقلى في الجنس كله. إننا نهم الفرد بالجنون إن جانب أفعاله القالية جادة التوافق مع ظروفه التى فيها يعيش عجائبة تجعله مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين . والظاهر أن هذا التعريف للجنون ينطبق فى الوقت الحاضر على الجنس البشرى بأكمله ، وليس من المجاز فى شيء بل هو الحقيقة المجردة حينها ، أن يقال إن على الإنسان أن يتألك عقله أو يتأسك أو يهلك ويذهب جفاء . أجل عليه أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها قوة وجهداً أنفج ، وكأن به لا يجد سيلاً وسطاً بين هذين التقيضين . فهو مخرب بين السماء الأعلى والحضيض الأوهده وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو .

تعبنا فى هذه الخلاصة الموجزة للتاريخ البشرى خطى النمو المتصل للمجتمع البشرى ، ولسنا كيف كان كل تحسين فى وسائل المواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكيف أنفسهم لحياة اجتماعية موسعة الآفاق على الرغم من كل مقاومة تنبعث عن ضروب الولاء الوطيدة والديانات العتيقة والتعيز ومألوف العادات ، مع ما يقترون بذلك غالباً من الإسراف الهائل فى النفوس والتبديد التدرىع للسعادة - كما أننا خصنا فى الفصول ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ بوجه خاص عن صنوف الارتباك والفرس التى خلقها العلم والاختراع الحرفى أثناء القرن الماضى ، ووجهنا البحث خاصة نحو موضوع للشقات التى ينتجها تعقد أوضاع الملكية عندنا إزاء تلك الترية العامة الهزيلة الموجودة لدينا اليوم ، فقد أصبحت كتلة السكان العظمى متعردة . وربما كان الفصل التاسع والخمسون أهم ما فى قصتنا من فصول ، وربما كان جديراً بأن يلقى عليه القارىء نظرة أخرى . وهناك ميزة خاصة اختصت بها الملكية هى صورتها السائلة كتنقود أو كوعود بدفع التقود . ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقد تشغل قدراً متزايداً من عناية الناس واهتمامهم ، ولكن قدراً كبيراً من الأبحاث التى جرت كان غير ذى جدوى لما جرت به عادة الناس من معالجة التقود كشئ أو نظام

في حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من « مجموعة معقدة » من العلاقات ، هو مركب للملكية والنقد ، الذي كلما عدل منه جزء عدل معه الكل . مثال ذلك أنه عندما تضخم العملة وترتفع الأسعار ، يجرّد الدائنون مما يملكون ، فإذا زال التضخم وانكشّت العملة حمل المدينون عبثاً ثقيلاً . والنقد تتغير طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبيعه ، ويصرّح المليمون في شيء من التوبة أن إيجاد الائتمان على يد البنوك الخاصة يعد ضرباً من اغتصاب السلطة ، والنقد تتغير طبيعتها بتغير النواحي التي تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة ، بل عملات عديدة . وللشيوعية نوع من النقود كما أن هناك نوعاً آخر لأنصار المذهب الفردى^(١) المنظر فونوعاً لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه في شؤون التملك والتوجيه وحرية التصرف .

فإذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافي من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة ظل ميداننا يرتع فيه اللغام والضارب ، وظل مصدراً لإفساد لا نهاية له لنظام الحياة الاقتصادية اليومية ، ولكن أين لنا بالتعويذة التي تبعد هذا الارتباك . لا جرم أن ذلك يستلزم جهداً عقلياً هائلاً ومنظماً . ولن نبرح نقاسى حتى نبذل ذلك الجهد فضلاً عما سنعرض له من مخاطر ذريعة في حياتنا الدولية للهوسة ، نقاسى قلة اطمئنان ربما لاحت في أحد الأيام شيئاً لا يصدق العقل ، في ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة . وليس في أيماننا هذه رجل عاды في أى مكان يمكن أن يقال إنه بمأمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن فقط في إدراك المعيار العميق الحق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن . وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناضط محتطف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له ، دون أن يحس إلا بأقل قدر من الشكر ودون أن يدرك الثمن الذي ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن ، فقد بلغ من تغير معيار المسافات وبلغ من عظم القوة « المادية » التي في يد البشر ، أن أصبحت السيادة للنفسلة التي للدول الحاضرة أمراً مستحيلاً ، ومع ذلك فإننا نتعاق بتلك السيادة بعناد يجر علينا المصائب . فلا بد من أن تبدو بشكل ما ، الأوهام المتصلة بالمال ، وبشكل ما ، لابد لتحكم العالم في الحياة السياسية والاقتصادية

(١) مذهب الفردية : مذهب اجتماعي واقتصادي يملو بحقوق الفرد ومصاحته على حقوق الجماعة والدولة ومصالحهما .
[المترجم]

وفي بيولوجيا النوع بصفة عامة من أن يعالج بالتنظيم .

والضرورة تحتم تغير كثير من الأشياء الثابتة تغييرا يطمس معالمها القديمة تماما ، وينبغي للقارئ الإنجليزي أن لا يحز في نفسه كثيرا احتمال انتهاء السيادة البريطانية العالمية ، فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام . أجل إننا أتينا أمورا ممتازة تنطوي على السباحة والحرية ، ولكننا لم نأت منها القدر الكافي لتبرير زعامتنا العالمية ، لذا وجب علينا خلال الضيق النفسي الذي يمر بنا أن نهيب أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا لنعترف ألبتة بها في أيام دزرائيلي والغرور الذي أناره كبلنج :- وهي أن المصير المثالي للانسان هو المتجه نحو المساواة والوحدة في أرجاء العالم قاطبة . أما العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهيبة مثل أعلى غير جدير بالثقة . فعلى الآن أن نوطن أنفسنا طوعا أو كرها ، على الديمقراطية العالمية حتى لا يصيبنا جميعا ما هو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماما أنه لا بد للبشرية من القيام بمجهود تعميري هائل إن شاءت أن تعجيب شدة الزيادة في تلك الهزات العنيفة وتلك المذابح العالمية التي أنتجتها الحرب العظمى ؛ ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن مجموعة مهلهلة مرقعة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تغير في العالم شيئا مع ادعائها تسوية كل شيء ، لن تكون علاجا للعاجات السياسية المعقدة للعصر الجديد الذي ينتظرنا . ومهما تكن الأمور مستعجلة وخطيرة ، فلا بد من أن يسبق كل تنظيم عالمي جديد وفعال نهضة عقلية كبرى ، ولابد من نشوء تطور منظم وتطبيق منظم لعلوم العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردي وعلم النفس الجماعي ولعلم المسالية والاقتصاد والتربية ، وكلها علوم لازال في مهد طفولتها ، فأما الأفكار الضيقة والبائدة والميتة والمحتضرة سواء منها الخلق والسياسي فلا بد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك الجنس البشري كافة في الأصول والمصائر .

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التي تسكدس على رأس الإنسان في هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به ، فما ذلك إلا لأن العلم جلب له من القوة مالم يكن له من قبل إطلاقا ، كما أن المنهج العلمي القائم على الفكر غير الهيبات والتعبير الواضح إلى أقصى حد ، والتخطيط الناقد والمتحيز إلى أقصى حد ، يقول إن ذلك المنهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم ينهأ له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى . فالبشرية لاتزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك ، بل متاعب القوة المتزايدة التى لم تلق بعد تنظيمها . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركباً واحداً ، شأننا فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر المتجه إلى أعلى والمهادف إلى الإلام والتحكم ، لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره فى صورها النسبية الحقة . ونحن الآن فى أول مطالع فجر العظمة البشرية . ولكننا نلنس وميضاً بما تستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نحسه فى جمال الزهر والغروب وفى الحركة السعيدة للتقنة لصغار الحيوانات وفى سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ؛ كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانيات المادية ، نجدها فيما أنتجته يد الصانع من فنون التشكيل والتصوير ومن للموسيقى الرائعة ، وفى قليل من البانى الشاحخة العظيمة والحدائق البديعة القناء . لاجرم أن الأحلام تملأ رؤوسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة ولكنها لاتبرح تزداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لابد أن يحقق تماماً أجراً نخلتانا وأشدها غلوا ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وثمرات حيواننا سيعيشون فى عالم ميصبح من الفخامة والجمال بحال تفوق كل قصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة من المقامرة والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنع الإنسان ، والانتصارات الصغيرة التى أحرزها فى حالته الراهنة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى بقى على الإنسان أن يتمها بعد .

الفصل الحادى واستعون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

العقل البشرى فى أقصى توتره^(١)

— ١ —

الأحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا السفر فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ . وليس هناك ما يستحق التغير إلا النذر اليسير من حيث تتابع الحوادث . وقد حذفت بعض العبارات فى بعض النسخ لدواع سياسية ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة . وقد سجل الكتاب اليوم وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل ، ولن يكون لأحد عذر ولا إذن بإجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منزها عن كل تغير ، ويمكننا الآن إعادته إلى سيرته الأولى الكاملة ، فلقد ألم تغير جسيم بالقيم المناطة بتتابعها . على أنه يجدر بنا قبل الخوض فى ذلك الموضوع أن نذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك باختصار ، وذلك لأن كثيراً من تلك الأحداث لازال ناضرة فى ذاكرة القارىء . وفى ١٩٤٠ - ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد يمتال التماساً للوقت ويضممر الاستراتيجية بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر على الرغم مما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكاد يصدقها عقل أن يعقد المعاهدات ويتفاهم مع جميع ضحاياه الذين قرر إيقاعهم فى شركه . عدا اليهود الذين كانت نعمته عليهم قاطعة . ويلوح أن الأمريكيين كانوا بمنأى عن دائرة أطباعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم للتركز حول أوروبا . وسار مولوتوف وبوريس ملك بلغاريا ويمثل للحكومة الألوية الهزيلة القائمة فى يوغوسلافيا ، فى إثر

(١) هذا الفصل أضافه المؤلف قبيل وفاته وظهر فى أحدث طبعة للكتاب [المترجم]

خطوات المستر تشمبرلن وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تتحمل وحدها عبء الهجوم لم تريح شدته تزداد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التفاته مع مولوتوف بالفاق من ناحية روسيا . وكانت روسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى ، لذلك كانت أقرب مصدر للخطر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لذا اجتاحت هتلر بلاد الروس في ٢٢ من يونيه ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان من اليسور إرجاؤه حتى يقضى على روسيا . كانت السلطات السووية في أمريكا منقسمة إلى معسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يفضى إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر العجوز . وربما ساعد على الألمان إيصال الجنود إلى إنجلترا ، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور على الرغم من وجود أتباع موزلى ومن إليهم ومساعدتهم لهم . وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفى كل مكان ، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليزى العادى شهرة صلابه العود . وربما استنفد منه فيها مليوناً من الرجال بينما ليس لديه ربع مليون يستطيع الاستغناء عنهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكراً لاعتقال أسرى الحرب ، ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لئن استبقى النظام الهتلرى رأسه خارج المصيدة البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح المعنوية لسكان لندن الشديدى التخلط السبى التعليم الأقوياء الراس . وعندئذ بدأت الغارات الجوية التى تسمى باسم معركة بريطانيا ، فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين ، وما وفى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أسقطت مقابل ٦٢١ طائرة بريطانية قتل من ملاحها ٦٠٠ ونجا الباقون بالمظلات الواقعة ثم عادوا إلى معسكر القتال . ولكن سكان لندن المدنيين دفعوا ثمناً أفتح من هذا . فقد كان القتل حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفاً ، وكان الجرحى عشرين ألفاً ، أربع أخماسهم جميعاً فى لندن وحدها . ودمرت فى ذلك الهجوم الجوى النازى دار نقابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التى بناها السير كريستوفر رن ، وتسكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطانى قائلاً لأمريكا : « اعطونا الأدوات تم لكم المهمة » وذلك لأن أمريكا كانت لاتزال جالسة فى مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقاً حاداً ، ولكن دون أن يبدو عليها أى مظهر ينبئ بمدها يد العمل

في ذلك الكفاح . وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير إنجلترا وساعدوا في القيام بالهجوم .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أشد عمقاً وأكثر فطنة وأوسع مجالاً من مؤامرة النازي على سائر البشرية ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة ، ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية للضادة للأوربيين سنين طويلة ، وكان مبعث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الحثيث العدواني . ولم نجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً في اللغة الهندوستانية ، تلك اللغة التي تضيق الخناق على كل داعية إلى نظم الغرب وعاداته ، ولكنها وجدت من يعرضها باللغات الوطنية في صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين وعمت كل أرجاء الصين . وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صورة الزعيمة الناصرة للعالم الآسيوي الناهض ، الذي سطرت للمقادير أن يتسلط في النهاية على هذا الكوكب ، والذي كان أبناؤه قد ملأوا البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين شديد الاصطباغ بالحضارة الأمريكية ، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أيسر الأمور ردهم ثانية إلى تقاليدهم القومية ، ولم يكن اليابانيون يضمرون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضمرونه للأوربيين كافة ، وكان رأى هتلر في البداية في ذلك الشعب الأصفر الضعيف الأجسام لا يقل عن هذا انحطاطاً واحتقاراً .

ولم يلبث هذا المشروع الذي طال الأمد بإعداده ، أن قذف على العالم في ٧ من ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الديبلوماسيون اليابانيون لا يبرحون مخفقون من التسهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات في واشنطن . وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقد هادئاً في مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عند ما فاجأه اليابانيون ، وقعدت في تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفيتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها في حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأغرقت البارجتان البرنس أوف وينز والرييالس (لأنهما كانتا بلا عون جوى ١١١) بطرايد أقيمت من الطائرات اليابانية ، وهل لي أن أكرر هذه السجلات المشعونة بالحق الأسيفة . . . لأنهما كانتا بلا عون جوى ؟ ! ولنا نعرف إلى يومنا هذا من كان المسؤول عن ذلك التقصير . . .

لقد صد وىفل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاله ، ولكن سحب جيوشه إلى البلقان أضعف حملته ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية ، وفاز الجنرال مونتجومرى فى أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٣ بمركة العلمين للدوية ، ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيزنهاور . فوقع الألمان بين نارين فسلموا فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطوية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء فى الشرق الأوسط ، فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئا من العطف على المحور . وفى أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتموين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ . وفى يوليه سقط موسولوى ، وفى ٣ من سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت الحرب على ألمانيا فى ١٣ من أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حربا مريرة حتى كسرت فى مايو ١٩٤٤ على الخط القوطى بالقرب من بيزا ثم استسلم الألمان بعد ذلك فى أبريل ١٩٤٥ .

وفشل الألمان عند ستالينجراد عشر مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم فى ربيع ١٩٤٤ وحرروا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا ، ثم بدى هجوم عام أخرجت به فنلندة ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا ، ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان فى أكتوبر ، وفى نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدى الألمان ، وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مساعدة ثمينة ، وثمة هجوم روسى أخير حرر بولندة ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير - مايو ١٩٤٥) .

ومهد الطريق للجهة الثانية فى الغرب ، بقذف ألمانيا بالطائرات بغاية الشدة ، وقتعت الجهة بشمال فرنسا القرية بقيادة أيزنهاور ، ثم تقدمت الجنود المتحالفة من الساحل

بمنطقة الأردن Ardennss فصدها إلى حين ، ثم ما لبثت أن كسرت خط سيجفريد وعبرت الرين في مارس ، وفي ٧ من مايو سلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاحت اليابانيون شبه جزيرة الملايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والهادي ، ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما في يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يولييه ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين ، وكان الاستيلاء على أيوجيا وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما في ٦ من أغسطس وأخرى على نجازاكي في ٩ من أغسطس ، وأعلنت روسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا . وفي ١٤ من أغسطس أعلن هيرو هيتو قبوله لشروط الحلفاء .

— ٢ —

معرفةنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى ١٩٤٠^(١) . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبة من الأحداث أرغمت المشاهد الذكي إرغاماً على أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفاً ، وأن الإنسان العاقل *Homo sapiens* ، وهو الاسم الذي سره أن يطلقه على نفسه يعد في صورته الحالية شيئاً منهوكاً لا غناء فيه . ذلك أن النجوم في مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن يخلى مكانه لحيوان آخر أحسن تكيفاً لمواجهة المصير الذي لا يرحم يطبق على البشرية بصورة أسرع وأسرع

وربما كان ذلك الحيوان التكيف الجديد صنفاً آخر غريباً عنا تماماً ، وربما نشأ كتعديل جديد للفصيلة البشرية *Homindae* بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

(١) وأضاف المترجم لبذة عما عقب ذلك من أحداث الحرب المظلمى .

البشرية ، ولكن لا شك في أنه لن يكون بشرياً فليس أمام الإنسان إلا مخرجان أحدهما يرتفع قائماً إلى السماء وتأنهما يهوى سقيماً إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذي لا هواده فيه في زماننا هذا وفي كل أوان هو أن يتكيف أو يهلك .

وما أكثر من لا يستسيغون مناقشة هذا التخيير الفصيح بين السماء والحضيض ، فإن القوى التي أنشأتنا في نهاية تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حينما بتثبت بفكرة الاعتداد بالفس تثور به نفوسنا ضد مجرد التفكير في إخلاء العالم للفئران أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى فذرة مزودة بالجراثيم الويلة المعدة للقضاء علينا وكم آتني أن أحضر الجنس البشرى وهو يوجد بأنفاسه . وأن يكون لى رأى في حلول السيد الجديد للخليقة عمله في النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذلك أن يعاملنى كما عامل أوديب أباه ، فيقضى على أبا أيضاً !

قلب الطرف فيما حولك من هذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله منتثرة في أرجائه ، ولا بد لعظمنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هذا التوزيع المتسع للمنتجات الإنسانية ليس إلا ثمرة مائة ألف سنة الأخيرة . ولا بد أن المواد ذات النشاط الإشعاعى وعملية تحلل الراديوم قد بدأت في المجموعة الشمسية في مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فعلاً قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بزمان طويل ، يقول الدكتور ن . ه . فذر بعمل كافندش بكبرديج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعى طبيعية بمحنة ، بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة ما من مراحل التطور الكونى ، ولعلها لا تزال تحدث في بطون النجوم الأشد حرارة ، التي حدث بها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث ، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس ، كما أننا كسكان للأرض قد جرت عادتنا التقليدية بالاعتد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التي تقارب ثلاثة آلاف للمليون سنة (٣ × ١٠^٩ سنة) منذ أن حدث الاتصال » .

وقد حدثناك في الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخى حديث الحياة على هذا الكوكب بقدر علمنا به في ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك واضحاً بأى حال عن حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فذر بجلاء تام . فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى وجدنا أنفسنا اليوم

نواجه أشد أنواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلباً للأوضاع . وسيعمد الكاتب في هذا الفصل الختامى الذى سيكون من الأنسب تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، إلى النقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردها على الأسماع فى نور التحقيقات الجديدة التى فرضت نفسها قسراً فى عقول المشاهدين الأذكياء ، وهى لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التى سردها من قبل ولكنها مستصاغ صوغاً جديداً فى إطار من الآفاق الموسعة توسعاً هائلاً . وهذا الإطار الزمنى شأنه شأن الفضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذى يشكل عقولنا ، فنحن نفكر فيه ونستشعر صفة خادعة فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد ، على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوى على أى مدلول مطلقاً ، فإن أخيلتنا الإبحائية لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقائق الأولى لساعة الـ ١٠ يوم .

ثم أصبح الكوكب الأرضى فيما بعد على التدرج موطناً محكناً لذلك الوافد العجيب : الحياة . وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يعلمها أحد وعلى مسافة لا يدركها . ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قرراً تابعاً تمكنت موجة من موجات المد أن تهبط من سرعته حتى ألزمتها فى النهاية أن يدبر وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الآبدين ، ومن ثم يكون الشهر القمري يوماً قمرياً ، وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث إن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة المزنة ، لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفى زمن ما من ذلك الطور المتدفع وفى ظل خيمة من كثيف السعائب البخارية بدأت سلسلة الدقائق الإيقاعية التى يسميها الحياة .

على أن ظلمات البحر العميق التى لا نهاية لها ، وجفاف الأرض اليابسة التى لا هودة فيه ، لم ينطويا على أية إمكانيات للدقات الإيقاعية . فعلى شئ لم يكن ليوجد . كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين فى إحدى مقالاته المبسطة الجديرة بالإعجاب . إلا فى المنطقة التى يقابلها على الساحل المد والجزر . فكان النور يعقب الظلام وتقب الظلة النور ، وبدأت الحياة — تلك الدقة العجيبة فى المادة الموات . فإن علماء الحفريات الذين يبحثون على الدوام عن شئ يهديهم فى ظلمات سجل الصخور ، يجدون إشارات تنبئ بوجود طور حرم من كل أثر للحياة لا يعلم أحد مداه قبل أن تهاذ شعة الشمس فعلاً خلال ذلك الستار البخارى وافتتحت العملية المهمة بالحياة .

ولا تزال فقرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق . فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لا يوجد أقرب نظير لها إلا في العناصر العشائية للسكر وسكرية الحياة المعاصرة أو في مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكرار هائل في الديايطيم^(١) وما مائلها ، وحدث في زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت طفرة موالية مادة خضراء هي الكلوروفيل ، التي كانت تنتج تحت نور الشمس مزيجاً شبه دائماً يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة المد والجزر .

وهذه الأشكال بكل ماحوت من أضرب يتجلى فيها ميل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها *Leanviol* وهي تظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذي أصبح الموضوع الجوهري لتاريخ الحياة ، ثم لانتلب هذه المادة الحية أن تنقسم في لحظة بالكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف المتغيرة وتظل حية هنا وإن جف غيرها هناك أو هلك ، وكأني بهذه الأفراد خالية من أى دافع للصراع مع الطعام الذي تتناوله أو مع إحداها الأخرى . فإذا هي التقت تدفقت معاً ثم تباعدت ثانية وقد زادها الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحيوية ذاك دون وجود أى علامة للتمايز الجنسي ، فهي أمر يتم بين أنداد .

— ٣ —

بزوغ فجر العائلة

من الأمور التي بدأت بداية واضحة في تاريخ الحياة تكوين فارق بين أفراد بحيث ينفرد فريق منهم للمخاطرة ويعترض للتجارب والموت النهائي ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتنهى كبريات منحصبة . ومنها ما يتبرعم وينقسم ، ومنها ما ينتشر بالتقطع أو التوالد

(١) الديايطوم (*Diatom*) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحلب المجهرية ذات الخلية الواحدة ولها عارتان وتعلقان كالصندوق وغطائه .

المعذرى (كما في الذبابة الخضراء) وما مائل ذلك ، ولكن أمثال وسائل التوالد هذه تبقى النوع ثابتا ، غير قابل للتكيف وبعيداً عن كل مناعة ، ولا بد أن يحدث إن عاجلا أو آجلا ، إن قدر للنوع البقاء - تغيير غايته والقوة والتوزيع في الذكر والأنثى اللذين نجدهما مستقرين آنفاً في صورتها الراهنة في أبكر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه .

وهناك تقلبات بعيدة في تمايز الجنسين حتى في النوع نفسه تقتضها الضرورات المتغيرة التي تفرضها الحياة . وقل من وقف لتمعن في جنس الخمر أو الفمرة عندما يلتقي به صدفة ، ولكن كيف يتضح جنس قطة مارة بنا أو أرنب أو قنفذ ، أو ذئب في سربه حين يقتنى أثرنا أو ذبابة أو سحلية ؟

وحق مياسم الجنس في « الإنسان العاقل » أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مائة سنة ، ذلك أن المبالغة في تضيق الحصر بالضغط الشديد عليه بالمشدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل البنات تدليلاً لانفهم له معنى . وكان للدراجه بعض الفضل في ذلك الانطلاق . فإن البنت النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف وتجد العائدة تعود عليها من ذلك بينما جدتها تأخذ قسطاً من الراحة في فراشها . وكما أملت بنا أزمة أغمى على جداتنا ولكن من ذا الذي يسمع اليوم عن نساء يغمى عليهن ؟ فالآن يغشى على الرجال أكثر من النساء ؟

لقد حدث في أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم في علاقة الجنسين بعضهما ببعض في المجتمع البريطاني ، وبالعلاقات المتعلقة بالعمر في الزواج ، وبالتوافقات الاجتماعية المترتبة على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ؛ على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفاً هرماً متزوجاً من ربيع مزهر . وربما عاد رأى الناس أدراجهم ثانية . وربما لم يكن مانشهده خروجاً على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع للنشأ على خطة مقصودة ونقص الطعام وما مائله من عمليات اقتصادية ، وموجات العطف على الأمومة أو النفور منها والشعور القوي أو انعدامه والليل الطبيعي إلى الوقوع في شرك الغرام مقترناً بالرغبة في تثبيت إحدى العلاقات بواسطة مصلحة مشتركة ومستديمة ، والفخر بالأطفال الحسنى التكوين جنائياً وعقلياً ، ربما قدر لهذه جميعاً أن تلعب أدواراً

لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف الكافي إزاء الضرورات التي تهدد من حولنا كالرجل وتضطرننا إلى أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام العائلة . والواقع أنهم لا يفعلون في ذلك السبيل أى شيء . فإن العائلة موجودة منذ تناسلت الحيوانات وتزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها . ولكن التدخل الكهنوتي قد حط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم يولدوا لأب شرعى بأن حملهم تم في ظل الخطيئة ، جاعلا من مولدهم غير الشرعى شيئا غزيا بطريقة لانهم لها معنى ، ومقياسداً منيعاً بين الحقائق والإمكانات الجوهرية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصغار حتى يفوت الأوان فلا يعودون يستفيدون من معرفتهم بها .

— ٤ —

انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشرى إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به . وساعة الراديوم^(١) تعطينا كمعمر للحياة فترة عظمت أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون من السنين الأرضية ، ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفي كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تعاقب مستمر في أشكال الحياة التي تسود الموقف على ظهر البسيطة . أجل لقد ساد كل منها بدوره ثم عاد كل منها فأزجج من المشهد بدوره أيضاً وحل محله شكل أحسن تكيفا . وانصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين لامفر من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم . فالأمر الذي لا مرد له هو أن عش — أجل عش وبأكبر ما يمكن من الوفرة الزاخرة . عش أكثر من إخوانك

(١) المفروض أن المؤلف يشبه إشعاع الراديوم المنتظم على مر العصور بدقات الساعة التي بحسب الزمن .
[المترجم]

وكن أكبر حجما منهم والتمهم منهم أكثر . وفي الأيام الأولى ، كان ذلك الأمر الحتم غير مقيد بأى دافع يدعو إلى المساعدة المتبادلة ضد منافس مشترك . لذا أكل الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوهم فعلا ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر ، فسجل الصخور لا يظهر فيه دائماً في نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام .

ويدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيرا يجعل سيد الخليقة القديم للفرط النمو غير متجانس مع ما يحيط به من بيئة ، وإذن فلا مفر له من أن يذهب . والعادة - وإن لم يكن ذلك دائماً - أن يخلقه شكل للحياة مختلف تماما ولعله يصنع صنيع القروش فيتضاءل عدده حتى يدركه الطاعام ، وعندئذ يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الطبيعة قد أعدت بديلا منه . ومن المعلوم أن القروش وأشباهها تعيش وتموت بنفس ولا يبقى منها شيء يصبح حفرة . ونحن نعرف أن هناك في هذا العصر قروشا هائلة تصطلي هي وأمثالها في ضياء الشمس منذ عصور متعاقبة ، منذ أن وجد لها القدر الكافي من الأسماك لتلتهمه وتتفدى به . فنحن في ذلك كله نتخبط في غياهب الحدس والتخمين .

— ٥ —

النضج المبادر : إحدى وسائل البقاء

أنتجت الطبيعة في لعبها الأبله بإمكانيات الحياة مستحدثات مياغة في السجل بزيادة سرعة إخصاب البويضة وإنضاجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة . وينبغي ألا يذهب عن بالنا دائما في مثل هذه السائل أن ما نرثه إنما هو دورة حياة كاملة وليس شكلا ثابتا لبائع ، وحدث المرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلا بالغا من السجل فصلا تاما وأفته وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشكل الناجح تناسليا .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيدة الخليقة فيه الشويكيات Echinoderms والسمك النجمي وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعي . ولم يكن لديها شيء من قوة التنقل الحركي في أثناء طور بلوغها أو كان لديها منه قدر قليل ، كما كان الكثير منها كالزنبقيات Crinoids مثبتا في الجذور وقد تحولت للزترات Juncata هي وبعض

الأشكال الشعة الأخرى إلى إنتاج السليولوز، وكانت بارزة الزعة النباتية في طريقة عيشها وعاداتها . وكانت تلقى في الماء بيضها المنحصب، وساعد على انتشار هذا البيض نشوء تكتوينات إضافية صلب بها عود اليرقات المنقذة على غير هدى ورهبت محركتها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقرى لهذه الأشكال المنبثة المتقلة باسم الحبل الظهرى Notochord كما أطلق اسم الحبلات على شكل الحياة السمين الطيبة الجديدة New Fore و«الطراز المتأخر Aft» الذى كان الحبل الظهرى هو البشير الآذن بهما؛ سميا الحبلات Chordata كقفيض لسلسلة الأشكال التى ليس لها حبل ظهرى من أمثال السمك النجمى وقنفذ البحر وخيار البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة للخليفة في زمانها . ولا يخفى أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه بما في ذلك الإنسان يدين بوجوده لهذه الزروة التى أصابت الطبيعة ، ولم تكن تنطوى على أى سبب عقلى بأى حال ، لقد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهرى في تطور الحيوانات المقاربية جميعاً ، ولكن تغزوه وتحل محله في جميع الأشكال العليا مادة عضروفية أو عظمية ، وهو يظل في سمك الجريث Hagfish والجلسكيات Lampreys طول حياتها ، وهو يصل إلى موائدنا ممثلاً في هذا النوع الأخير .

— ٦ —

الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب المواضع التى يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة عن الصدام الذى لامر من حدوثه والناشب الآن بينه وبين الشباب . إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر ، ولكنه لا يعتقد أن أى شاب يصغر مثلاً عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التى يتقبلها بها . فإن كل شاب حتى قرابة ذلك السن في حالة صراع من العالم ويبنى أن يحصل على ما يريد منه ، فإن هو فعل ذلك فلا بد أن يكون شاباً ضئيل الخط جداً من الحيوية حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم « وتقبل الأشياء على علانها » .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في سنته التاسعة والسبعين ، بعد أن عاش عيش
الرح واليسار وقد دفأ كلتا يديه على نار الحياة وها هو الآن مستعد للرحيل عنها وقد
أخذت تنحدر به في دور من العلة والوسوسة . وهكذا ينتظر خاتمته وهو يرقب البشرية
وهي لا تزال متحمسة لاستخدام ما جمعه من خبرة استخداماً نافعاً يعينها في هذا الزمن .
زمن الاضطراب العقلي . ولكنها لاتسكبد تلك القوة المتوهجة التي تدفعها للوصول مع
الحياة إلى نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضروري من تكوين أى فئ سوى ذكرها كان
أم أنثى .

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين يحس نفس إحساسات المؤلف . فهو قد كون
نفسه عندئذ . ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثاله من كبار السن يصوغون ويستكملون
ويفصلون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبوأ فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة معينة في
الحدة في معظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه المتواصل بعلم الميولوجيا ربما
كان السبب في اتصاله الوثيق بالحقائق الحية اتصالاً أوثق من اتصال السياسيين أو
المضاربين الماليين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى المشاغل ، على أن ذلك ليس
وسيلة رتق الصدع القائم بين المسنين والشباب . وسواء أكننا نحن المسنين نرقب
ما حولنا بأمل أو بسوء نية ، بمجد أو بكرم خلق ، فإننا لامتلك إلا أن نرقب ولا نستطيع
تجاوز ذلك . لقد عشنا بالضرورة أربعين تقريباً ، والشباب هم الحياة ، ولا يعقد
أمل إلا عليهم .

ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية في
مدارها قد أخذت سرعتهما في الهبوط ، فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك
الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد العصور الباكرة لسجل الصخور (إذا
هو قيس بدقة وضبط ساعة الراديوم) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماماً وسرعة
العصر الكايوزوى . أجل إن الأشكال هي نفسها لم يداخلها تغيير ، ولكن النسب
مختلفة . وربما كان ذلك التباطؤ الدينى مستمرا وربما لم يكن كذلك ، على أن استمراره

هو الأرجح في نظر المؤلف . ولكن من يدري ؟ على أن أحوال حيوات الفرد والنوع يلوح أنها كانت تتقلب سريعاً ومتسماً في تلك الأزمنة للندفعة .

ولكنا على يقين من شيء واحد . وذلك أنه على الرغم مما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم نستطع أن تلقى ظلاً من الشك على ما يسميه العلماء إلى الآن باسم « نظرية » النشوء والارتقاء العضوى . وعلى الرغم من عنيف الكذب والعواء الذى أذاعه المنقون المحدثون ، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يستطيع أن يعس بأى سوء الطبيعة النبعة لقضية النشوء والارتقاء . وهناك كتيب جدير بالإعجاب كتبه ا . م . دافيز وأسماء « النشوء والارتقاء وناقده المحدثون ^(١) » ولخص فيه هذه القضية تلخيصاً وافياً ومقنعاً . فإلى ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارىء الذى لا يجد مورداً جديراً بالثقة ينتهل منه .

أما الشيء الذى يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية في سرعتها . ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ؛ والعقل البشرى لا يزال فعالاً ناشطاً يتعقب النهايات وللتوت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور - مع تذكر سنه - يرى أن العالم منك خال من كل قوة تعيد إليه العافية ، وقد أبدينا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب نزعة ترجو منتهى أن يوفق الإنسان إلى التخلص مما يقيد من اشتباكات ويبدأ طوراً جديداً خلافاً للصياغة الإنسانية . ولكن خاب الفأل في السنتين الأخيرتين إزاء ما تجلى لنا من عدم كفاية عامة ، وحل محل التناؤل ضرب من الاستخفاف الهادى ، فكبار السن يسلكون في معظم أمرهم مسلكاً نسبياً يدعو إلى الاشتزاز ، كما أن الشباب يتصف بالحقاقة وسرعة الانفعال وسهولة الوقوع في شرك الضللين ، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السماك أو يهوى إلى الحضيض وكأنى بكل الظروف تعمل على ترديته إلى حضيض الهوة وإخراجه من مسرح الحياة فإن هو ارتفع إلى السماك كان التكيف المطلوب منه عظيماً يضطره ألا يظل إنساناً ؛ ولعلكم تذكر من العنواف الثاين لهذا الفصل أن الناس العاديين فى أشد التوتر ؛ فليس فيهم من لعله يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف ، فأما بقيتهم فهم قوم لن يهتموا بالأمر ، لأنهم يجدون أنواع الخدرات والعزاء التى يحبونها ، لذا ينبغي لنا

أن تختتم هذا التأمل الفكرى حول الطور الأخير فى التاريخ العجيب للشيء الذى يسمونه الحياة باستعراض تعديلات النوع الإنسانى التى تحدث فى هذه الأيام .

تظهر الحيوانات الراقية كمخلوقات غابات تتصل بصلة القرى بمجموعات من أكلة الحشرات ، بدأت حياتها شجرية واكتسبت بين الأغصان حدة العين والتوافق العضلى ؛ كانت مiale إلى العشرة وازدهرت ازدهارا واسعا ، حتى إذا حدث لها الازدياد للمعاد فى الحجم والوزن والقوة ، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض ، وقد بلغت آنذاك من الكبر ما يجعلها تستطيع أن تتعدى وتقاتل وتتفوق فى الدهاء والحيلة على آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم العابة ، وقد مكنتها هيتها شبه القائمة من أن تنصب على قدميها وتضرب أعداءها بالأحجار ، وهى سلاح جديد لم يسمع بمثله أضيف إلى الأسنان والمخالب . ولكن ميلها إلى التعاشر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات رحبة من المواد الغذائية . وذوى الصغار أمام الكبار ، وفقا لنظم الحياة القديم الأمد وطورت القرود العليا نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عال . وطى امتداد هذا الخط ساروا حتى أصبحوا مانراه حولنا فى الوقت الحاضر من غوريلا وشمبانزى وأورانج بونانج .

- ٨ -

النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لطروف قاهرة أخرى خارج مناطق الغابات فى أثناء مرحلة تقلصت فيها تلك الغابات . فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليقة بالشب والسهوب القاحلة . وتقلص مقدار الأطعمة المتخذة من الحضر ، لذا أصبحت الحيوانات الصغيرة واللحم بوجه عام جزءا متزايدا الأهمية فى الطعام . وكان أمامهم كما هو الحال دائما الاختيار بين بديلين : فيما التكيف وإلا فالهلكة ، وكان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن نجت من مذمة عالية لها . كانوا أكثر انتصابا من القرود العليا بالقلبية ؛ وكانوا يحرون ويصطادون وأوتوا من الذكاء ما جعلهم يتعاونون فى صيدهم .

كانت هذه القردة الأرضية - هي الفصيلة البشرية Hominidae ، وهي سلسلة حيوانية جائعة وكاسرة . ولما كانت حيوانات تعيش في العراء ولها قدر كاف من الذكاء يجنبها الفرق كانت البقايا المنفردة والدالة على ظهورها قليلة العدد متباعدة ولكن فيها الكفاية . فلئن لم يتركوا كثيرا من العظام ، لقد نثروا في العالم أدواتهم ، ذلك أن وضعها القائم حرر يدها وعينها وأوجد بينهما تعاوناً أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . كانت تستطيع القبض على المراتات والأحجار لتستخدمها في أغراضها . وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شكلاً أكثر حدة ، فإذا تطاير الشرر بين الأوراق الجافة التي كان يحجم بينها وظهرت النار الحمراء كالأزهار كان ظهورها هادئاً ومألوفاً بحيث في بيعت في قلبها الخوف ، ولم يكن أى كائن حتى آخر قد شهد النار إلا في أثناء النكبات الباعقة الرعب في قلوب الحيوانات ، حيث كانت تتعقب كل شيء دون رحمة ، وكانت الديبة - حتى دية الكهوف - تفر من النار والدخان على حين أن الفصيلة البشرية اتخذت من النار صديقاً وخادماً . وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل المغارات وأساها من الأماكن المستورة وتركت نيران الدار موقدة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لمصور الجليد المتعاقبة . كانت تخرج للصيد بصيحاتها وحركاتها الغليظة الشاذة . وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وأثقل كثيراً من الإنسان ، فالأيدي الثقيلة التي اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال الظران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرقيقة نسبياً التي صنعها رجال العصر الحجري القديم المتأخر بمنتهى النجاح ، بيد أن الأداة الشليانية الزائفة لا تنقل صعوبة وثقلاً عن أى آلة حجرية شبه إنسانية ، فالأداة الشليانية إنما هي قلب ظرانة عظيمة ، بينما الأداة الإنسانية التالية شطفة من قلب ظرانة بضربة .

يخرج المخلوق المسمى بالإنسان العاقل من بين الأنواع البكرة للفصيلة البشرية خروجاً جلياً جداً برصه فلة أخرى من فلتات دورة الحياة نحو صورة طفلية وشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهي لمتات لعبت دوراً هاماً جداً في التاريخ للتغلب للساكنات الحية ، وهو ليس للمعادل للبالغ القبيح من إنسان هيدلبرج أو نياندرتال وإنما هو وفي أطوار الاستهلاكية الطفل التجريبي اللعوب القابل لتعلم السريع الضحك

الذى لا يزال مكلفاً بالخضوع الاجتماعى بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنسى ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تساعها أنا بعد آن إزاء كل طور بلوغ نهائى وضخم ومستبد ولذا يتر هذا الطور من الدورة، فالإنسان البدائى البالغ الغليظ الضخم يخفق ويحل محله طراز أكثر منه شابا ، طراز آخر مختلف تماما كما بين السجل ذلك بجلاء نام، ولكن أطوار الانتقال وطريقته لا تزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تزواج وتتوالد ، وربما كان هناك تزواج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت قرات من الانعزال بإنتاج أشكال أخرى عملية شبه ياندرتالية أو شبه زوجية أو شقراء أو قاعة أو طويلة أو قصيرة لا تزال قادرة على الزواج والتوالد على نفس الشاكلة التى أنتج بها السكلاب عددا لانهاية له من الأجناس التى تستطيع بسهولة أن تهجن ، بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينها ، وربما اقتلت العائلات والقبائل فيما بينها ومحا الظافرون بميزاتهم الفارقة بالزواج مع أسرامم من النساء . هذا وإن علم البشرىات للقارن يحل يبطء معقدات قصة الطريقة التى ذوى بها الإنسان البدائى Homo الذى بلغ جنسه حد الكهولة والذى لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركا من ورائه الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل ، الذى هو فى أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم ميال للتجريب من مهده إلى لحده .

هذا وإن عبارة « فى أحسن أحواله » هى زبدة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات بعيدة فى مدى قابلية البشرية المعاصرة للتكيف العقلى ، ومن الممكن أيضاً أن كتلة البشرية المعاصرة قد لا تكون سهلة التقبل للأفكار الحديثة كعقول الأجيال الأبركر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الحائل العميق الشديد لم يزد إلى الحد الذى يساير به امتداد الجماعات وللنظرات الإنسانية وتعقيداتها وتلك هى أحلك ظلال اليأس التى تسقط على آمال الإنسانية .

ولكن روحى ومزاجى يمحلانى لا أشك مطلقاً كما قلت آتفا فى أنه ستوجد تلك الأقلية الصغيرة التى ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق.م في شبه الجزيرة الإسبانية وفي إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بشمال الهند ؛ وكانت يد النعمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر المثرامية ، عصور تحتمس الثالث وأمينوفيس الثالث ورمسيس الثاني ، كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعاف . وكانت إسرائيل متحدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل . وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان متربعا آنذاك على العرش . وفي ذلك العام كان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق.م) ملك الإمبراطورية الأكادية السومرية ذكرى حقيقة في التاريخ البابلي ؛ أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر . وقد توفي حمورابي قبل ذلك بألف سنة . وصار الآشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حرية . وكان تيجلاث بلسر الأول قد استولى في ١١٠ ق.م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور وبابل لازالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد ، وكان عمر ستون هنج بأجلته في ذلك الأوان بضع مئات من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان ببلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى وكانت أيام عظمة الأرسك بإيطاليا الوسطى . ونحن نبدأ قائمة التواريخ المحققة بالآتي :

قبل الميلاد

- ٨٠٠ بناء قرطاجنة
٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر (وتأسيس
الأسرة الخامسة والعشرين)
٧٧٦ إقامة أول أولبياد ببلاد اليونان
٧٥٣ بناء روما
٧٤٥ فتح تجلات بلسر الثالث بابل
وأسس الإمبراطورية البابلية
الآشورية الجديدة
٧٢٢ سلب سرجون الثاني الآشوريين
بأسلحة من الحديد
٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم
٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر
ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين
الإثيوبية
٦٦٤ استرجع أسياتيك الأول حرية
مصر وأسس الأسرة السادسة
والعشرين (حتى ٦١٠)
٦٠٨ نحاو ملك مصر يهزم يوشع ملك
يهودا في معركة مجدو
٦٠٦ استيلاء الكلدان والميديين على
نينوى . تأسيس الإمبراطورية
الكلدانية .
٦٠٤ رد نحاو إلى نهر الفرات وتقلب
نبوخذ نصر الثاني عليه (أرجع
نبوخذ نصر اليهود إلى بابل)
٥٥٠ خلف قورش الفارسي سياكارس

قبل الميلاد

- الميدى . قورش يقهر كرويسوس
٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان
وكذلك أيضاً ككونفشيوس
ولاهوتسى
٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس
الإمبراطورية الفارسية
٥٢١ حكم دارا الأول بن هستاسبس من
الدردييل إلى نهر السند . حملته على
بلاد الإسكنديين (الروسيا)
٤٩٠ معركة ماراثون
٤٨٠ معركة ترموبيلاي وسلاميس
٤٧٩ معركة بلاتيا وميكالى تهيان طرد
فارس
٤٩٤ الإغريق الصقليون يدعرون
أسطول الأترسك
٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)
٤٠١ تراجع العشرة آلاف
٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا
٣٣٨ معركة خارونيا
٣٢٦ عبور الجند القدونية إلى آسيا
ومقتل فيليب
٣٣٤ معركة جرانيكوس
٣٣٣ معركة إسبوس
٣٣١ معركة أريلا
٣٣٠ مقتل دارا الثالث
٣٢٣ وفاة الإسكندر الأكبر

قبل الميلاد	قبل الميلاد
٢٠٢ معركة زاما	٣٢١ قيام شندرا چوبتا بالبنجاب :
١٤٦ تدمير قرطاجنة	السمنيور يهزمون الرومان تماما
١٣٣ وهب تالوس مملكة برجامة لروما	معركة مفارق كودين
١٠٢ صد ماريوس الألمان	Caudine Forks
١٠٠ انتصار ماريوس . (الصينيون	٢٨١ غزا ييروس إيطاليا
يفتحون وادي نهر تاريم)	٢٨٠ معركة هرقليا
٨٩ أصبح الإيطاليون جميعاً مواطنين	٢٧٩ معركة أسكولم
رومانيين	٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى
٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتا كوس.	واستوطنوا غلاطية
٧١ هزيمة سبارتا كوس ونهايته	٢٧٥ ييروس يفادر إيطاليا
٦٦ بومبي يقود الجيوش الرومانية إلى	٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم
بحرقزون ونهر الفرات. ويلتقي	آسوكا بإقليم بيهار حتى ٢٢٧)
بقبائل الآلاني .	٢٦٠ معركة ميلاي
٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبي عند	٢٥٦ » إكنوموس
فاراسالوس	٢٤٦ أصبح شي هوانج في ملكا على
٤٤ مقتل يوليوس قيصر	تس ان
٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤	٢٢٠ صار شي هوانج في إمبراطورا
ب . م .)	للصين
٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري	٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم
	٢١٠ وفاة شي هوانج في

بعد الميلاد

بعد الميلاد

- بدء الحقبة المسيحية
١٤ وفاة أوغسطس ، وتولية
الإمبراطور تيربوس
٣٠ صلب يسوع الناصري
٤١ كلوديوس (أول إمبراطور تعينه
الكتاب) يوليوس الحرس البريتوري
العرش بعد مقتل كاليغولا
٦٨ انتصار نيرون (تولى جالبا
وأوتوفتيوس على التعاقب)
٦٩ الإمبراطور فسبازيان
١٠٢ بان تشو على بحر قزوين
١١٧ هادريان يخلف تراجان الإمبراطورية
الرومانية في أوسع مدى بلغته
١٣٨ (كان الهندوسكيذيون يقضون
عندئذ على آخر آثار الحكم
الهليني بالهند)
١٦١ ماركوم أوريليوس يخلف
أنطونيوس بيوس
١٦٤ بدأ الطاعون الكبير ، وامتداده
حتى وفاة ماركوس أوريليوس
(١٨٠) ، كما أنه أفسد آسيا كلها
(بدأ في الإمبراطورية الرومانية
قرن من الفوضى والحرب)
١٢٠ نهاية أسرتهان ، بدأ عصر انقسام
بالصين دام ٤ سنة
٢٢٧ أردشير الأول أول شاه ساساني

- يقضى على الأسرة الأرشكية
بفارس
٢٤٢ بدأ ماني تعاليمه
٢٤٧ عبر القوط الدانوب في غارة
كبيرة
٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل
الإمبراطور ديكويوس
٢٦٠ سابور الأول ثاني شاه ساساني
استولى على أنطاكية ، وأسر
الإمبراطور فاليريان ، ويقطع
عليه الطريق أنشاء عودته
أوذينا سيوس ملك تدمر
٢٧٧ صلب ماني بفارس
٢٧٤ أصبح دقلديانوس إمبراطوراً
٣٠٣ اضطهد دقلديانوس للمسيحيين ،
٣١١ جالريوس يتخلى عن اضطهاد
المسيحيين
٣١٢ أصبح قسطنطين الأكبر
إمبراطوراً
٣٢٣ قسطنطين يرأس مجلس نيقيا
٣٣٧ تعميد قسطنطين على فراش موته
٣٦١ - ٣٦٣ حاول جوليان الكافر أن
يحل المثرائية محل المسيحية
٣٩٢ ثيودسيوس الأكبر إمبراطور
للشرق والغرب
٢٩٥ وفاة ثيودسيوس الأكبر ، أعاد
هنوريوس وأركاديوس تقسيم

بعد الميلاد

- الإمبراطورية تحت حماية
ستيليكو وآلاريك
٤١٠ استيلاء القوط الغربية بقيادة
آلاريك على روما
٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب
إسبانيا ، والمهون في يانونيا
والقوط في دالماتيا ، والقوط
الغربية والسويق في البرتغال
وشمال إسبانيا ، والإنجليز
يغزون بريطانيا
٤٣٩ الوندال استولوا على قرطاجنة
٤٥١ أغار أتيل على بلاد الغالة وهزمه
الفرنجية ، الأليمان والرومان
عند رويس
٤٥٣ وفاة أتيل
٤٥٥ نهب الوندال روما
٤٧٦ أودواكر الملك على خليط من
القبائل التيوتونية يبلغ
القسطنطينية أنه لا إمبراطور
بالغرب ، نهاية الإمبراطورية
الغربية
٤٩٣ ثيودوريك القوطي الغربي يفتح
إيطاليا ويصبح ملكاً عليها ،
ولكنه خاضع إسمياً للقسطنطينية
(ملوك قوطي في إيطاليا ، والقوط
ينزلون أرضاً خاصة يصادرونها
بوصفهم حامية)

بعد الميلاد

- ٥٢٧ الإمبراطور جستنيان
٥٢٩ جستنيان أغلق مدارس أثينا ،
بعد أن ازدهرت حوالي ألف
عام ، استولى قائد جستنيان على
نابلي
٥٣١ بدء حكم كسرى الأول
٥٤٣ الطاعون الأعظم بالقسطنطينية
٥٥٣ طرد جستنيان القوط من
إيطاليا
٥٦٥ وفاة جستنيان ، وغزا اللومبارد
معظم شمال إيطاليا (تاركين
رافا وروما ليزنطه .)
٥٧٠ مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم
٥٧٩ وفاة كسرى الأول . يسود
اللومبارد في إيطاليا
٥٩٠ الطاعون يفتك في روما بشدة
بدء حكم كسرى الثاني
٦١٠ بدء حكم هرقل
٦١٩ مصر وبيت المقدس ودمشق بيد
كسرى الثاني وجيوشه تطل على
الدردنيل . بدء حكم أسرة تانج
بالصين
٦٢٢ الهجرة
٦٢٧ هزيمة الفرس الكبرى عند نينوى
على يد هرقل ، أصبح تانج تسنج
إمبراطوراً للصين
٦٢٨ قبائل الثاني يقتل أباه كسرى الثاني

بعد الميلاد

- ويخلفه على العرش ، محمديكتب
الرسائل إلى كل حكام الأرض
٦٢٩ عودة محمد إلى مكة .
٦٣٢ وفاة النبي ، تولية أبوبكر الخلافة
٦٣٤ معركة اليرموك . المسلمون
يستولون على سوريا . عمر
يصبح الخليفة الثاني
٦٣٥ تاي تسنج يستقبل مبشرين من
النساطرة
٦٣٧ معركة القادسية
٦٣٨ بيت المقدس تسلم للخليفة عمر
٦٤٢ وفاة هرقل
٦٤٣ عثمان الخليفة الثالث
٦٥٥ هزيمة الأسطول البيزنطي على
يد المسلمين
٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية مدينة
القسطنطينية بحراً
٦٨٧ بينين المهرستالي جيد توحيد
استرازا ونوستريا
٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من
إفريقيا
٧١٥ أملاك الخليفة الوليد الأول
تمتد من جبال البرانس إلى بلاد
الصين
٧١٧ — ٧١٨ سليمان أخو الوليد
وخليفته يفشل في الاستيلاء على
القسطنطينية
٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين قرب
بواتيه

بعد الميلاد

- ٧٥١ بينين يتوج ملكاً على فرنسا
٧٦٨ وفاة بينين
٧٧١ شرلمان هو الملك الوحيد
٧٧٤ » يفتح لومباردي
٧٨٦ هرون الرشيد هو الخليفة العباسي
بيغداد (حتى ٨٠٩)
٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (حتى ٨١٦)
٨٠٠ ليو يتوج شرلمان إمبراطوراً
للغرب
٨٠٢ إجبرت القدي كان لاجئاً إنجلترا
ييلاط شرلمان ، يثبت نفسه على
ملكسة وسكس
٨١٠ كروم البغارى يهزم ويقتل
الإمبراطور تفقور
٨١٤ وفاة شرلمان
٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لإنجلترا
٨٤٣ وفاة لويس الثاني ، وتمزق
الإمبراطورية الكارلوفينجية ،
لم يكن هناك تعاقب منتظم على
عرش الدولة الرومانية المقدسة
حتى عام ٩٦٢ ، وإن ظهر اللقب
بين الفينة والأخرى
٨٥٠ وحوالي ذلك الزمن أصبح
روريك (وهو نورمانى) حاكماً
على نوجورود وكيف
٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لبيلاريا
(حتى ٨٨٤)
٨٦٥ أسطول الروس (النورمان)
يهدد القسطنطينية

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٠٨٤ نهب روبرت جويسكارد النورمانى مدينة روما	٩٠٤ الأسطول الروسى (النورمانى) خارج القسطنطينية
١٠٨٧ - ١٠٩٩ أصبح إربان الثانى بابا ١٠٩٥ دعا إربان الثانى إلى الحملة الصليبية الأولى بمدينة كليرمونت	٩١٢ رودلف الجانجر يؤسس مملكة بنورماندى
١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية ١٠٩٩ جودفرى البويونى يستولى على أورشليم	٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا على ألمانيا
١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية ١١٦٩ صلاح الدين يصبح سلطاناً على مصر	٩٣٦ أوتو الأول يخلف أباه هنرى الصياد فى عرش ألمانيا
١١٧٦ فردريك بربروسا يعترف بسيادة البابا إسكندر الثالث بالبندقية	٩٤١ عاد الأسطول الروسى إلى تهديد القسطنطينية من جديد
١١٧٧ صلاح الدين يسترد بيت المقدس ١١٨٩ الحملة الصليبية الثالثة	٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطوراً (وهو أول إمبراطور سكسونى) بيد البابا يوحنا الثانى عشر
١١٩٨ تولية البابا إينوسنت الثالث (حتى ١٢١٦) . أصبح فردريك الثانى ملك صقلية تحت وصايته (وعمره أربع سنوات)	٩٨٧ هيو كابت أصبح ملكا على فرنسا انتهاء سلالة الكارلوفنجيين من الملوك الفرنسيين
١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية	١٠١٦ أصبح كانوت ملكا على إنجلترا والدعرك والنرويج
١٢٠٤ استيلاء اللاتين على القسطنطينية	١٠٤٣ الأسطول الروسى يهدد القسطنطينية
١٢١٤ سقطت بكين بيد جنكيز خان	١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح إنجلترا
١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (مؤسس جمعية الفرنسيسكان)	١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت حكم الأتراك السلاجقة ، معركة ملاذجرد
١٢٢٧ وفاة جنكيز خان بعد أن كان خاناً من بحر قزوين إلى المحيط المهاوى وخلفه أوجداى خان	١٠٧٣ أصبح هلبيراند بابا (باسم البابا جرمجورى السابع حتى ١٠٨٥)

بعد الميلاد

- ١٢٢٨ شرع فردريك الثانى فى الحملة الصليبية السادسة وحصل على اورشليم
١٢٤٠ دمر المغول مدينة كيف
الروسيا تصبح تابعة للمغول
١٢٤١ انتصار المغول عند ليجنز بسيليزيا
١٢٥٠ وفاة فردريك الثانى آخر
إمبراطور من أسرة هوهنشتاوفن . العرش الألمانى شاغر حتى ١٢٧٣
١٢٥١ أصبح مانجوخان هو الخان الأعظم أصبح قوبلاى خان حاكما للصين
١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدهرها
١٢٦٠ أصبح قوبلاى خانا أعظم .
١٢٦١ استولى اليونان على القسطنطينية ثانية من اللاتين
١٢٧٣ انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطورا . كون السويسريون حلفهم الدائم
١٢٨٠ أسس قوبلاى خان أسرة يوان بالصين
١٢٩٢ وفاة قوبلاى خان
١٢٩٣ وفاة روجربا كون نبي العلم التجريبي
١٣٤٨ الطاعون الأعظم : الموت الأسود
١٣٦٠ فى الصين سقوط أسرة يوان

بعد الميلاد

- المغوليه ، وتولية أسرة منج (حتى ١٦٤٤)
١٣٧٧ عودة البابا جريجورى الحادى إلى روما
١٢٧٨ الصلح الأعظم بالكنيسة ، مع وجود إربان السادس بروما وكلنت السابع بأفنيون
١٣٩٨ هس ييشر بمذهب ويكليف فى براغ
١٤١٤ - ١٤١٨ مجمع كونستانس . هس (١٤١٥)
١٤١٧ انتهاء الصلح الأعظم
١٤٥٣ الأتراك العثمانيون يفتحون القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثانى
١٤٧٠ إيفان الثالث ، غراندوق موسكو منذ الولاء للمغول
١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثانى وهو يستعد لفتح إيطاليا
١٤٨٦ برثيودياز يدور حول رأس الرجاء الصالح
١٤٩٢ عبر كولبس الأطلس إلى أمريكا
١٤٩٣ أصبح مكسطينيان الأول إمبراطورا
١٤٩٨ فاسكو دى جاما يسير إلى الهند حول رأس الرجاء
١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية
١٥٠٠ مولد شارل الخامس .

بعد الميلاد

- ١٥٠٩ هنرى الثامن على عرش إنجلترا
١٥١٤ ليو العاشر يصبح بابا
١٥١٥ فرنسيس الأول ملك فرنسا
١٥١٩ يقطع ماجلان للطواف حول العالم .
١٥٢٠ مارسلان القانونى سلطانا (حق ١٥٦٦) ، يحكم من بغداد إلى الحجر شارل الخامس يصبح إمبراطورا
١٥٢٥ بابر يلتصر بمركة بانيات ، ويستولى على دلهى ويؤسس الإمبراطورية المغولية .
١٥٢٧ استولى الجنود الألمان بإيطاليا . بقيادة كونستابل بوربون على روما وغاثوا فيها فسادا
١٥٢٩ حاصر سليمان فيينا
١٥٣٠ شارل الخامس يتوجه البابا بداهنرى الثامن خلافة مع البابوية
١٥٣٩ تأسيس جمعية اليسوعيين
١٥٤٦ وفاة مارتن لوتر
١٥٤٧ إيثان الرابع الرهيب يتلقب بلقب قيصر روسيا
١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المقولى الأعظم (حق ١٦٠٥) ، وفاة إغناطيوس ليولا
١٥٥٨ وفاة شارل الخامس
١٥٥٨ - ١٦٠٣ حكم الملكة إليزابيث

بعد الميلاد

- ١٥٦٦ وفاة سليمان القانونى .
١٦٠٣ جيمس الأول يصبح ملكا على إنجلترا واسكتلندا .
١٦٠٧ جيمس تون يسكنها الإنجليز
١٦٢٠ بعثة السفينة ماى فلورنوس مدينة نيوبليموث : نزول أول الزوج بجيمس تون .
١٦٢٥ شارل الأول على عرش إنجلترا
١٦٢٦ وفاة السير فرنسيس باكون (لورد فريولام)
١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام ٦٢ سنة بفرساي .
١٦٤٤ أنهى المانشو حكم أسرة منج
١٦٤٨ معاهدة وستفاليا ، وبها اعترف بهولندا وسويسرا بجمهوريات حرة وأصبحت لبروسيا أهمية ، ولم تعط المعاهدة نصرا تاما للتاج الإمبراطورى ولا للأمرأء .
حرب الفروند ، وقد انتهت بالانتصار التام للتاج الفرنسى
١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترا
١٦٥٨ أصبح أورانجيزب المقولى الأعظم . وفاة سكرومويل
١٦٦٠ تولى شارل الثانى على إنجلترا
١٦٨٤ نيو إسقردام تصبح بريطانية نهائيا بحكم معاهدات أبرمت وتسمى نيويورك

بعد الميلاد

- ١٦٨٣ آخر هجوم للأتراك على فيينا
يصده يوحنا الثاني ملك بولندا
١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر روسيا
(حتى ١٧٢٥)
١٧٠١ فردريك الأول ملك لبروسيا
١٧٠٧ وفاة أورانجزيب . تمزيق
إمبراطورية المغولي الأكبر
١٧١٣ مولد فردريك الأكبر البروسي
١٧١٥ لويس الخامس عشر ملك فرنسا
١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا
تقتاتلان على أمريكا والهند ،
فرنسا متحالفة مع النمسا والروسيا
ضد بروسيا وانجلترا (١٧٥٦)
١٧٥٩ الجنرال ولف البريطاني يستولي
على كوريك
١٧٦٠ تولى جورج الثالث عرش
بريطانيا
١٧٦٣ معاهدة باريس . تسليم كندا
لبريطانيا ، سيادة البريطانيين
على الهند .
١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت
١٧٦٩ بدء عهد لويس السادس عشر
١٧٧٦ إعلان الاستقلال في الولايات
المتحدة الأمريكية
١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا
والولايات المتحدة الأمريكية
الجديدة

بعد الميلاد

- ١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري
ينشئ الحكومة الاتحادية
للولايات . يتضح إفلاس فرنسا
١٧٨٨ أول كونجرس اتحادى بالولايات
المتحدة يعقد في نيويورك
١٧٨٩ اجتماع مجلس الطبقات الفرنسي
هدم الباستيل
١٧٨٩ جورج واشنطن أول رئيس
للولايات المتحدة الأمريكية
١٧٩١ فرار لويس إلى فارس
١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا
أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا
معركة فالى . أصبحت فرنسا
جمهورية
١٧٩٣ قتل لويس السادس عشر
١٧٩٤ مقتلدروبسيروا انتهاء جمهورية
العاقة
١٧٩٥ حكومة الإدارة ، قضى بونابرت
على إحدى التوراتوعين قائداً
عاماً في إيطاليا
١٧٩٨ دخل بونابرت مصر ، معركة
النيل
١٨٩٩ عودة بونابرت إلى فرنسا ،
حيث أصبح قنصلاً أول يستمتع
بسلطات هائلة
١٨٠٣ شراء لويزيانا
١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً ،
فرنسيس الثاني يتخذ لقب
إمبراطور النمسا في ١٨٠٥ ثم

بعد الميلاد

أسقط لقب الإمبراطورية الرومانية
القدسة في ١٨٠٦ وبذلك انتهت
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
١٨٠٦ هزيمة بروسيا في معركة بينا
١٨٠٨ عين نابليون أخاه جوزيف
على أسبانيا .
١٨١٠ استقلال جمهوريات أمريكا لاسبانية
١٨١٢ تقهر نابليون من موسكو
١٨١٢ - ١٨١٥ الحرب بين الولايات
المتحدة وانجلترا .
١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ،
تولية لويس الثامن عشر
١٨٢٣ صدور مبدأ مونرو
١٨٢٤ تولية شارل العاشر ملكا على
فرنسا .
١٨٢٥ تولى نيقولا الأول على روسيا
إنشاء أول سكة حديد من
استوكتن إلى دارلنجن
١٨٢٧ معركة نوارين
١٨٢٩ استقلال اليونان
١٨٣٠ عام اضطراب وفوضى . لويس
فليب طرد شارل العاشر . انفصال
بلجيكا عن هولندا . أصبح
ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوتا
ملكاً على هذه المملكة الجديدة
وهي بلجيكا . القسم الروسي من
بولندا يثور ثورة فاشلة

بعد الميلاد

١٨٣٥ استعمال لفظة « الاشتراكية »
لأول مرة
١٨٣٧ تولية الملكة فكتوريا
١٨٤٠ تزوجت الملكة فكتوريا ألبرت
أمير ساكس كوبرج جوتا
١٨٤٦ - ١٨٤٨ الحرب بين الولايات
المتحدة والمكسيك
١٨٥٢ أصبح نابليون الثالث إمبراطورا
على فرنسا
١٨٥٣ اشترت جاذدن وبها تمت رقعة
الولايات المتحدة بقارة أمريكا
١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم
١٨٥٦ القيصر إسكندر الثاني الروسي
١٨٥٩ غارة جون براون على هاربرفري
١٨٦١ الملك فكتور عمانويل أول ملك
لإيطاليا أصبح إبراهيم لنكولن
رئيساً للولايات المتحدة . بدء
الحرب الأهلية الأمريكية
١٨٦٥ التسليم عند أبوماتوكس كوت
هاوس . اغتيال لنكولن . فتح
أبواب اليابان للعالم
١٨٦٧ الولايات المتحدة تشتري آلاسكا
من روسيا
١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب
على بروسيا
١٨٧١ (يناير) سلفت باريس . أصبح
ملك بروسيا إمبراطوراً لألمانيا
صلح فرانكفورت

بعد الميلاد	بعد الميلاد
الأزمة	١٧٧٨ معاهدة برلين . ابتدأت بأوروبا
١٩٣٠ ظهور حزب هتلر بمظهر القوة	الغرية هدنة مسلحة دامت
بالريشتاغ الألماني	٣٩ سنة
١٩٣١ الأزمة المالية ببريطانيا العظمى	١٨٨٨ أباطرة ألمانيا فردريك الثاني
والتخلي عن معيار الذهب .	(مارس) وغلوم الثاني (يونيه)
عصبة الأمم ترفض السماح بقيام	١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية
اتحاد جرمن بين ألمانيا والنمسا .	١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس
صارَت أسبانيا جمهورية	النظام البلشفي بالروسيا . دخول
١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة مانشوكو .	الولايات المتحدة في الحرب
انتخب فرانكلين روزفلت	العالمية في صف الحلفاء
رئيساً للولايات المتحدة	١٩١٨ الهدنة
الأمريكية	١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التي
١٩٣٣ الإجازة العامة للبنوك بالولايات	منمت منها ألمانيا والنمسا والروسيا
المتحدة . انتخاب روزفلت	وتركيا ، ولم تمثل فيها الولايات
للمرة الأولى . النار بالريشتاغ	المتحدة
برلين والاقبال النازي ،	١٩٢١ تجاهل اليونان عصبة الأمم
أصبح هتلر ديكتاتوراً	وواصلوا الحرب مع الأتراك
لألمانيا . المؤتمر الاقتصادي العالمي	١٩٢٢ هزيمة اليونان الكبرى بآسيا
بلندن يفشل . خرجت اليابان	الصغرى على يد الأتراك .
على العصبة في أبريل وألمانيا	زحف الفاشيين على روما
في أكتوبر	١٩٢٤ وفاة لينين
١٩٣٤ دخلت روسيا عصبة الأمم .	١٩٢٧ تقام الخلاف بين ستالين
اغتيال كيروف	وتروتسكي ، ونفى تروتسكي من
١٩٣٥ عودة السار إلى ألمانيا . الحبشة	البلاد
تلقياً إلى عصبة الأمم على إيطاليا	١٩٢٨ ابتداء أول مشروع الخمس
دون جدوى . حرمان اليهود	سنوات بالروسيا
من حقوق المواطنة الألمانية	١٩٢٩ الذعر في سوق الأوراق المالية
وحظر زواجهم بالآريين	في الولايات المتحدة وابتداء

بعد الميلاد

١٩٣٦ وفاة الملك جورج الخامس .
فتح إيطاليا للحبشة فعلا . ثورة
فرانكو بأسبانيا . تنازل
الملك إدوارد الثامن الإنجليزى
عن العرش
١٩٣٧ حصار مدريد وإصابة قوات
الحكومة الأسبانية بالإتهام
تدريجيا
١٩٣٨ غزت ألمانيا بلاد النمسا وضممتها
إليها دون مقاومة مسلحة
١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية
١٩٤٠ احتلت ألمانيا النرويج والدانمرك
وهولندة وبلجيكا . سقوط
فرنسا ، وانضمام المجر ورومانيا
وسلوفاكيا المحور . الإيطاليون
يفشلون فى غزو بلاد اليونان .
تشرشل يرأس الوزارة البريطانية
روزفلت ينتخب للمرة الثالثة
رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية
أجرت بريطانيا قواعد الاطلسي
للوالات المتحدة . اغتيال
تروتسكى بالمكسيك
١٩٤١ تقلبات الحرب بشمال أفريقيا .
تقدم البريطانيون فى ليبيا ١٩٤١
ثم انسحبوا ثانية فى الربيع ،
وتقدموا فى نوفمبر وانسحبوا
مرة ثانية فى ربيع ١٩٤٢ .

بعد الميلاد

انضمت بلغاريا إلى المحور .
احتلت ألمانيا بلاد اليونان
ويوغوسلافيا وكريت ، تحرير
الحبشة البريطانيون والفرنسيون
يحتلون سوريا . ألمانيا تغزو
الروسيا (٢٢ يونيه) . ميثاق
الاطلنطى . احتلال البريطانيين
والروس لإيران سقوط كييف
يبدأ الألمان . فشل هجوم الألمان
على موسكو . هاجمت اليابان
الولايات المتحدة . أعلنت
الولايات المتحدة الحرب على
ألمانيا
١٩٤٢ سقوط سنغافورة . فتوح
اليابانيين فى المحيط الهادى
وبورما . معركة جزيرة مدهوى
هجوم رومل فى ليبيا أوصل
الألمان إلى مصر . معركة مصر
بالعلمين . نزول البريطانيين
والأمريكان بشمال أفريقيا .
ظلت تونس بأيدى الألمان
حتى ١٩٤٣ ، عندما طهر شمال
إفريقية تماماً . اغتيال الأميرال
دارلان الفرنسى فى الجزائر .
سقوط سباسبول بيد الالمان
الذين دخلوا بلاد القوقاز
ولكنهم أوقفوا عند ستالينجراد

بعد الميلاد	بعد الميلاد
انتخاب روزفلت للمرة الرابعة. الأمريكيون ينزلون بالفلبين ١٩٤٥ تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط . وفاة روزفلت . ٦ أغسطس قنبلة هيروشيما الذرية . ٩ أغسطس قنبلة ناجازاكي الذرية. الروسيا تعلن الحرب على اليابان استسلام اليابان رسمياً ٢ سبتمبر. ميثاق سان فرانسيسكو بإنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظمتها : الجمعية العامة ومجلس الأمن لتحقيق السلام العالمى ١٩٤٦ إنشاء هيئة اليونسكو أى منظمة الثروة والعلوم والثقافة	١٩٤٣ مؤتمر الدار البيضاء . الإصرار على التسليم بلا قيد ولا شرط . احتلال الإنجليز والأمريكان لتونس . غزو صقلية . غزو إيطاليا . تقدم الأمريكيين في الباسيفيكي . يسترد الروس خركوف وسمولنسك وكييف . مؤتمر كويك . مؤتمر طهران . ١٩٤٤ نزول الحلفاء في فرنسا . تحرير فرنسا وبلجيكا . الحلفاء يحاربون على حدود ألمانيا . تحرير اليونان زحف الروس خلال رومانيا وبلغاريا إلى بلاد المجر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا

إجبرت ٢١٤	(١)
أوجدای خان ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨	أبراهام (إبراهيم) ٩٠، ٩٢، ٩٦،
أجزسيس ١٠٧، ١٠٨، ١١٣	٩٨، ١٧٤، ٢٠١، ٣٣٧
أجليثورب ٣٨١	أبساتيك ٨٣
أدب شعبي (فوكلور) ٤٥	ابن رشد ٢٣٢
آدم ٣١٨	أبو بكر ٢٠٢، ٢٠٣
إدواكر ١٨٩	أبولونيوس ١١٧
أدوات حجرية ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٢	الإيباني (الطريق)
إراتوستينز ١١٧	أبيس ١٦٨
الأراضى المنخفضة	الاتحاد الألماني ٢٩٥
إربان الثاني ٢٢٠	اتحاد الولايات الأمريكية الجنوبية ٣٢٩
إربان السادس (البابا) ٢٣٤	الأثراك السلجوقيون ٢٢٠، ٢٢٣
أردشير الأول ١٥٧، ١٩٤	الأثراك الصليبيون ١٣٩، ١٥٥، ١٩٥
أرستاجوراس ١٠٨	الأترسك ٧٤، ٨١، ١٣٤،
أرسطوطاليس ١١٢، ١١٣، ١١٦،	١٣٥، ١٤٤، ١٥١، ١٦٣
١١٧، ١١٩، ٢٠٨، ٢١٩،	أنكفون (ج. ج.) ٤٦، ٣١٤
٢٣٢، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣،	أنكفون (س. ف.) ٢٨٩
٢٩٩، ٣١٢	أنو
الأرشكية (الأسرة) ١٥٧	أنبلا ١٨٨، ١٨٩، ١٩١، ١٩٢،
أرشيدس ١١٧	١٩٧
أركاديوس ١٨٤، ١٨٨	إنسانوس (عقيدة) ١٧٩
آريوس ١٧٩	أنينا ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨،
الآريون ٧٥، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٣،	١١٦، ١٣٠، ١٤٣، ١٦٢،
٩٥، ١٠٥، ١٢٩، ١٣٨،	١٦٥، ١٩٢، ١٩٣،
١٤٣، ١٥٥، ١٥٦، ١٩٧،	الأنثوية ٧٣
الأرض ٣، ٦، ٧، ٨، ١٢، ١٥،	أحاب ٩٣

آسيا ٣٧ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ١٥٨
٢٠٠

الاشتراكية (الاشتراكيون) ٣١٣
٣١٦

أشعيا ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤

أشور (دولة) ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٩

أشقانيون (بارثيون) ١٢٠ ، ١٥٠
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٩٧

أشور بانيبال (انظر سارداناپالوس)
الإصلاح الديني ٢٥٣

إعلان الاستقلال ٢٨٤

أشجار ٦٥

أغناطيوس دي ليولا ٢٥٣

الإغريق ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٥

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦

١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦١

١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٤

الإغريق (فلاسفة) ٩٩ ، ١٠٣

١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٤٤

الإغريقية (العلوم) ٢٠٦

آفبوري ٨١

الأفثاليون ١٥٨

إفريقيا ٤٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ١٦١

أفلاطون ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٩٣

٢٤٨ ، ٣١٢

الإقطاع ٢١٠ ، ٢٦٦

إقليدس ١١٧

الآزوي ٩

الأزلية - الأزيليون ٤٤ ، ٤٩ ، ٦١
أساطير ٧١ ، ٥٠

أسبارتا كوس ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢

أسبانيا ٣٨ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧١

٩٥ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٢

٢٠٦

إسبرطة ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨

١٦٢

أستراليا ٢٥

الأسر البابلي ٢٢١

إسرائيل (ملكة) ٩٩

الإسكندر الأكبر ١١١ ، ١١٢

١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢٦

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥٥

١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥

الإسكندر الأول قيصر روسيا

٢٩٢

الإسكندر الثالث (البابا) ٢٢٤

الإسكندرية ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧

١١٩ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ١٧١

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٣

الإسكيزيون (الأشقوذيون) ٧٤

٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٣٨

الإسلام ١٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤

٢٢١ ، ٢٢٣

أسوكا ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨

١٥٧

الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٢١٥
 ٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٥٤ ، ٢١٩ ، ٢١٧
 ٣١٨ ، ٢٩٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٧
 الإمبراطورية العثمانية
 الإمبراطورية الليدية ٨٦
 أمريكا ٩ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٦
 أمريكا الشمالية (هنود) ٤٢
 الأمريكية (القبائل) ٥٦ ، ٥٧
 أمسوخ ١٦
 أمصوتب ٧٣
 أناجيبي ٢٣٣
 الأنبياء ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٣٠٠
 أنبياء العبرانيين ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥
 ١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٢١
 أنتيجوناس ١١٥
 إنجلترا ٣٢ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨
 الإنسان البدائي ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨
 ٥١ ، ٥٠
 الإنسان الحق ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠
 ٤٤
 إنسان روديسيا ٣٦ ، ٤٠
 الإنسان القردى القائم ٣٣
 إنسان هيدلبرج ٣٣ ، ٣٥
 إنسان نياندرتال (انظر نياندرتال)
 أنطاكية ١٩٥ ، ٢٠٤
 أنطونيو ١٥٢
 أنطونينوس ييوس ١٥٢
 أنطوخوس ١٤٠
 الانقلاب الصناعي ٣٠٧ ، ٣٠٨
 الانقلاب اليكانيكي ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

الأكاديون ٦٦ ، ٩٥
 إكتانا ٨٤
 أكبر ٢٣٩ ، ٢٧٦
 إكسينوفون ١١٦
 أوكتافوس (أوغسطس) ١٥٢
 الأريك ١٨٤ ، ١٨٦
 الألب ٢٧
 ألفريد الأكبر ٢١٤
 ألمانيا ١٥٥ ، ٢٣٠
 ألبياس (الملكة) ١١٣
 آلهة الرومان ١٦١
 إله الشمس الفارسي ١٦٧
 الآلهة المصرية ١٦٧ ، ١٦٨
 الإلياذة ١٠٠
 إليزابث (الملكة) ٢٦٨ ، ٢٧٦
 إليوت سميت ٥٢
 الإمبراطورية الآشورية ٧٧ ، ٨٩
 ٩٥
 الإمبراطورية الأكادية ٦ ، ٨٣
 الإمبراطورية البابلية الأولى والثانية
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٢٢٠
 الإمبراطورية البريطانية ٣٣٤
 الإمبراطورية البيزنطية ١٩٢ ، ٢٢٠
 ٢٢٣
 الإمبراطورية الحديثة بمصر ٧٣
 الإمبراطورية الرومانية ١٤٣ ، ١٤٤
 ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩
 ١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٢١
 ٢٣٧ ، ٣٠٨

إيزيس ١٦٨
 إيسكيلوس ١٠٩
 إيطاليا ٧١ ، ٧٥ ، ١٠٥ ، ١٣٤
 ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٣٠
 الإيطاليون (اللغة الإيطالية) ١٦١
 إيغان الرابع ٢٧١
 إيغان الأعظم ٢٧١
 (ب)
 باباوات روما ١٩١ ، ٢١٢
 باير ١٣٩ ، ٢٧٦
 بابل (بابل) ٥١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣
 ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٥
 ١٠٨ ، ١٦٧ ، ٣١٥
 البابلية (الإمبراطورية) ٦٤ ، ٨٣
 ٨٧
 البارود ٢٣٦ ، ٢٦٦
 باريس ٢٨٧
 الباستيل ٢٨٧
 باسك (باشكنس) ٦٩ ، ٨١
 باكون (روجر) ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٨
 باكون (السير فرانسيس) ٦٦
 باليوزوى ١٤
 باليوليث (انظر العصر الحجري
 القديم)
 بين ٢١١
 البحر الأحمر ٣٧ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ١٥٥
 البحر الأسود ٣٧ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٥
 ١٥٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥

٣٠٨ ، ٣١٧
 أنكساجوراس ١٠٩
 أنكسيمندر ١٣
 أنونيس ١٦٨
 إنوسنت الثالث ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
 إنوسنت الرابع (البابا) ٢٣١
 أهرام الجيزة ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٦
 أهل الشمال (انظر (النورمان)
 أوجزبرج (صلح) ٢٥٨
 الأوديسيا (أوديسيوس) ١٠٠
 أورانوس ٤
 أوربا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣
 ٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
 أورشليم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥
 ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ، ١٩٥
 ٢١٩
 أورليان (الإمبراطور) ١٥٩
 أوزيريس ١٦٨ ، ١٧٩
 أوسكولوم ٣٦
 أوغسطس (قيصر) ١٦٠ ، ١٧٢
 الأولياد ١٣٥
 الأولوية (الألعاب) ١٠٢ ، ١١٢
 ١٣٤
 إيرت (الرئيس)
 إيبيري (الجنس) ٥٤
 الإيحية (الشعوب والحضارة) ٦٩
 ٨٢ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٣٣
 ١١٧
 إيزابلا (الملكة) - (انظر فرديناند)
 إيزوقراطيس ١١٢

البلاشة (الاشتراكيون) ٣٥٩ ، ٣٦٠
 بلديون الفنلندي ٢٢٣
 البليان ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥
 بنارس ١٢٤
 بنش (الدكتور) ٣٨٧
 البنادقة (البندقية) ٢٩٥
 برنج (مضيق) ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٨
 بوانسكاريه
 بوث (جون) ٣٢٨
 بوذا (انظر جوتاما بوذا)
 البوذية ١٣١ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٦
 بوجوين (الجنرال) ٢٨٤
 بوغ ١٨
 بولس الرسول ١٦١ ، ١٨٧ ، ١٧٩٠
 ١٨٠
 بوليفاد (الجنرال) ٢٩٣
 بومي الاكبر ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 بونيفاس الثامن (البابا) ٢٣٣
 بوبي الثاني ٦٣ ، ٣٠٦
 بيت المقدس ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 ٢٣١ ، ٢٤٦
 بيتان (المارشال)
 بيرو ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦
 بيروس ١٣٦
 بيزارو ٢٥٠
 بيزنطة-البيزنطية ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨
 بيكونزفيلد (اللورد) ٣٣٦
 (ت)
 التاوية (العقيدة) ١٣١ ، ١٧٨

بحر المانش ٣٧
 البحر المتوسط ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ١٥٤
 ١٥٦ ، ١٨٨ ، ٢٤٠
 بخاري ٢٠٦
 بدايات الحياة ١٢٦٩
 بدرو (الاول) ٢٨٥
 البرازيل ٢٨٥
 برجامة ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٠
 البردي ١١٩
 برسيبوليس ١١٤ ، ١٢٠
 بركلين ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٣
 برمائيات ١٧ ، ١٨٦ ، ٢٠٦
 برهانية (العقيدة) ١٢٧
 بروسيا (مملكة) ١٧٠
 برى (القومودور)
 بريطانيا العظمى ١٦١
 بساو (معاهدة) ٢٥٩
 بسم (هنري) ٣٢
 بعل مردوخ ٨٣
 بغداد ٢٠٦ ، ٢٤٠
 البطارقة ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥
 البطالة ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢
 بطرس الاكبر ٢٧١
 بطرس الناسك ٢٢١ ، ٢٢٢
 بطليموس الاول ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨
 ١١٩ ، ١٦٩
 بطليموس الثاني ١١٩
 بلاد العرب ٦٩

تكيف ١٨ ، ٢٤
التوراة ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ،
١٤٢ ، ٩٧
تيريوس قصر ١٥٢ ، ١٧٢
تيمورلنك ٢٣٩ ، ٢٧٩
توحيد الآلهة (انظر مزج) ١٦٧ ،
٢٦٥ ، ١٦٨

(ث)

الثدييات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ،
٤٦ ، ٣١
ثقافة العصر الشمسي الحجري ٥٢ ،
١٣٣ ، ١٢٨ ، ٨١ ، ٥٤
الثورة الفرنسية ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ،
٣٣١
ثيودورا (الإمبراطورة) ١٩٢
ثيودوريك ١٩٠
ثيودوسيوس ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
١٨٩ ، ١٩٠

(ج)

جالريوس (الإمبراطور) ١٨١
جالفاني ٣٠١
جبال روكي ٢٧
جرافيت ١١
جرانت (ي . س) ٣٤٧
جريجوري الأول (البابا) ٢٢٤
جريجوري السابع (البابا) ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،
٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥

ناج (أسرة) ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٦
ناي تسنج ١٩٩ ، ٢٠٢
التتار ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
٢٣٧
تجارة ٦٨
تجار الرقيق العرب ٣٣٩
تجلات بلسر الثالث ٨٢ ، ٨٣
تختمس ٨٣ ، ٩٩ ، ١١٤
التحليل النفسي ٤٥
تراجان ١٥٢
ترافيا ١٠٦
تروتسكي ٣٦٠
تريفيثيك ٢٩٩
التريوبيت ١٠
تس ثن ١٣٢ ، ١٥٤
تسانيا (التسانيون) ٤٤
تشانج تسولن ٤٧٤
تشاو (أسرة) ١٢٩ ، ١٣٢
تشراتا ٧٤
تشرشل (ونستون)
تشمبرلن (نفل) ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
٣٨٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢
تشوئو ١٣٢
التطور الفكري ٣١١
تفكير (انظر فكر)
تقدم العلوم ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ إلخ
تقويم ٥١
تكساس ٣٢٦

(ح)

الحبشة ٣٧٦ ، ٣٧٥
 حتشبوت (للسكة) ٧٥
 الحرب الأسبانية
 الحج ٢٠٢
 حرب الاستقلال الأمريكية ٢٨٤ ،
 ٢٩٣
 الحرب الأهلية الأمريكية ٣٢٨
 حرب البليونيز ١١١ ، ١١٢
 حرب الثلاثين سنة ٢٧٥
 الحروب الروسية التركية ٣٣٣
 الحرب العالمية ٣٦٩
 الحرب البونية ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
 ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
 ١٦٣ ، ١٩٠
 الحروب الصليبية ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،
 ٢٤١ ، ٢٣٩
 حروب القرس ١٠٥ ، ١٠٨
 حزازيات ١٩ ، ٢٦
 الحزب الشيوعي ٣٥٧
 حزب العمال البريطاني ٣٥٧
 حزقيال ٩٧
 حشرات ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤
 الحضارة الداريفية ٨١ ، ١٢٩
 الحضارة الرومانية ٣٠٧ ، ٣١٠
 الحضارة الكريكية الإيجية ٧٠ ، ٨٢ ،
 ١٨٨

جربجورى التاسع (البابا) ٢٣٠ ، ٢٣١
 جربجورى الحادى عشر (البابا) ٢٣٤
 الجريمالدى (الشعب) ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٩
 جزويت (انظر يسوعيون)
 جستنيان الأول ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٥
 جلبرت (الدكتور) ٢٦٦
 جليد ١٥ ، ١٦
 الجماعة البشرية ٤٥
 الجمعية الفلورنسية ٢٦٦
 الجمعية للملكية بلندن ٢٦٦ ، ٢٩٨
 الجمعية الوطنية ٢٨٧ ، ٢٨٨
 الجمهورية الرومانية ١١٥ ، ١٤٨ ، ١٧٨
 الجنس النوردى ٥٧ ، ٦٦
 جنسريك ١٨٦
 جنكيزخان ٢٣٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٩
 جوبلز (پول) ٣٨٧
 جوتاما بوذا ١٠٤ ، ١٣١ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
 ١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
 جوجورثا ١٤٩
 جورج الثالث ٢٦٨ ، ٢٨٢ ، ٣٠٦
 جوركى (مكسيم) ١٦٣
 جورج (هرمان) ٣٧٥ ، ٣٧٦
 جوستاف أدولف ٢٧٥
 جون لوك ٣١٢
 جيون (ادوارد) ١٨٩
 جيمس الأول ٢٦٧
 جيولوجيا (جيولوجيون) ٩ ، ٣٢

دقلديانوس (الإمبراطور) ١٤٥ ،	حضارة المايا ٧٨
١٨٢ ، ١٨٠	حضارة ماوراء النهر ١٦٦ ، ١٦٧
دمشق ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦	الحفريات ٩ ، ١١
دنكر ك	حلف شملكلد ٢٥٧
دنكين (الجنرال) ٣٥٧	حمورابي ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٩٠
دوجلاس (سفين) ٣٣٧	حورس ١٦٨
دولة مدينة ٦٤	الحياة ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٦
دولة الروم الشرقية ٢١٩	الحيثيون ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١
الدولية (الشيوعية) ٣١٣ ، ٣١٨ ،	حيرام (الملك) ٩٢ ، ٩٥
٣٢١	الحيوانات ١٢
دومينيك (القديس) ٢٣٥	الحيوانات العليا
الدومينيكيون (الرهبان) ٢٢٧ ، ٢٢٤	
ديجول (الجنرال)	(خ)
ديدالوس ٧٠	
ديفو (دانيال) ٣٠٨	خوصات ١٦
ديكوس (الإمبراطور) ١٥٨	خياشيم ١٧ ، ١٨ ، ١٩
الدين ٤٧ ، ٤٨	
ديناصور (انظر عظاما) ٢١ ، ٢٣ ،	(د)
٢٥	
ديونيسيوس ١٣٠	دارا الأول ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
(ر)	دارا الثالث ١١٣ ، ١١٩
رب (ربة) ٤٧	دافيز جفرسون ٣٢٦
رانسبون (مجلس دايت) ٢٥٧	دالاديه
راسبوتين ٢٧٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧	دانوتزو ٣٧٢
رالف العداء ٢١٤	دانيال النبي ٨٦
رجل (انظر إنسان)	الدارفيديون ٥٤
رسم ٢٠٤	دستور الجنوب
رعاة (انظر هكسوس)	

ريشليو ٢٧٦
رينو (بول) ٣٨٩
(ز)
زافيير (فرنسيس) ٢٤١
زاما (معركة) ١٤٠
زحل ٤
زراشت ١٩٤ ، ٢٠٦
زراعة ٤٩ ، ١٦٢
الزمن الآزوي ٢٠
الزمن الباليووزي ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢
الزمن الكليووزي ٢ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢
الزمن الليووزي ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١
الزواحف ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٩
زورق بخاري ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
الزهرة ٤
زينوفون (انظر اكينوفون)
زيوس ١٦٩
(س)
الساحر الطيب ١٤
ساردانا بالوس ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤
ساسان (آل ساسان) ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤
سالرنو (مدرسة الطب) ٢٣٢

رغوية (نباتات) ١١
الرق (رقيق - أرقاء) ١٠٢ ، ٧٧ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٢٨ ، ٢٦٥ ، ١٧١ ، ١٦٤
رمسيس الثاني ١١٤ ، ٧٣
روبرت لي ٣٤٧
رويسير ٢٩٠ ، ٢٩١
روجر الأول (ملك) ٢٢٩
رودلف آل هابسبرج ٢٣٣
روزفلت (فرانكلين) ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣
الروس ٢١٤
الروسيا ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٨٨ ، ٢١٥
روما ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٢
الرومان ٨٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٩٢ ، ١٩٣
رومانيا
الروماني (القانون) ١٠٥
الرومانية (الآثار) ١٦٦
الرومانية (الجمهورية) ٣١٠
الرومانية (الحضارة) ٣٠٧ ، ٣١٠
الرومانية (الديانة) ١٦٦ ، ١٧١
رومولوس وأوغسطولوس ١٩٠ ، ٢١٦
رينتروب ٣٨١
ريش، ٢٣

سلطان مصر ٢٣٢ ، ٢٤٢
 سلوقس ١١٥ ، ١٣٦
 السلوقيون ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ،
 ١٥٦ ، ١٦١
 سليمان ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥
 سليمان القانوني ٢٥٥ ، ٢٥٧
 سمث (آدم) ٣١٨
 سمث (ايليوت)
 سمرقند (الأميرال)
 سمك ١٤ ، ١٧ ، ٢٩
 سنحاريب ٧٤
 السنسكريتية ٧٢ ، ٨١
 سوبوطاي ٢٣٨
 سوريا ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
 ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤
 ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
 سومر (السومريون) ٦ ، ٦١ ، ٦٢ ،
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ١٢٨
 ١٤٤
 سوفكليس ١٠٩
 السوفيت ١١٠
 سوي (أسرة) ١٩٧ ، ١٩٨
 سويتون (لجنة) ٣٩٠
 سويتون (اللورد) ٣٩٠
 سياخرا (أنظر كيا كارس)
 سيراكوزة ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨
 سيقان ورقية (أنظر خوصات) ١٦
 ٢٩ ، ٢٤
 سيلوري ١٤

الساميون (الأجناس السامية) ٦٧
 ٦٩ ، ٧١ ، ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ،
 ١٩٧
 سبتيموس سيفيروس ١٦١
 سيون الأفريقي الأسن ١٤٠ ، ١٤٥
 ستالين ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 ٣٨١ ، ٣٨٤
 سترزي مان (الدكتور) ٣٦٩
 ستون هنج (نصب) ٥٣ ، ٨١
 ستيفنتسون (جورج) ٢٩٩
 ستيليكو ١٨٤ ، ١٨٨
 سحالي (أنظر عظاميا)
 سجفريد (خط) ٢٨٣
 سجل الصخور ٩ ، ١٠ ، ١٢٠ ، ١٦٠
 ١٩ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٢٩٩
 سديم ٦
 سرايس ١٦٩
 سرايس ايزيس (عبيدة) ١٦٩
 سرجون ٦٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥
 سرجون الثاني ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣
 سرخس ١٦ ، ٢٠ ، ٢١
 السفطانيون ١١٠
 السفن (بناء) ٦٨
 سقراط ١١٠
 السكك الحديدية ٣٠٠ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 سكوت (ميشيل) ٢٢٢
 سلا ١٤٩ ، ١٩١
 السلاجقة (الأتراك) ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 السلاخف

(ش)

شاءول : ٩٢ ، ١٧٨

شاءول الطرسوسى ١٦٠

شارل الأول (الملك) ٢٥٢

شارل الثانى ٢٦٩

شارل الخامس (الإمبراطور شرلكان)

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٧٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٥٩

شارل العاشر ٢٩٤

شارل مارتل ٢١١

شأنج (أسرة) ٧٨ ، ١٢٩

شاندرا جويتا موريا ١٢٦

شبه الإنسان ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

شبه زنجى (نجريدى) ٤٢ ، ٥٥

شبه القول انظر للقولى (شبه)

شركة الهند الشرقية البريطانية ٢٨٢ ،

٢٣٤

شرلمان ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ ،

٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢

الشعر ٢٤

الشعوب البحرية ٦٨

الشعوب للترحلة ٦٤

الأشفاينيون (الملك) : ١٠٧

الشمس ٦ ، ١٥٠٧ ،

شمشون ٩٠

شيشروان ١٥١

شيشنق ٩٣

شى هوانج تى ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٣ ،

١٥٤

الشيوعية ٣٢١

الشيوعيون ٣١٧

(س)

الصخور الطباقية ٩

الصدع الأعظم ٢٣٤ ، ٢٥٠

صقلية ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ ،

(الصقليتين ٢٥٤)

صلاح الدين ٢٢٣

صنليات صن : ٣٧٤

صنج (امبراطورية) : ٢٣٦

صور الصخور : ٤٣

صيد ٤٥

الصين ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢١ ،

١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،

٢٣٦ ، ٤٥

الصين (تاريخ) : ٧٨

(ط)

الطابور الخامس (نشاط)

طاليس ١٠٣ ، ١٢٥

الطباعة ١١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٦٧ ،

٢٦٩

ططلب (طعالب) ١٠ ، ١٥ ، ١٦

المصر الحبرى القديم ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ،
٣٠٦٤٩
عصر الرواسب النحمة ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
عصر الزواحف ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥٦ ،
٣١
عصر الفوضى ١٢٩
عصر المستنقعات ١٧
العصور الوسطى ٢١٣
عطار د
عظايا (بأنواعها) ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
٢٦
عقارب ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ،
علماء الآثار ٣٤
علماء السلالات البشرية ٣٦
العلوم ٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
المصريون ٦٦
المصريات ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
عناكب ١٦
عينى ٢٢١
العهد القديم ٥١ ، ٨٠ ،
الغلاميون ٦٦ ، ١٣٣ ،

(غ)

القالة ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٦١ ،
القال ١٥٩
غليوم الثانى (الإمبراطور) ٢٨٧

طروادة ١٠٠
الطوفان ٦٨ ، ٩٠
طية ١٠٧٦١

(ع)

العالم ٦ ، ١٢
العالم الرومانى واللاتينى ١٨٥ ، ٢١٠ ،
٢١٣
عالم المسيحية ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ،
عاموس ٩٧
العبرانيون ٧٥ ، ٩٢
العرب ٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ،
بلاد العرب ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ،
العربية (اللغة) ١٩٦ ، ٢٠٦ ،
عشب ١٥ ، ١٩ ،
عصبة الأمم ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ،
العصر الآزوى ١٦
عصر الأسماك ١٦
العصر الباليوزوى السفلى ١٣ ، ٢٠ ،
عصر الثدييات ٢١ ، ٣٠ ،
العصر الجليدى ١٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ،
٣٨ ، ٤٠ ،
العصر الحبرى الحديث ٤٤ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٨ ،
العصر الحبرى الشمسى ١٦٩

فرنسيس الأسيسى (القديس) ٢٢٧ ،

٢٣٤

الفرنسيكانيون (الربان) ٢٢٧، ٢٣٤،

فريرز . ج . ج . ٥٠

الفزيوقراطيون ٣١٣

قعاريات ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ،

٢٩

فكر ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٢١ ، ٢١٩ ، ٢٧٣

الفلسطينيون ٧٥ ، ٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ،

فلسفة - فلاسفة ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،

٢٤١

فلك ٦ ، ٥٦ ، ٥٩

فلك نوح ٦٨

فن (فنون) ١٧٢ ، ٢١٩ ،

فنج (الجبرال) ٣٧٤

فنلند ١٩٧

فوركلور (انظر أدب شعبي)

فولتير ٢٧٤

فيشر (لورد) ٣٥٦

فيكتوريا (الملكة) ٣١٨ ، ٢٣٥ ،

فيليب (الثاني) ٢٥٩

فيليب (دوق أورليان) ٢٩٤

فيليب القدوني (أمير هيس) ٢٥٨

فيليب اللقدوني ١١٢ ، ١٣٦ ،

الفينيقيون ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

٩٦ ، ١٤٢

فيومي ٢٧٤

فيتا ٢٤٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،

٢٣٥ ، ٢٩٨

(ف)

فاراداي (ميشيل) ٣٠١

فارس (فرس) ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٦ ،

١٢٨ ، ١٤٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨

فاسكودي جاما ٢٧٥ ، ٢٨٠

الفاشست ٣٧١

فالتون (روبرت) ٣٠٠

فالتر (الإمبراطور) ١٨٤

فرعون (الفراعنة) ٦٣ ، ٨٠ ، ١٠٣ ،

١٦٨

فرانكو (الجبرال) ٣٧٠

فردريك الثاني (الإمبراطور) ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠

فردريك الثالث ٢٥٤ ، ٢٧٠

فردريك بربوسا ٣٢٤

فرديناند (الملك) ٢٤٠ ، ٢٠٨ ،

٢٥٩ ، ٢٥٤

فرديناند (الإمبراطور) ٢٥٩

فرساي ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦

الفرنجية (قبائل) ١٥٩

فرنسا ٢٨ ، ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،

٢٥٧

فرنسيس الأول (فرانسوا) ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧

القوط الغربية : ١٣٣ ، ١٣٥

(ك)

الكاثوليكية (الكنيسة) ١٩١
 كارل ماركس ٢١٧
 الكارلوفنجيين (أسرة الملوك) ١١٧
 كاليغولا ١٥٢
 كامبانا ٣١٢
 كاثوت ٢١٤ ، ٢١٥
 كاهن (الكهانة) ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩
 ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣
 ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٦٠ ، ١٦٠
 ، ١٧٦ ، ٢٠٢
 الكاينوزوى (الزمن) : ٢٠ ، ٢٨
 ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 كتابة ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٠ ، ١٣٤
 الكتاب المقدس العبراني ٢٤٤ ،
 ، ٢٥١ ، ٢٥٢
 الكتابة السارية ٦١
 الكتابة الهيروغليفية
 الكتابة بالصور ٦١
 كراسوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٦
 الكرملين ٣٦٠ ، ٣٦١
 الكرنك ٧٦
 الكرمانيون ٤٢ ، ٤٩
 كرويسوس ٨٦

(ق)

القاهرة ٢٠٦

قباذ ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢
 قبلاى خان ٢٣٨ ، ٢٤٦
 القرآن ٢٠٢ ، ٢٠٦
 قربان ٥٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢١
 ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦٦
 ، ١٦٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٢
 قرطاجنة (قرطاجيون) ٦٩ ، ٧٧
 ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦
 ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
 ، ١٤٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠
 قسطنطين ١٤٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،
 ، ١٨٤ ، ١٩٤
 القسطنطينية ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨
 ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٠
 ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣
 ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦
 قشريات ١٠
 قفيز ١٠٥
 القمر ٨٠٧ ، ٤
 قورش ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٥
 القوط ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ، ١٩٢
 ، ٢١١
 القوط الشرقية ١٣٣ ، ١٣٥

كوليس (كرستوفر) : ٢٤٨ ، ٢٤٧

٢٨٢

الكومنتائج ٢٥٨

كومينوس (الكسيوس) ٢٢

كونستانس مجمع ٢٥٠

كونتشيس ١٠٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠

١٣١

الكونكرود (معركة) ٢٨٤

الكويكات ٤

كياكسارس ٨٣

كيروف ٣٦٠

الكيمياء (علم) ٢٠٨

الكيميائيون القدماء ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢٤٢

(ل)

اللاتينية (الإمبراطورية) ٢٦٧ ، ٢٧٥

اللاتينية (الكنيسة) ٢١٦ ، ٢٢٠

٢٢٣ ، ٢٤٩ (إصلاح) ٢٥٠

اللاتينية (لغة وشعوب) ٧٢ ، ١٦١ ،

٢٤٦

لانجلي (الأستاذ) ٣٠٥

لاهوتى (لاوتى) ١٠٤ ، ١٢٨

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢

ليدوس ١٥٢

لثينوف ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

لثوانيا

اللغة الإنجليزية ٧٢

لقوف (الأمير) ٣٥٥

كرينسكى ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

كسرى الأول ١٩٥

كسرى الثانى ١٩٥

كلايف (روبرت) ٢٧٦

الكث (البريشونيون والجويديليون

الح) ٨١

الكلدان ٨٣ ، ٨٤

كلنت الخامس (البابا) ٢٣٤

كلنت السابع (البابا) ٢٣٤

كلوديوس ١٥٢

كلوفس ٢١١

كليوپطرة ١٥١

كال (مصطفى) ٣٦٨ ، ٣٦٩

كن (إمبراطورية) ٢٣٦ ، ٢٣٧

كندا ٢٣٤ ، ٢٣٥

كنمان ٩٠ ، ٩٢

كنج (جورج) ٣٩١

كنوسوس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٦ ، ٨٢ ، ٩٩

الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية

١٧٨

الكواكب ٦

كورتيز ٢٥٩

كورنواليس (الجنرال) ٢٨٤

الكوشان (أسرة) ١٥٨

الكلوك ٣٥٨

كولتاشك (الأميرال) ٣٥٧

ماجنو (خط) ٢٨٣
 مارأتون ١٠٦ ، ١٠٧
 مارتن الخامس (البابا) ٢٣٥
 ٢٥٠
 مارشان (السكولونيل) ٢٣٩
 مارك أنطون
 ماركو أنطون ١٥٢
 ماركو بولو ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
 ماركو أوريلوس ١٥٢
 ماريوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١
 الماركسية (كارل ماركس)
 ٣١٧
 مازارين ٢٦٨
 ماكولي (اللورد) ١٤٥
 مانجو خان ٢٣٨
 ماني ١٩٤ ، ٢٢١
 ماهافي (الأستاذ) ١١٧
 مايا ٥٦ ، ٥٩ ، ١٢٨
 متكاس (الرئيس) ٣٩٢
 متحف الإسكندرية ١١٦ ، ١١٧
 ١٣٨ ، ٢٠٨
 مترا ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩
 للتراثية (العقيدة) ١٦٩ ، ١٧٨
 المجر (المجرئون) ١٦١ ، ١٧٨
 محار ١١ ، ١٤
 محمد (النبي) ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
 ٢٠٣ ، ٢٢١

لكسبرج ٣٨٧
 لكسنجتون (معركة) ٢٧٥
 لندن ١٤٥
 لنكولن (أبراهام) ٣٢٨ ، ٣٢٩
 لوثر (مارتن) ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥
 ٢٥٨ ، ٢٦٧
 لودندرف (الجنرال) ٣٧٦
 لوزان (معاهدة) ٣٦٨
 لوكريتيوس ٢٤١
 لوكولوس ١٤٩
 لويد جورج ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
 لويس الورع ٢١٧
 لويس الرابع عشر (الملك) ٢٦٩
 ٢٧٠ ، ٢٨٩
 لويس السادس عشر ٢٨٧
 لويس الثامن عشر ٢٨٧
 لويس فيليب ٢٩٤
 ليديا ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٠
 لينين ٣٥٦ ، ٣٥٧
 ليون الثالث (البابا) ٢١٦
 ليون العاشر (البابا) ٢٥٥
 ليوبولد الأول ٢٩٦
 ليوبولد (ملك البلجيك) ٣٨٧
 ليوناردو دافنشي ٢٩٩
 ليونيداس ١٠٧
 (م)
 ماجلان ٢٤٨

١٣٦ ، ١٣٥
 للكايون (الأمراء) ١٤٢
 مكتبة الإسكندرية ٢٠٤
 مكسمليان (عاهل الكيك)
 ٣٣٢
 مكسمليان الأول (الإمبراطور)
 ٢٥٤ ، ٢٥٥
 الكيك ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩
 ٢٦٦
 مكة ٢٠٢ ، ٢٠١
 ملبورون ١٩١
 ملتون ١٠٠
 للالوك القرنينين (عظمة) ٢٢٣
 ٢٣٤
 ملن (الجنرال) ٣٥٨
 مل ٣٨١
 ملكة السموات (مذهب) ١٧٣
 ١٧٨ ، ١٧٥ ، ١٧٤
 منيسكو ٣١٢
 منج (أسرة) ٢٣٩ ، ٢٧٨
 مور (الير توماس) ٣١٢
 موسى ٩٠ ، ٩٢
 موسوليني (بنيتو) ٣٧١ ، ٢٧٢
 ٣٩١ ، ٣٨٨
 مولوتوف ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
 مونزو (الرئيس) ٢٩٣
 مونزو (مبدأ) ٢٢٩
 ميتاني ٧٤

محمد الثاني ٢٣٩
 المحظورات ٤٦
 المحيط ٨٠٥
 المخروطيات ١٩ ، ٢٦
 المريح ٤
 المسيحية ١٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣
 ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢
 المسيحية اللاتينية ٢٨٠ ، ٢٨٥
 السلجون ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩
 مسوري ٣٢٥
 مسينا ١٣٧ ، ١٣٨
 مسيناي ٨٢
 مسينوس ٦٣
 المشتري ٤
 مشروع السنوات الخمس بالروسيا ٢٥٩
 مصر (مصريون) ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣
 ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١٢٨
 ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٩٢
 ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٢١
 معرفة ٥١ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٦٥
 للفول ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٣٣
 ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٧٨
 للفولي (شبه) ٥٢
 للفولية (الشعوب) (الفروع) ١٥٥
 ١٩٧ ، ٢٣٦ (الإمبراطورية ٢٧٦)
 مقدونيا (المقدونيون) ١٠٢
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،

نوجارت (غليوم دي) ٢٣٤
نوردى ٥٥ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،
١٥٨ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٣٣
نورماندى ٢١٨ ، ٢١٤
نورمبرج (صلح دينى) ٢٥٨
نوميديا (التوميدون) ١٤٠ ، ١٤٩
نياندورتال (النياندرتاليون) ٣٥ ، ٣٦ ،
٤٧ ، ٤٣ ، ٤٠ ، ٣٨

نيرون ١٥١
نيقولا الأول ٢٩٦ ، ٣٣١
نينوى ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ١١٤ ،
١٩٥ ، ١٩٨
نيوزيلنده ٣٢٧
النيلويلى (انظر العصر الحجري الحديث)

(٥)

آل هابسبرج (أباطرة) ٢٥٥
هاتور ١٦٨
هادريان ١٥٢ ، ١٥٣
هارولد (ملك انجلترا) ٢١٨
هارولد هاردرادا (ملك النرويج)
٢١٨
هاستنجس (معركة) ٢١٨
هاستنجس (وارن) ٢٧٦
هاكون الأول (الملك) ٣٨٥
هان (أسرة) ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
١٩٧

الليديون ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٥ ،
١٠٥ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ١٣٣
ميشيل السابع ٢٢٠
ميخائيل الثامن (الملك) ٢٢٣
مينوس ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣

(ن)

نابولي (جامعة) ١٣٥ ، ١٣٦ ،
نابوليون الأول ٢٦٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ،
٢٩١ ، ٢٢٥
نابوليون الثالث ٢٣١
نابونيداس ٨٤ ، ٨٦
النازية ٣٧١
نات ٢٣ ، ٢٧
نبتيون ٤
نبوخذ نصر ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٤٤ ،
نجريدى (انظر شبه زنجي)
النجوم ٤٠٥
نخاو الثانى ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٤ ،
نرفانا ١٢٤
النرويج ٣٨٥ ، ٣٨٦
النشوء والارتقاء المصوى
النصرانية (انظر مسيحية)
النفاس الزائف ٥٣
نلمن (الأميرال) ٢٩٢
النمسا ٣٧٩

الهوتقوت ٤٢
هولاكوخان ٢٣٩ ، ٢٣٨
هولنده ٣٨٦
هوميروس ١٠٠
المون ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٨ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ،
٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
المونية (الشعوب) ٦٦ ، ١٥٥
هونوريوس ١٨٤ ، ١٨٨
هونوريوس الثالث (البابا) ٢٣٠
آل هوهنزولرن ٣٦٩
آل هوهنشتاوفن ٢٣٢
هياكل عظيمة ٤٣
هيارخوس ١٢٢
هيرودوت ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢
الميروغليقية ٦٢ ، ٩٧
هيوفيلوس ١١٧
هيرون ١١٧ ، ١٣٩
هيستاسبس ٨٨
هيوكابت ٢١٧

(و)

واط (جيمس) (ما كينة) ٢٩٩
واترلو ٢٩٢
واشنطن (جورج) ٢٨٤ ، ٢٩٣
والدو ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥١

هانيبال ١٤٠
هتار (أدولف) ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ،
٣٨٥
هرقل (الإمبراطور) ١٩٥ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
هرقليا ١٣٦
هرقليتوس ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٥
هرون الرشيد (الخليفة) ٢١٩
هس (جون) ٢٥٠ ، ٢٥٢
هسيا (إمبراطورية) ٢٣٦
هكسوس ٦٧ ، ٧٣
هل (كوردل) ٣٩٠
هله براند ٢٢٨
الهاليي (العالم) ١١٩ ، ٢١٠
الهلوطية
هليولي (هليوليثة) - (انظر الثقافة
الشمسية الحجرية)
الهملايا (جبال) ٢٧ ، ١٢٢
الهند ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
الهند وإسيكليديون ١٥٨
الهندوكية (الديانة) ١٢٧
هنرى الرابع (الإمبراطور) ٢٢٤
هنرى السادس (الإمبراطور) ٢٢٩
هنرى الثامن (ملك إنجلترا) ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
هنرى الصياد ٢١٧

يسوع ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
 ٢١٣ ، ٢٥٢ ، ٢١٥
 اليسوعيون (الرهبان) ٢٥٣ ، ٣٠٤
 (الآباء) ٣١٣
 اليهود ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٣١ ،
 ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢١٩
 يهودية (يهوذا) ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٤٢
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤١
 يوان (أسرة) ٢٣٨ ، ٢٣٩
 اليونانيا ١١٠
 يوحنا الحادي عشر (البابا) ٢٢٤
 يوحنا الثاني عشر ٢٢٤
 يورينيدس ١٠٩
 يوشع (الملك) ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠
 يوليوس الثالث ٢٦٠
 يوليوس قيصر ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 يونان (انظر إغريق)
 اليونانية (اللغة) ٢٠٦

ورق ٢٦٥ ، ٢٦٦
 وستفاليا ٢٧٠ ، ٢٩٨
 الولايات المتحدة الأمريكية ٣٢٣ ، ٣٢٥
 ولزى (الكردينال) ٢٦٨
 ولسن (الرئيس) ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
 ولنجتون ٢٩٢
 الوندال ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٢
 ويجاند (الماريشال) ٣٨٩
 ويفل (الجنرال)
 ويكليف ٢٣٥ ، ٢٥٠
 ويلز ٣٢٥

(ي)

اليابان ١٢٧
 الحرب اليابانية الصينية ٣٤٤
 اليرموك (معركة) ٢٠٤

اقرأ في هذه السلسلة

جوزيف داموس
سبع معارك فاصلة في الصراع
الوطني

- لينواير تشامبرزلايت
سلسلة الوثائق المهمة
الأمريكية لآراء مصر

د. جون هيندر
كيف تكتب ٣٨٥ بيتا في
الليلة

بيير لير
للمصحة

د. غريوال وجيه
و الكوميديا اللغوية لكانلي
في الفن للثقافي

رسميس عوف
كتاب الروي قبل الثورة
البلطجية وبعدها

- محمد نعمان جلال
تجربة عدم التحيز في عالم
مظلم

مرانكا ل باوير
الظفر القوي المصنوع ١

شوكات البروسي
الفن التكتيكي المعاصر في
الوطن العربي

- محي الدين احمد حسن
القطعة الثرية والقبلة المصنوعة

ج. دافني اندرو
نظريات الفيلم الكروي

جوزيف كوزراف
مفكرات من القلب القصص

- جوهان بورشنر
لحمية في الكون كيف نشأت
واين توجد

نانسة من العلماء الأمريكيين
بقيادة الدفاع الاستراتيجي
عربي الفضاء

- السيد خليفة
ادارة الصراعات الدولية

- مصطفى عسانى
التيروكروبيير

مجموعة من الكتاب اليابانيين القدام
والمحاضرين

حقائق من القلب الياباني
القصة - الدوا - الحكاية -
القصة القصيرة

بيل شول وأدبنت
القوة النفسية للأمرام

- صفاء خلوصي
فن القريحة

رالف شى ماتلو
تولستوى

فيكتور برومير
سقطال

فيكتور هوجز
وسائل وأحداث من الماضي

فيرنر هيرنبورج
لجزء الكل - معالوات في مضمار
الفيزياء الثرية

سمنى مواه
التراث اللامضى - ملوكس
والماركسيون

ف. ج. آينكوف
فن الأدب الروائي عند التواستوى

مادى نعمان الهيتى
ادب الأطفال - فلسفته - فنيته
وسلطته

د. نعمة رحيم العزاوى
احمد حسن الثريات كتابا وثقافة

- فاضل احمد الطائى
اعلام العرب في الكيمياء

جلال المشوى
قوة المرح

هنرى باربوس
التجسيم

د. السيد خليفة
صنع القرار السياسي في
مفكرات الفكرة الصالحة

جاكوب برونووسكى
لتطور الحضارى للإنسان

د. روجر ستروچان
ل تسخير تعليم الأطفال
للأطفال ؟

كانتى شيد
قريبة الدواجن

١٠ سبتمبر
ملوكى وعالمهم في مصر
القيمة

د. ناهوم بيتروفيتش
الظفر القوي

مروان رضى
احلام الإعلام وقصص اخرى
ي. راسي نكايام جابريوتسكى
الالكترونيات والحياة المدنية

آدمس هكسلى
نقطة مقابل نقطة

ت. و. فريمان
الجغرافيا في مائة عام

رايموند وليامز
الثقافة والمجتمع

د. ج. فرييس ١٠٦ ج. فيكتور هور
تاريخ التعلم والتكنولوجيا
٢ ج

ليسترديل راي
الأرض الغامضة

والتر آلان
الرواية الانجليزية

لويش فارچاس
المرد الذي فن المرح

فرانسوا موحاس
أكله مصر

- فترى حفى وأخرون
الإنسان المصري على الضلالة

اولج فولك
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة

مانس النحاس
الهوية القومية في السليما

جاييد وليام ماكسوال
مجموعات المظود - صيانتها
تصنيفها - عرضها

عزيز الشوان
الموسيقى تغيير نفسى ومثقف

د. محسن جاسم الموسرى
عصر الرواية

ديان توماس
مجموعة مقالات نقدية

جون لويش
الإنسان ذلك الكائن الفريد

جول ويست
الرواية الحديثة - الانجليزية
والفرنسية

١٠ عبد المطلب شحرارى
المصر المصري المعاصر
أصله ودياته

انور الصمدارى
على محمود طه النحاس والإنسان

ب. كرمليان
الأساطير الأفريقية والرومانية
د. توماس أ. هاريس
للنوازل النفسية - تحليل
العمليات الانسانية

لجنة الترجمة
المجلس الاعلى للثقافة
العلماء البيولوجيا
روائع الادب العالمية ١

دوى لرمز
لغة الصورة فى السينما المعاصرة

ناجى مختبر
الدورة الانسانية فى اليابان

بول هاريسون
العالم الثالث كما

ميكايل ابى وجيمس لافلو
الاتقاضي الكبير

ادامز فليب
دليل تنظيم المصنف

فيكتور مورجان
تاريخ القلوب

محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الاقتصادي

ابو القاسم الفريسي
الشاعرة ٢

بيترتون بورتر
الحياة القوية ٢

جاك كرايس جومود
كتبة التاريخ فى مصر القرن
القاسم عشر

محمد فؤاد كوريلي
قيام الدولة العثمانية

توني بار
التحليل للسلطان والتقليد

تاجور شين بينج وآخرون
مفكرات من ادب الصينى

ناصر حمرو على
سفرنا

مدين جومود وجريس اوجوت
وأخرون

سقوط المهر وقسم اخرى
الحمد محمد الشنولى

كتب غيرت الفكر الانساني
٧

جان لويس بوى وآخرون
فى اللق السيميائي القرائى

العثمانيون فى اوربا
بول كالا

دوى روبرتسون
الهيروين والدين والرهما فى
المجتمع

مور كاس ماكليونك
صور افريقية - نظرة على
حيوانات افريقية

هاشم للنحاس
تجيب مصفوفة على الشاشه
د. محمود سري طه

الكومبيوتر فى مجالات الحياة
بيت لورى

المخدرات حقائق نفسية
بوريس فيدوروفيتش سيرجيب

وتلطف الاعضاء فى الالف
اللياء

ويليام بينز
الهندسة الوراثية للجميع

ديفيد الدوتون
قريبة اسماء الزينة

احمد محمد الشنولى
كتب غيرت الفكر الانساني

جون د. بورر وميلتون جولدبير
الفلسفة وقضايا العصر ٢

ارنولد توينين
الفكر التاريخي عند الافريقى

د. صالح رضا
مناجى وقضايا فى الفن
الفنسيلى المعاصر

د. ه. كنع وآخرون
التفذية فى البلدان النامية

جورج جامود
بداية بلا نهاية

د السيد طه السيد ابو منيرة
الصرف والصناعات فى مصر

الاصلامية منذ الفتح العربى
حتى نهاية العصر الفاطمى

جاليليو جاليليه
حوار حول المظالم لثريسين

للكون ٣
اريك موريس والآن هـ

الارهابى
سيريل اندريد

اختلافون
ارثر كيستلر

القبيلة الثلاثة عشرة ويهود
القوم

جابريل باير
تاريخ ملكية الارضى فى مصر
الحديثة

اسطوى دى كريسبو وكينيث ميوج
اعلام الفلسفة السياسية
المعاصرة

دوايت سوين
كتابة السياترو للسينما
زافيلسكى ف. م

الزمن والقياسه (من جزء من
اليليون جزء من الثانية وحتى
مليارات السنين)

مهندس ابراهيم القرضاوى
اجهزة تكييف الهواء

بيتر رداى
الضمة الاجتماعية والانضباط
الاجتماعى

جوزيف داموس
مبعة مؤرخين فى العصور
الوسطى

س. م. پورا
الخرية اليونانية

د. عاصم محمد رزق
مراكز الصناعة فى مصر
الاصلامية

الك. ميسون ونورمان د.
اندريسون

العلم والطالب والمدرس
د. انور عبد الله

الشارع المصرى والفكر
ولد وتيمان روستو

بوار حول التنمية الاقتصادية
فرد. س. هيس

تيسيط الكيمياء
جون لويس يوركهارت

المعادات والتقاليد المصرية
الامثال الشعبية فى عهد
محمد على

الان كاسيار
الطوق السيميائي

سامى عبد المطى
تضيق السباحى فى مصر
بين النظرة والحقيق

مويل وشاندر وكراما سينج
اليدون الكهنة

حسين حلمى المهندس
اما الشاشه (بين النظرة
يقى) للسيميالى والتقليد

٢

كريستيان سالبه السطاري في الصيغ الفراسية	د. بيارد دودج الآله في الف عام	ديس بير رابر صناع الخلود
بول واين خلفيا نظام التجم الأمريكي	ستيفن رانسيمان الصناعات الصليبية	زيموند دير جماليات فن التشراخ
جورج ستاير بين توستوى وبوستوفسكى ٧	هـ ج. ولز معالم تاريخ الصليبية ٤	جوناك راي سميت الحصنة الصليبية الأولى وفرة الغروب الصليبية
يانك لافون رومانتيكية والواقعية	جوستاف جرونهارم حضارة الإسلام	الفريد ج. بلتر التكليس القبطية القديمة في مصر ٧
محمد سامي عدا الله العلم التسبيلى	د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ رحلة بيرقون الى مصر والصحار ٢	ريتشارد شاخت روك الفلسفة الحديثة
جوزيف بيس رحلة جوزيف بيس	جلال عبد الفتاح التكون تلك المجهول	ترانيم زواندست من كتاب الامتداد النفس
ستافان جيه سولرمون التواخ العلم الأمريكى	أرنولد جزل وآخرون الاطل من الخامسة الى العاشرة ٢	الحاج يونس المصرى وحالات لاريفما
هارى ب. ناش الصمر والبيض والصود	باني أونيمود افريقيا - الطريق الآخر	هورث فيلر الانفصال والهيمنة اللغوية
جوزيف م. بيرج فن الفرقة على التكام	هـ محمد زينهم فن الزجاج	بيرلراند واسل السلطة والفرد
كريستيان ديروش توبلكر المرأة الفرعونية	برنسلو مالتينفسكى الصمر والعلم والدين	بوتر ليكلز الصيغما الضيائية
جوزيف بندهام موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين	ادم مئز الحضارة الاسلامية	أوارد ميرى من النقد السيمنائى الأمريكى
ليونارد دافنى نظرية التصوير	فانس يكاره لنهم يصنعون البشر	نفتالى لويس مصر الرومانية
ت. ج. هـ. جيمز كنوز القمامة	د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ يوميات رحلة قاسكو داجاما	ستيفن أوزمنت التاريخ من شتى جوانبه ٣
روينولف فون هابسيج رحلة الأمير رينولف الى الشرق ٢	ليرى شاتومان كولتا القمم	موني براج وآخرون الصيغما الغربية من الضيق الى المحيط
مالكيم براندبرى النوابة اليوم	سوادارى الفلسفة الجوهرية	فانس بكارد النهم يصنعون البشر ٢
وليم مارسدن رحلة ماركس بول ٢	مارتن فان كريك حرب المستقل	جابر محمد الجزائر عاشروفت
مارى بيردين تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	فرانسيس ج. بيرجين الإسلام التثقيفى	- إبرار كريم الله من هم التثار
ديفيد شيندر نظرية الفن المعاصر والقراءة الشعر	عبد ميلدر المصرية المصرية من محمد على للمسادات	س. س. هيربر الكاتب الحديث وعالمه ٢
اسحق عظيموف العلم والفاق المستطيل	ج. كارفيل تفسير التعليم الهندسية	سريال عبد الملك حديث الفن
رونالد داليد لانج الحكمة والجنون والمخاملة	توماس ليههارت فن المايه والبانتريم	لورينو تود مفضل الى علم اللغة
كارل بورر بحثا عن عالم الفضل	أوارد دوبرنو التفكير المتجدد	اسحق عظيموف الضموس المتغيرة
فردمان كلارك الانفصال السياسى للعلم والكولوجيا	ريليام هـ. ماثيور ما هي الجيولوجيا	البرنارد تشيوى لونا ماهرود دور ما بعد العدالة

الصعيد نصر الدين السيد
اطلالات على الزمن الاتي

ممدوح عطية
البرنامج النووي الاسرائيلي
والامن القومي العربي

د - ليوبوفسكايا
الصحف

ايغور ايفانسن
هجمل تاريخ الادب الانجليزى

هيربرت ريد
التربية عن طريق الفن

وليام بيلا
معهم التكنولوجيا الميوية

الفين توفغر
تحول السلطة ٢ ج

يوسف شارة
مشكلات القرن الحادى والعشرين
والعلاقات الدولية

رولاند جاكسون
الكيمياء فى خدمة الانسان

ت - ج - جيمز
الحياة ايام الفراطة

جرج كاشمان
ثلاثة تشيب العرب ٢ ج

حسام الدين زكريا
الظنون بروكتر

ايزرا ف - فوجل
المهجرة اليابانية

ونفرد هولز
كانت ملكة على مصر

جيمس هنرى برستد
تاريخ مصر

بول داليز
الدقائق الثلاث الاخيرة
جوزيف وهارى فيلدمان
دينامية الفيلم

ج - كونتنو
الحضارة الفيتيقية

ارنست كاسيرو
فى المعرفة التاريخية

كنت ١ - كتشن
وميسيس للثلى

جان بول سارتز وآخرون
مشتقات من المصحح العالمى

روزالند ، وجاك يانسن
الظل المصرى القديم

تيكلواس ماير
شراوكه هواز
ميجيل دى ليس
الظفران

جوسيبى دى لونا
موسوليتى

الوزير جرابتر
موتسارت

على عبد الرؤوف اليمى
مشتقات من الشعر الاسباني

روبرت سكرلز وآخرون
الحاق ادب الخيال العلمى

ب - هـ ديفيز
المفهوم الحديث للسكان والزمان

س - هوارد
اشهر الرحلات الى غرب افريقيا

و - يارتراد
تاريخ الفلك فى اسيا الوسطى

فلاديمير تيمانيانو
تاريخ اوربا الشرقية

جابريل جاجارسيا ماركيز
الجبال فى الخشامة

هنرى بيرجسون
الفنمكة

مصطفى محمود سليمان
الزلازل

م - و - ثرنج
ضمير المهندس

ر - ر - جرنى
الحيثيون

ستينو موسكاتى
للحضارات السامية

د - البرت هورانى
تاريخ الشعوب العربية

محمود قاسم
الادب العربى المكتوب بالفرنسية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٧٨٤ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5998 - 0

يعرض هذا الكتاب بعبارة موجزة تاريخ العالم منذ أقدم حقب الحياة وحتى القرن العشرين، وقد سبق لنفس المؤلف أن قدم هذا الكتاب في عمل موسوعي ضخم، ترجم ونقل إلى العربية في أربعة أجزاء تحت عنوان "معالم تاريخ الإنسانية"، وصدر في إطار هذا المشروع، ولكن هذا الكتاب ليس مجرد مختصر للكتاب القديم، بل إنه يعرض تاريخ الحضارة الإنسانية وتطورها من زاوية جديدة. وهو يحاول في هذا الكتاب أن يبرز حقيقة هامة، وهي أن الحضارة ليست حكرًا على أمة واحدة أو منطقة بعينها، بل إنها عمل إنساني تضافرت جهود البشر في شتى بقاع الأرض في بنائه وتغذيته وتطويره، وهو في الوقت نفسه يعرض للمآسى التي ألمت بتاريخ الإنسان بسبب الحروب المدمرة، حيث يرى أن الملوك الفاتحين — الذين تطلب كتب التاريخ العادية في مدحهم — كانوا وبالاً على العالم، وأنهم بددوا جهود البشرية في أتون الحديد والنار. وقد وفق ويلز إلى تقديم هذا المختصر السريع العميق لقصة الحضارة الإنسانية، وحظى هذا الكتاب بالشهرة الواسعة حتى أصبح من الكلاسيكيات التاريخية، وقد ترجمه المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد، وهو واحد من أعلام حركة الترجمة العربية في القرن العشرين وإن لم يأخذ حظه الواجب من الشهرة. واليوم نعيد تقديم هذا الكتاب من جديد إلى القارئ العربي؛ لنكمل الهدف الذي نسعى إليه في مشروع الألف كتاب، وهو التعريف بتاريخ الحضارة بجوانبها المختلفة على اتساع العالم.

